السيرة النبوية

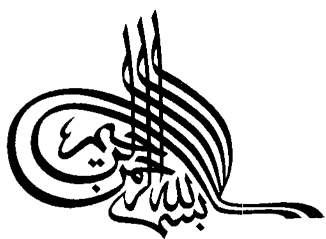
كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

(قراءة جديدة)

محمد الصوياني

الجزء الثالث

مكتبة العبيكان


بسم الله الرحمن الرحيم

معركة ثانية على أرض بدر

فقد اغترّ أبو سفيان -قائد قريش- بما حدث في أُحُد.. فصاح بالنبي ﷺ متحدياً: (موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا)[1]، كان أبو سفيان ومن معه يريدون أن يملأوا آبار بدر بأجساد المؤمنين مثلما حشر المؤمنون جثث طواغيت قريش في تلك البئر المنتنة على أرض بدر.. حلم لقريش.. فهل يتحقّق..

كان أبو سفيان يريد استغلال مناسبة إقامة موسم بدر.. وهو موسم للعرب يجتمعون فيه تجارةً وأدباً وشعراً.. لكن أبا سفيان أراد أن يجعل للحرب نصيباً في هذا الموسم.. حرب تستعيد بها قريش بعض ما تناثر من هيبتها.. حرب يشهدها العرب جميعاً.. فليكن لأبي سفيان ما يريد.. ها هو ﷺ عندما اقترب موعد إقامة سوق بدر يستعدّ للسفر.. لا للحرب فقط.. بل للحرب والتجارة.. متجاهلاً كل صيحات المخذلين والجبناء في المدينة الذين يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم). فقد ردّ ﷺ على أولئك المخذلين والجبناء بعزم شاركه به أصحابه رضي الله عنهم فقالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل).. فامتدح الله هذا الإيمان المتجذّر وهذه الثقة الراسخة بالله.. فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[2]، فـ (قد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر، حيث قتلتم أصحابنا.

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٣).

فأمّا الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أُهبة القتال والتجارة فأتوه)[1].

وصل الشجعان إلى أرض بدرٍ فرحبت بهم وتذكرت نصرهم.. كانت أرض بدرٍ أرضاً للانتصار.. هكذا هي في عقول وقلوب المؤمنين.. أمّا بالنسبة لقريش فهي تذكرهم بالهزيمة.. لم يستطع أبو سفيان وجيشه مغادرة مكّة ولا الحركة منها.. فالتشاؤم يعيقهم عن الحركة.. يشلّهم عن الوفاء بالوعد والتحدّي.. أبو سفيان وكبار القوم خائفون.. يخشون أن تحشر جثثهم في بئر أخرى.. فلم يحضروا.. وهكذا:

انتهت غزوة بدر الثانية قبل أن تبدأ.. فليس على الساحة سوى المؤمنين.. إنهم يتلفتون فلا يرون أحداً.. يذرعون أرض بدر.. يمشطونها بحثاً عن جيش الوثنيين فلا يرون أحداً.. وهكذا انهزمت قريش في معركة هي التي طلبتها وحدّدت مكانها وزمانها.. أما رسول الله ﷺ وجنده.. فقد مالوا بمطاياهم نحو موسم بدر (فأتوه فلم يجدوا به أحداً، وتسوقوا فأنزل الله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾)[2]، فطلب ﷺ من أصحابه أن يكتبوا هذه الآية وأن يجعلوها بعد الآية السابقة، لتقرأ هكذا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[3].

تفضّل سبحانه على نبيّه ﷺ وصحابته رضي الله عنهم بانتصار لم

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن غزوة حمراء الأسد وهذا هو آخر ذلك الحديث.

(٣) سورة آل عمران: (١٧٣ - ١٧٤).

ترق فيه قطرة دم.. فباعوا واشتروا وكسبوا.. ودعوا إلى التوحيد، وربما كسبوا بدعوتهم تلك أتباعاً ومؤمنين جدداً ينشرون التوحيد في قومهم أو يهاجرون.. ثم عادوا شوقاً إلى أهلهم.. شوقاً إلى المدينة..

كانت المدينة غادة مكتنزة بالجميل والجديد.. كان هواؤها صافياً نقياً.. بعد أن تطهّر من ذلك الوباء.. الذي لوّث الصحة والعقول.. وأنزف الدماء والأموال.. المدينة الآن نقية. لأنه قد نزل

تحريم الخمر

الخمر التي تؤرق بعض الصحابة ويحيّرهم أمرها.. كانت تصنع في المدينة من خمسة أطعمة.. يقول ابن عمر رضي الله عنه: (نزل تحريم الخمر، وإن في المدينة يومئذٍ لخمسة أشربة)[1] (نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير)[2].

وكان نزول تحريمها لأسباب مازالت ممتدة حتى الآن.. ما زالت شنيعة وخطيرة حتى الآن.. وما جاء الإسلام إلاّ لتطهير المجتمع من مثل هذه الأسباب.. التي تهدّد أخوّة الإيمان وودّه ووصاله..

من هذه الأسباب قول أحد الصحابة: (إنما نزل الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه، ورأسه، ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان - وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٦).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٩).

حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)[1]، ويقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرم، حتى انتشينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل.. وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور، فضرب به أنف سعد، ففزره، وكان أنف سعد مفزراً، فنزلت آية الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)[2] عن هذه الخمر..

هل أنتم منتهون عن هذه الخمر التي تذيب العقل.. وتمحو اللياقة الأدبية.. إن في الخمر لذّة لاشكّ في ذلك ولولا ما فيها من نشوة ما شربها أحد.. لكنها تسبّب الصداع والغثيان بعد تلك النشوة.. وهي تحيل شاربها إلى إنسان مريض.. وقح يتفوّه بكل بذيئة.. ويفشي كل ما ينبغي إخفاؤه من رغبات ونزوات تكدّر النديم والجليس والصاحب والقريب.. الخمر يدمر ذلك التحكم المهذب الذي يحفظ للإنسان شخصيّته ووقاره واحترامه.. إنسانيته وكرامته.. بالخمر يتحوّل السكران إلى حيوان يهذر بكل قبيح.. ويترو على كل محرم.. بالخمر يختلط الخطأ بالصواب.. والحلال بالحرام.. والأدب باللاأدب.. أما

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم والبيهقي في السنن (٨/٢٨٥).

تحريم الميسر

فالميسر -وهو القمار- مرض آخر من أمراض التخلّف واللامسؤولية.. فالإنسان الذي يكدّ ويكدح من أجل تحصيل مال.. وبعد أن يجمعه يقف على شرفة جبل تطل على بحر فيرمي كل ما جمعه في سنين في ذلك البحر.. الإنسان الذي يفعل ذلك أبسط ما يقال عنه إنه: مجنون.. والمجنون لا يترك ولا يسمح له أن يؤذي نفسه ولا غيره.

الميسر يدمر الأسر والدول والأخلاق.. الخمر والميسر نوعان من أنواع الجنون.. ورسالة الإسلام توقظ العقول.. توقدها تحضّراً ورقياً وتمدّناً.. فكيف تلقى الصحابة هذا الخبر.. كيف استقبلته قلوبهم ونفوسهم.. كيف استقبله أولئك الذين كانوا لا يصبرون عنها.. تعالوا إلى بيت أم سليم وأبي طلحة حيث كان: أبو دجانة.. وأبو عبيدة.. ومعاذ بن جبل.. وسهيل بن بيضاء.. وأبي بن كعب رضي الله عنهم في ضيافة أبي طلحة رضي الله عنه.. كانوا ندامى.. يحتسون أقداحاً من الخمرة.. وكان ساقي أولئك الندامى الأخيار ابن أم سليم.. أنس بن مالك رضي الله عنه.. الذي يقول: (بينما أنا أدير الكاس على أبي طلحة، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي دجانة، «وأبي بن كعب» حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، «فإذا مناد ينادي، قال: أخرج فانظر» فسمعنا منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، «فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس.. اكف ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها» «فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقتها» «يا أنس.. قم إلى هذا الجرار فاكسرها، فقمت إلى مهراس لنا فضربته بأسفله حتى تكسرت» فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا

الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، وإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾)[1]، فانتهى الصحابة بعد سماعهم لهذه الآية في مسجد النبي ﷺ.. رغم إدمان بعضهم لها.. والمدمن يحبس في مصح أحياناً كي يتخلّص من إدمانه.. لكن إيمان الصحابة وتربية النبي ﷺ لهم كانت من العمق والسموّ والامتداد بحيث يتلاشى أمامها أي إدمان.

تخلّصت المدينة من أمّ الخبائث.. وأم الأمراض والمشاكل.. لكن ماذا لو استفاد البعض من الخمرة في غير الشرب.. في البيع والشراء مع غير المسلمين.. في العلاج مثلاً..؟

أما العلاج فلا تصلح الخمر أبداً لأنها مرض.. النبي ﷺ يقول ذلك.. والطب أيضاً يؤيّد ذلك ويرفضها.. قال ﷺ: (إنها ليست بدواء، ولكنها داء)[2]. أمّا عن التجارة.. فقد كان تاجر خمر من الصحابة رضي الله عنه يقال له: كيسان (كان يتجر في الخمر زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق -يريد بها التجارة- فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال:

يا رسول الله، إني جئتك بشراب طيّب، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠) والبيهقي سنن (٢٨٦/٨) واللفظ له والزيادة عند البخاري ومسلم ومالك (١٥٤٤) وأحمد.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٤٧٨/١).

يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك، قال: فأبيعها يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ: إنها قد حرمت، وحرّم ثمنها، فانطلق كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هرقها)[1]، ويقول أبو سعيد رضي الله عنه: (قال النبي ﷺ: إن الله تعالى حرّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشرب، ولا يبع)[2].. وهذا رجل آخر (أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال له رسول الله ﷺ: هل علمت أن الله قد حرمها؟ قال: لا..

فسارّ[3] إنساناً، فقال له رسول الله ﷺ: هل علم أن الله قد حرمها؟ قال: لا. فقال له رسول الله ﷺ: بم ساررته؟ فقال: أمرته ببيعها، فقال: إن الذي حرّم شربها حرّم بيعها، قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها)[4].

و(سئل ﷺ عن الخمر تتخذ خلاً؟ فقال: لا)[5].

لا.. بهذه الكلمة انتهت علاقة الإسلام بالخمر.. قطيعة وحرب لا هوادة فيها ضدها.. ليبدأ أولئك المؤمنون بالاستفادة من أوقاتهم التي كانت تسفكها الخمر..

انتهت علاقة الإسلام بالخمر، و

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد فقال: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر... (٤/٣٣٧) وهذا السند صحيح، نافع صحابي، وسليمان البصري تابعي ثقة (التقريب - ١/٣٢٨) وأما ابن لهيعة فحديثه هنا صحيح، لأن الراوي عنه هو قتيبة بن سعيد.. وقتيبة بن سعيد بن جميل ثقة ثبت من رجال الشيخين (التقريب - ٢/١٢٣).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم بيع الخمر).

(٣) أي كلم رجلاً سراً بينه وبينه دون أن يسمع النبي (ص).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم الخمر).

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (باب تحريم تخليل الخمر).

انتهت عدة زينب بنت جحش

مرّ على طلاقها من زيد بن ثابت ثلاثة أشهر.. أي ثلاث حيضات.. والمرأة لابدّ أن تنتظر ثلاث حيضات حتى تتأكّد من خلوّ رحمها من أي علاقة من زوجها الأوّل.. تتأكّد من عدم وجود حمل حتى لا تختلط الأنساب وتتفشّى الأمراض.. يقول سبحانه: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾(١).

وبعد أن مرت تلك الأشهر أمر الله النبي ﷺ بالزواج من زينب رضي الله عنها.. لسبب واحد ذكره الله في القرآن.. ونزل به جبريل عليه الصلاة والسّلام.. فما هو

سبب زواج النبي ﷺ من زينب

كان الناس في ذلك الوقت يعتبرون الابن بالتبنّي كالابن الحقيقي.. أي أن الابن إذا طلّق زوجته فهي حرام على أبيه والعكس.. فأنزل الله نسخ ذلك الشيء وأبطله بتزويج النبي ﷺ من زينب بنت جحش.. التي كانت زوجة لابنه -بالتبني- زيد بن حارثة. أنزل الله ذلك الأمر بعد أن كان النبي ﷺ يخشى كلام الناس حول ذلك.. لكن النبي ﷺ لا يستطيع أن يخفي شيئاً من الوحي ولا القرآن.. فإذا نزل الأمر فما عليه سوى السمع والطاعة لربّه سبحانه وتعالى..

ولذلك يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (جاء زيد بن حارثة، فجعل النبي ﷺ يقول: اتّق الله وأمسك عليك زوجك.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه)[1].

زيد يخطب زينب للنبي ﷺ

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: فاذكرها عليّ.

فانطلق زيد حتى أتاها -وهي تخمر عجينها- قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها -أن رسول الله ﷺ ذكرها- فولّيتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك. قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن)[2]، أي نزل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

(وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن)[3] لأنه لا يحتاج إلى ذلك.. فقد زوّجها الله إياه من فوق سبع سماوات.. فكان ذلك تكريماً لها.. فرحاً لها.. حباً لها.. كانت رضي الله عنها تبتهج بذلك (كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ.. تقول: زوجكنّ أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات)[4].. وكان في ذلك الزواج تكريم لزيد رضي الله عنه.. فقد خصّه الله بذكر اسمه من بين جميع أصحاب النبي ﷺ في القرآن.. حقاً لقد كان:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (زواج زينب).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

زواج زينب فرح وتحول

في حياة الصحابة والأمّة.. أحداث كثيرة في ذلك الـزواج.. آداب وتشريعات.. ومظاهر سرور صاحبت ذلك الزواج الكريم.. تعالوا نتجوّل في تقاسيم ذلك الفرح المليح..

سنبدأ أولاً بـ:

الوليمة والهدايا والمعجزات

يقول أحد الذين حضروا وشاركوا في تلك الوليمة: (مـا رأيـت رسول الله ﷺ أولم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب، فإنـه ذبـح شاةً)[١]، (ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر أو أفضل ممـا أولم على زينب)[٢] (أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه)[٣] شبعاً.

لم يشارك أنس بن مالك في الأكل فقط.. بل ساهم مع أمّه أم سليم رضي الله عنها في زيادة مساحات الفرح.. يقول رضـي الله عنـه: (أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسـول الله ﷺ واتّبعتـه، فجعل يتتبع حُجُرَ نسائه يسلّم عليهن، ويقلن: يا رسـول الله، كيـف وجدت أهلك)[٤]. ويحدّثنا أنس عن هدية أمّه فيقول: (فصنعت أمي -أم سليم- حيساً، فجعلته في تور[٥] «من حجارة» فقالت: يا أنس.. اذهب

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم زواج زينب.

(٥) إناء. والحيس تمر وسمن وأقط.

بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله..

فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمـــي تقرئـــك الســـلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله. فقال: ضعه. ثم قال:

اذهب، فادع لي فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، ومن لقيت «من المســـلمين» وسمّى رجلاً، قال: فدعوت من سمّى ومن لقيت.

قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: يا أنس.. هات التور «وضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول» فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: ليتحلّق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه. فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلّهم، فقال لي: يا أنس ارفع، فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، وجلس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ «فأطالوا عليه الحديث»، فجعل النبي يستحي منهم أن يقول لهم شيئاً «فأخذ كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام من القوم، فقعد ثلاثة» فخرج رسول الله ﷺ فسلم على نسائه، «فمشى، فمشيت معه حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع، فرجعت الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة» ثم رجع «فرجعت»، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب، فخرجوا كلّهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث

إلاّ يسيراً حتى خرج عليّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ، وقرأهن على الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ[1] إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[2]، (قال أنس: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي ﷺ)[3]، بعد هذا الموقف المحرج أمرت نساء النبي ﷺ بالحجاب.. وكان:

لنزول الحجاب قصة

فقد كان عمر بن الخطاب قبل نزول الحجاب يقترح على النبي ﷺ أن يحجب نساءه.. أنس بن مالك أيضاً يحدّثنا بذلك فيقول:

(قال عمر بن الخطاب: قلت لرسول الله ﷺ: لو حجبت عن أمّهات المؤمنين، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فترلت آية الحجاب)[4]، وتقول

---

(١) أي لا تتطفلوا تترقبون نضج الطعام ثم تعرضون أنفسكم للدخول دون دعوة.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد له أيضاً –باب زواج زينب.. وأكملت الآية لأن الحديث يقول: إلى آخر الآية بعد كلمة: يؤذي النبي.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد له أيضاً –باب زواج زينب.. وأكملت الآية لأن الحديث يقول: إلى آخر الآية بعد كلمة: يؤذي النبي.

(٤) سنده صحيح رواه ابن جرير (٣٢٤/١٠) حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي – عدي، عن حميد عن أنس، وحميد تابعي ثقة سمع من أنس، واسم ابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم وهو ثقة – التقريب (١٤١/٢) وابن بشار هو الثقة محمد بن بشار – التقريب (١٤٧/٢).

عائشة رضي الله عنها: (إن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذ تبرزن إلى المناصع، وهو صعيد أفيح، وكان عمر يقول: يا رسول الله، احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة، زوج النبي ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة - حرصاً أن يترل الحجاب - قال: فأنزل الله الحجاب)[1]، وفي حادثة أخرى.. كرّر عمر بن الخطاب تلك الأمنية.. كان رضي الله عنه أجرأ من غيره في البوح بما يضمره ويضمره غيره من إجلال لبيت النبوّة.. تقول عائشة رضي الله عنها:

(كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت أصبعه إصبعي، فقال: أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فترل الحجاب)[2] ولكن فيما بعد.. فالحجاب لم يترل بعد هذه الأحداث مباشرة.. تعالوا نسأل أنس بن مالك.. من أعلم الناس بترول الحجاب؟ قال رضي الله عنه: (أنا أعلم الناس بالحجاب، لقد كان أُبيٌّ بن كعب يسألني عنه، قال أنس:

أصبح رسول الله ﷺ عروساً بزينب بنت جحش، وكان تزوجها بالمدينة، فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، فجلس رسول الله ﷺ، وجلس معه رجال بعدما قام القوم، حتى قام رسول الله ﷺ، فمشى،

(١) سنده صحيح رواه جرير من طريقين أحدهما قوي عن الزهري عن عروة عن عائشة، وهذا إسناده كالذهب، والطريق القوية هي: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني عمرو ابن عبد الله بن وهب حدثني يونس.. وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة من رجال البخاري ويونس بن بكير حسن الحديث من رجال مسلم. والطريق الثانية: حدثني أبو أيوب النهراني، حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثني ابن حرة عن الزبيدي.

(٢) سنده قوي رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير - الأحزاب ٥٣) حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة..

فمشيت معه، حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه، فإذا هم جلوس مكانهم، فرجع فرجعت الثانية حتى بلغ حجرة عائشة، فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا، فضرب بيني وبينه بالستر، وأنزل الله آية الحجاب)(١).. وكانت هذه الآية تتحدّث عن زوجات النبي ﷺ فقط.. ثم أنزل الله سبحانه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(٢).

ففرض الحجاب على المؤمنات جميعاً.

وبينما كانت المدينة تعيش فرحاً.. وتشريعاً يمنح سلاماً في كل زاوية.. كان هناك خطر ينذر بفاجعة.. كان هناك خطر قادم من مكّة.. يطفح بالغلّ والثأر.. أتذكرون ذلك الشبح الذي نهض من بين جثث أحد.. ثم توجه نحو مكة نازفاً.. ها هو يعود ولكن لوحده هذه المرة.. فقد آلمه ما حدث في بدر.. وما أصابه في أُحُد.. ها هو:

الشبح يتسلّل لاغتيال النبي ﷺ

أنس بن مالك كما حدّثنا عن الحجاب من قبل.. يحدّثنا الآن عن قصة هذا القادم.. الذي حمله حقده وثأره نحو النبي ﷺ ليسجل له التاريخ حادثة تهزّ الجزيرة من البحر إلى البحر.. يقول أنس رضي الله عنه: (كان وهب بن عمير شهد أُحُداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه، فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٩٢) ومسلم (١٤٢٨) واللفظ له.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٩.

ظهره، ثم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب:

لولا عيالي ودين عليّ، لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً، فقال لـــه صفوان: فكيف تصنع؟

فقال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيل، ولا يلحقني أحد.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك عليّ، فخـــرج يشـــحذ سيفه وسمه، ثم خرج إلى المدينة، لا يريد إلاّ قتل النبي ﷺ، فلما قدم المدينة رآه عمر بن الخطاب، فهاله ذلك، وشقّ عليه، فقال لأصحاب النبي ﷺ: إني رأيت وهباً، فرابني قدومه، وهو رجل غـــادر، فـــأطيفوا نبـــيكم[1]، فأطاف المسلمون بالنبي ﷺ، فجاء وهب، فوقف على النبي ﷺ، فقال:

أنعم صباحاً يا محمد، قال ﷺ: قد أبدلنا الله خيراً منها[2].

قال: عهدي بك تتحدّث بها وأنت معجب.

فقال له النبي ﷺ: ما أقدمك؟

قال: جئت أفدي أساراكم. قال ﷺ: ما بال السيف؟ قال: أما إنّا قد حملناها يوم بدر فلم نفلح و لم ننجح.

قال ﷺ: فما شيء قلت لصفوان في الحجر: لولا عيالي ودين علـــيّ لكنت أنا الذي أقتل محمّداً بنفسي.. فأخبره النبي ﷺ خبره. فقال وهب: هاه.. كيف قلت؟

---

(١) أي كونوا حوله.

(٢) يعني تحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأعاد عليه. قال وهب: قد كنت تخبرنا خبر أهل الأرض، فنكذّبك، فأراك تخبر خبر أهل السماء «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله». قال: يا رسول الله، أعطني عمامتك، فأعطاه النبي ﷺ عمامته، ثم خرج إلى مكة.

فقال عمر رضي الله عنه: لقد قدم وإنه لأبغض إليّ من الختزير، ثم رجع وهو أحبّ إليّ من بعض ولدي)[1]، قال عمر ذلك لأنه لا يملك قلبه.. لقد أهداه إلى أحب الخلق إليه.. بعد أن أهداه إلى خالقه.. قلب عمر ليس ملكاً له.. ولذلك أحب وهباً بعد أن كان كالختزير أمامه.

متى أهدى عمر قلبه

أهدى عمر قلبه عندما كان يمشي مع حبيبه ﷺ يحمله الشوق.. يحمله الحب.. فالتفت نحو ذلك الحبيب فباح له بحب عظيم:

يقول الصحابي عبد الله بن هشام: (كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن.. والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر)[2].

تنازل عمر عن قلبه وعن نفسه.. فتماهى هواه وقلبه بحب الله ورسوله.. فعاش عمر مأخوذاً بمراد الله ورسوله ﷺ..

---

(١) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: شبح على أرض أحد.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٣٢).

دعوني أحدّثكم عن الحب

دعوني أحدثكم عن رجل كان يدخل البهجة على رسول الله ﷺ.. كان يضحكه.. أُتي به إلى النبي ﷺ وهو سكران.. شرب الخمرة بعد أن لعن شاربها.. وعاصرها.. وحاملها.. والمحمولة إليه.. وبائعها.. ومشتريها.. وآكل ثمنها.. ومعتصرها.. وساقيها.. ولعنت هي قبل ذلك..

أُتي بذلك الرجل المدعو «عبد الله» فجلده الصحابة.. ثم أتي به فجلد.. لكن ما علاقة ذلك بالحب..؟

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه: عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به فجلد، قال رجل من القوم:

اللّهمّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ:

لا تلعنوه، فوالله ما علمته إلاّ يحب الله ورسوله)[1]، فحبّه لله ورسوله حماه من اللعن.. وليس إقامة الحد عليه.. هذا ما صرّح به النبي ﷺ.. الخمرة تغلي في بطنه ورأسه ومع ذلك يقول النبي ﷺ: (فوالله ما علمته إلاّ يحب الله ورسوله..) لكن هواه غلبه فهوى.. والإسلام لا يلغي نقاط الضعف لدى الإنسان ولا يتجاهلها.. لكنه لا يبالغ في وصفها ووصف المعاناة منها.. الإسلام يقف أمامها ريثما يرفع ذلك المنحدر عنها.. ريثما يضمد جراحه وعواطفه من سناها.. ثم ينفث فيه من جديد حب الانطلاق والتجديد والتشييد.. لقد كان ذلك الصحابي يمازح النبي ﷺ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٨٠) وابن حزم (٤١٧/١٣) واللفظ له، لفظ البخاري: فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله. والمعنى واحد.

ويرغمه على الابتسام والضحك: (لقد كان يهدي لرسول الله ﷺ العكة من السمن، والعكة من العسل، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه، جاء به إلى رسول الله ﷺ، فيقول: يا رسول الله: أعط هذا ثمن متاعه، فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يبتسم ويأمر به فيعطى، فجيء به يوماً إلى رسول الله ﷺ وقد شرب الخمر، فقال رجل: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله)[1].. ولذلك قال ﷺ في قصة مماثلة عندما قال بعض الصحابة لأحد الذين شربوا الخمر:

(أخزاك الله، قال رسول الله ﷺ: لا تقولوا هكذا، ولا تعينوا الشيطان عليه، ولكن قولوا: رحمك الله)[2].

هذا هو الحب في الله.. وهذا هو الحب في الإسلام.. وهذه هي الرحمة عند المؤمن الذي يحب الله ورسوله.. هذه هي العلاقة الحقّة بين المؤمنين.. فـ:

تعالوا أحدّثكم عن الحب والرحمة

في قصة أشد تأثيراً على النفوس..

قصة قال فيها النبي ﷺ:

---

(١) سنده حسن رواه أبو يعلى (١٦١/١) حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر.. أسلم مخضرم وابنه ثقة وعبد الله بن نمير وابنه ثقات أما هشام فحسن الحديث إذا لم يخالف فهو صدوق له أوهام —ومن ليس له أوهام.. وهو من رجال مسلم —التقريب (٣١٨/٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٧١) والبيهقي (٣١٢/٨) واللفظ له.

يا هزال لو سترته بثوبك

ها هو ابن هزال.. حدثنا يا نعيم ما هو ذلك الشيء الذي تمنى ﷺ لو ستره والدك بثوبه.. أو من هو؟

قال نعيم رضي الله عنه: (كان ماعز بن مالك في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي:

ائت رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت لعله يستغفر لك - وإنما يريد بذلك رجاء أن يكون لـه مخرج، فأتاه، فقال: يا رسول الله إني زنيت فأقم عليّ كتاب الله «يا رسول الله طهّرني. فقال: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول طهّرني.

فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه.

فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهّرني.

فقال النبي ﷺ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ»: إنك قد قلتها أربع مرات، فيمن؟ قال: بفلانة. «فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أشرب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه[1]، فلم يجد منه ريح خمر».

قال ﷺ: هل ضاجعتها؟ قال: نعم، قال: هل باشرتها؟ قال: نعم. قال: هل جامعتها؟ قال: نعم [قال ﷺ: فهل أحصنت؟[2] قال: نعم] فأمر

---

(١) أي شمه.

(٢) بالزواج.

به أن يرجم، فلما رجم، فوجد مسّ الحجارة جزع، فخرج يشتدّ[1] «واشتددنا خلفه» فلقيه عبد الله بن أنيس وقد أعجز أصحابه، فنزع له بوظيف بعير[2] فرماه به، فقتله، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له.

فقال: هلاّ تركتموه، لعله يتوب، فيتوب الله عليه. «فكان الناس فيه فرقتين:

قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته.

وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ، فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة.

فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم، ثم جلس، فقال:

استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك.

فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»)[3].

لله حدود يجب تنفيذها.. دون مجاملة أو مداهنة.. وللنبي ﷺ حدود لا يستطيع تجاوزها.. فتح ﷺ لماعز أكثر من عشرة أبواب.. أشرعها ليهرب منها.. لكنه أصرّ على تنفيذ حدّ الله فيه.. فعل ﷺ ما

---

(١) يركض هارباً.

(٢) عظم الساق أو الذراع.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد (٥/٢١٧) وأبو داود (٤٤١٩) وما بين الأقواس لمسلم، وما بين المعقوفين للبخاري.. وسند أحمد وأبي داود هو: حدثنا وكيع حدثنا هشام بن سعد أخبرني يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه قال: ونعيم صحابي وابنه قال عنه الحافظ: مقبول والصواب أن يقول: صدوق فقد وثقه العجلي توثيقاً لفظياً فقال: ثقة، وهو من رجال مسلم.. ولا أدري لماذا ضعف الإمام الألباني كلمة لعله أن يتوب.. وهي من هذا السند.

يمكنه أن يفعله لماعز.. ثم نفذ حكم الله فيه.. ومازال في صدر النبي ﷺ لماعز الكثير الكثير.. توجّه ﷺ بحديثه نحو الرجل الذي أشار على ماعز بالاعتراف.. فهل شكره على فعله ذلك.. الإجابة رحمةً كالعادة.. فما محمد ﷺ إلاّ رحمة مهداة.. التفت ﷺ بحديثه إلى هزال معاتباً وقال لـــه كلمة كالحزن: (يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيراً مما صنعت به)[1] (لو كنت سترته بثوبك كان خيراً لك)[2]، لم يقل ﷺ: لكـــان خيراً لماعز رضي الله عنه.. بل قال: خيراً لك أنت يا هزال.. أنت أيها المبلغ.. ولك أنت أيضاً أيها المتلذّذ بفضح المستترين.. بدعوى الغضب لله ورسوله.. ومن أراد أن يمنح لنفسه حق اختراق جدران الآخـــرين وحريتهم المستورة.. فإن عمر ابن الخطاب وعبد الرحمن بـــن عـــوف رضي الله عنهما يقدمان لـــه درساً متحضراً.. يقول: (عبد الرحمن بن عوف: أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب، فبينما هم يمشون، شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه، حتى إذا دنوا منه، إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر - وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا قال: «هذا بيت» ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قال عبد الرحمن بن عوف: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله «عنه قال الله تعالى»: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. فقد تجسسنا، فانصرف عنهم عمر وتركهم)[3] لكن كم هو حجم ذلـــك

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٥/٢١٧) وأبو داود (٤٤١٩) وهو الحديث السابق.

(٢) صحيح الجامع الصغير (٢/١٣٢٣).

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق (١٠/٢٣١) والبيهقي (٨/٣٣٣) وابن حبان في الثقـــات (٤/٢٦٧) والحاكم (٤/٤١٩) عن الزهري حدثنا زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف عن المسور بن مخرمة أخبره أن عبد الرحمن بن عوف أخبره.. وزرارة تابعي ثقة - التقريب (١/٢٦٠) والمسور صحابي رضي الله عنهم جميعاً.

الخير الذي يحصل عليه من ستر على مسلم.. وحافظ على نقاء صورته أمام المجتمع..

(من ستر أخاه المسلم ستره الله في الدنيا والآخرة)[1]، ولما (أتي ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمراً. فقال عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسّس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به)[2] لـ(أن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم)[3] والإسلام لا يريد إفسادهم.. ولا أذيّتهم..

هذه بعض حقوق الإنسان –أي إنسان – في الإسلام.. دمه وماله وعرضه مكفولة الحماية.. بل إن الدهشة لتحاصر المرء عندما يعلم فداحة الجرم الذي يرتكبه أولئك السابحون في أعراض إخوانهم.. المنقّبون عن عيوب الناس لينشروها.. إليك هذه:

المقارنة بين العرض وغيره

قال ﷺ في قليل الربا: (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشدّ عند الله من ستة وثلاثين زنية)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأبو داود (٤٩٤٦) وابن حبان (٥٣٤) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود (٤٨٩٠) والحاكم (٨١٣٥) والبيهقي في السنن (٨/٣٣٤) والطبراني (٩/٣٥٠) من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال: قيل لابن مسعود.. وزيد ثقة مخضرم.. والحديث صححه الإمام الألباني (١/٢٧٧).

(٣) حديث حسن رواه (أبو داود - ٤٨٨٩) وابن أبي عاصم في الآحاد (٥/٣٠٣) والحاكم (٤/٤١٩) والطبراني (٨/١٠٨) وغيرهم عن إسماعيل بن عياش وهو صحيح الرواية عن أهل بلده عن ضمضم بن زرعة وهو حسن الحديث إذا لم يخالف وهو حمصي مثل إسماعيل، عن شريح بن عبيد وهو حمصي تابعي ثقة عن صحابيين وهو لم يسمع منها وعن مخضرمين وتابعي كبير.. لكن له شاهد عند البخاري في الأدب (٢٤٨).

(٤) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٦٣٦).

وقال في أقلّ الربا: (أهون الربا كالذي ينكح أمّه)[1].

ترى ما هو الذنب الذي يعادل أشدّ الربا إذا كان أهونه يعادل ذلك الفعل الشنيع والجريمة القذرة: الإجابة التي تذهل المسلم هي في قول النبي ﷺ: (أربى الربا شتم الأعراض)[2] (أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه)[3].

فلنعد إلى أقدس الأعراض والدماء.. عرض محمد ﷺ ودمه.. الذي كان وهب بن عمير قبل قليل يريد نثره على طرقات المدينة.. لكنه عاد إلى مكّة بغير القلب الذي جاء به.. عاد إلى مكة يحمل الحب والإيمان وعمامة النبي ﷺ.. عاد وهب مسلماً.. لكن فعله قبل أن يسلم أثار لدى النبي ﷺ وأصحابه حالة اليقظة والحذر.. فقد يكون هناك أكثر من مشروع لتصفية النبي ﷺ جسدياً..

وقد صدق التوقع.. وأفاد الحذر.. تسرّبت الأخبار إلى النبي ﷺ عن خطر قادم من جهة مكة.. لكنه ليس من قريش..

خطر قادم من قبيلة بني المصطلق

وبنو المصطلق قبيلة عربية تسكن قرب مكة.. في المنطقة الواقعة ما بين مكة والمدينة.. وقد أراد ﷺ استغلال واستثمار الوقت بمفاجأة تلك القبيلة قبل أن تتحرّك ويتكامل استعدادها.. أراد ﷺ أن يباغتها بضربة سريعة تشلّها.. لأن أي تأخير قد يضاعف من خطر تلك القبيلة.. وذلك لقربها من عدو النبي ﷺ الأول «قبيلة قريش».. أي تأخير يعني مزيداً من

(١) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).
(٢) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٢١٢).
(٣) حديث صحيح.. صحيح الجامع (٤٩٦).

الأعوان والعتاد والخطر.. فمباغتة ذلك الجيش الوثني وهو مسترخٍ على أرضه هو أسرع الطرق وأيسرها للقضاء عليه وإراحة المدينة من خطره..

استعد ﷺ بجيش قوي لـ

غزو بني المصطلق

وقد انضمّ إلى هذا الجيش مجموعة من المنافقين.. على رأسهم كبير المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول -ربما- لشعوره بقوة جيش النبي ﷺ.. وتأكده من هزيمة بني المصطلق.

وقبل أن ينطلق النبي ﷺ بجيشه ذلك أقرع بين سودة وعائشة وأم سلمة، وزينب، لتصحبه إحداهن في رحلته تلك:

فالنبي ﷺ (كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه)[1].

القرعة تقع على عائشة

وبعد إجراء القرعة خرج سهم عائشة الحبيبة.. لتصحب حبيبها ﷺ في سفره ذلك.. تقول عائشة رضي الله عنها:

(كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه..

فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهنّ، فخرج بي رسول الله ﷺ معه -وكان النساء إذ

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان رحمهما الله وسيأتي بقيته.

ذاك إنما يأكلن العلق[1]، لم يهيجهن اللحم فيثقلن[2]، وكنت إذ رحل بعيري[3] جلست في هودجي[4]، ثم يأتي القوم الذين يرحلون بي بعيري، ويحملوني، فيأخذون بأسفل الهودج، يرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فينطلقون به)[5] (وذلك بعدما أنزل الحجاب، وأنا أُحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا)[6] وانطلق الجيش، وانطلقت الهوادج تتمايل عبر الصحاري والقفار.. وخلال الأودية والشعاب.. تتمايل بعائشة ورفيقاتها رضي الله عنهن.. كما تتمايل القلوب بصوت حادي العيس أنجشة.. ذلك الصوت العذب.. الذي يأخذ الأسماع.. وربما أخذ الإبل أيضاً.. سمع ﷺ ذلك الصوت الشجي في بعض أسفاره.. فخاف على أجساد النساء وقلوبهن.. يقول أنس رضي الله عنه:

(كان لرسول الله ﷺ حادٍ حسن الصوت «غلام أسود يقال له أنجشة، يحدو، فقال له رسولُ الله ﷺ: يا أنجشة، رويدك سوقاً بالقوارير» رويداً يا أنجشة لا تكسر القوارير)[7]، كان ﷺ من الرقّة والذوق.. بحيث لا يلهيه هدفه العسكري والخطر الذي يكمن له عن تفقد رفاقه والعناية بهم.. لدرجة أنه (كان يتخلّف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم)[8].

---

(١) الطعام اليسير.

(٢) التهييج هو الورم من الشحم.

(٣) أي جهز للرحيل.

(٤) الهودج هو ما تجلس داخله النساء مثبتاً فوق ظهر البعير.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وابن إسحاق وهذا لفظ ابن إسحاق.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد (١٩٤/٦) واللفظ له.

(٧) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٣٢٣) واللفظ له.

(٨) سنده رواه أحمد (١٢٦/٢) حدثني إسماعيل بن علية حدثنا الحجاج بن أبي عثمان عن أبي

ويدعو أنجشة أن يخفّف من سيره حتى لا تتعب أجساد النساء الرقيقة.. وكان وصف النبي ﷺ للنساء بـ(القوارير) منتهى الذوق والرقّة.. فالقوارير ناعمة وجميلة.. وتحتاج إلى عناية فائقة.. وأماكن تليق بها وبرقّتها وجمالها.. والمرأة هي الرقّة والجمال والفتنة.. تحتاج إلى مستوى رفيع من التعامل والملاطفة بالقول والفعل.. وهو ما فعله ﷺ عندما قال ﷺ لأنجشة:

(ويحك يا أنجشة.. رويداً بالقوارير)(١).

وها هو ﷺ يحاول طرد الملل والسأم عن نفس حبيبته عائشة.. في ذلك السفر.

لقد أمر ﷺ فرسانه الشجعان بالتقدّم.. ثم نادى حبيبته وطلب منها أن تتأخر معه.. فالسفر طويل وشاق.. ولا بأس ببعض اللهو يدخل البهجة ويجدّد النشاط..

فماذا طلب منك الحبيب يا ابنة الصديق؟

تقول رضي الله عنها: (إنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر –وهي جارية – فقال لأصحابه: تقدموا.

فتقدّموا، ثم قال: تعالي أسابقك.

فسابقته، فسبقته على رجلي)(٢).

الزبير أن جابر حدثهم.. وهنا صرح أبو الزبير بالسماع.. وتلميذه ثقة حافظ –التقريب (٥٣/١) وإسماعيل مثل شيخه –التقريب (٦٥/١).

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٣).

(٢) حديث صحيح رواه النسائي في الكبرى (٣٠٤/٥) عن هشام عن رجل عن أبي سلمة عن عائشة وهذا السند فيه جهالة، لكن هشام رواه عن أبيه عن عائشة عند أحمد (٢٦٤/٦) وعند النسائي أيضاً في الكبرى (٣٠٤/٥).

لابدّ أن هذا الفوز أسعد عائشة وأضحكها.. أما النبي ﷺ فقد تقبّل الخسارة بروح طيبة.. لكنه يضمر لعائشة ثأراً وسباقاً آخر قد ينتصر عليها فيه..

وصل الجيش إلى أراضي بني المصطلق.. فكانت:

إغارة كالبرق

فوجئ بها القوم وصعقوا.. وحدث قتال غير متكافئ لهول المفاجأة، لأن (النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقي الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم)[1]، فكسرت شوكة بني المصطلق، وبدأت جذوة قريش والشرك تخبو في نفوسهم بعد أن رأوا (مائة أهل بيت)[2] وأكثر يساقون سبايا نحو المدينة.. وكان من هؤلاء السبايا شابة هي ابنة زعيم بني المصطلق واسمها (جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه)[3] (وكانت امرأة حلوة، ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه)[4].

سارت جويرية والألم يعتصر قلبها.. وهي تساق جارية بعد أن كانت سيدة نساء قومها.. أحسّت بفداحة الجرم الذي ارتكبه زعماء قبيلتها في حقّها وحق مائة بيت اقتيدوا نحو المدينة.. ورغم حسن المعاملة.. ولطف العناية التي حظي بها هؤلاء من النبي ﷺ وأصحابه.. إلاّ أن للوطن والأهل حباً زرعه الله في قلب الإنسان.. وقد أثار هذا الذلّ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٤١).

(٢) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٣) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

(٤) سنده صحيح عند ابن إسحاق وسيأتي تخريجه عند نهاية القصة.

الذي أصاب جويرية وقومها ذلك الشوق والحنين إلى تلك المرابع.. رغم أن النبي ﷺ وأصحابه يكرمون أسراهم.. (ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً).. رغم أن النبي ﷺ وأصحابه يؤثرون الأسرى بالطعام الجيد على أنفسهم إلاّ أن قطرات الذلّ تفسد أشهى الأطباق.. وهو ذلّ جلبه الشرك لنبي المصطلق.. فلولا استعدادهم وإعدادهم للهجوم على المدينة وأهلها لما أصابهم ما أصابهم.. كان بنو المصطلق يحلمون بسبايا المدينة يقتادونها نحو مرابعهم.. يحلمون بدم النبي ﷺ وأصحابه ودعوته.. لكن الله ردّ كيدهم في نحورهم.. وها هي بيوتهم وأحلامهم قد خلت منهم.. وها هو جيش محمد ﷺ يعود إلى المدينة بهم.. وفي الطريق يتوقف النبي ﷺ ويتوقف جيشه للاستراحة قرب المدينة.. فتنبث الجموع هنا وهناك.. ومع حلول الليل تتلاشى تلك الحركة.. وبعد أداء صلاة العشاء يأوي كل إلى فراشه.. ويقوم من يقوم منهم في سياحة مع الله وصلاة.. وكان أحد أفراد الجيش واسمه: صفوان بن معطل متأخراً عن الجيش -ربما بأمر النبي ﷺ- ليكون عيناً خلفية للجيش ونذيراً لهم إذا ما لحق بهم أحد أو هاجمهم من الخلف.. وبعد منتصف الليل أمر ﷺ جيشه بالحركة نحو المدينة..

النبي ﷺ يسبق عائشة

لكن دون سباق.. دون ركض.. دون ابتسامات وضحكات.. سبق النبي ﷺ عائشة في قصة تفيض بالأحزان والدموع والبراءة.. تحرك الجيش ولم تتحرك عائشة.. وأشرقت الشمس والأحزان على ذلك الموقع فلم تجد فيه سوى فتاة صغيرة منكسرة.. أضاعت عقدها وهودجها.. ورحل عنها حبيبها ووالدها وصويحباتها.. أشرقت الشمس والأحزان على عائشة..

وصل صفوان بن معطل ليجد ذلك الحزن في طريقه.. ليحمله إلى بحـــر أسود من الأحزان والهموم.. بحرٌ تقول عنه عائشة رضي الله عنها:

(كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.. فأقرع بيننا في غزوة غزاهـــا «غزوة بني المصطلق»، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيـــه، مســـيرنا «وكنت إذا رحل بعيري، جلست في هودجي، ثم يـــأتي القـــوم الـــذين يرحلون هودجي في بعيري، ويحملوني، فيأخـــذون بأســـفل الهـــودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدّونه بحباله، ثم يأخذون بـــرأس البعير، فينطلقون به»، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غـــزوه، وقفـــل، ودنونا من المدينة، «نزل منزلاً، فبات فيه بعض الليـــل، ثم» آذن[١] ليلـــة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي مـــن جزع ظفار[٢] قد انقطع «انسلّ من عنقي ولا أدري» فرجعت، «عودي على بدئي إلى المكان الذي ذهبت إليه» فالتمست عقـــدي، فحبســـني ابتغاؤه، وأقبل الرهط[٣] القوم الذين كانوا يرحلون لي، فحملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكانـــت النساء إذا ذاك خفافاً، لم يهبلهن[٤] ولم يغشهن اللحـــم «لم يهـــيجهن[٥]

---

(١) أعلنوا الاستعداد للرحيل.

(٢) خرز من مدينة ظفار.

(٣) هم الرجال أقل من عشرة.

(٤) يمتلئن بالشحم واللحم.

(٥) التهييج هو الورم من الشحم أو المرض.

اللحم فيثقلن»، إنما يأكلن العلقة[1] من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن[2] الجمل وساروا، «ولم يشكوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به»، ووجدت عقدي بعدما استمرّ الجيش، «ورجعت إلى العسكر»، فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت[3] منزلي الذي كنت فيه «فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني الذي ذهبت إليه» وظننت أن القوم سيفقدوني، فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، «فوالله إني لمضطجعة، إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي» وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش «قد كان تخلّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس في العسكر» فأدلج[4]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، «فلما رآني، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أظعينة رسول الله! وأنا متلفّفة في ثيابي».

فاستيقظت باسترجاعه[5] حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه[6]، حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها «واستأخر عني، فركبت وجاء فأخذ برأس البعير»، فانطلق يقود بي الراحلة «سريعاً يطلب الناس، فوالله ما

(١) الطعام اليسير.

(٢) وكان عمرها رضي الله عنها آنذاك بين الثالثة عشر والرابعة عشر.

(٣) قصدته وذهبت إليه.

(٤) سار آخر الليل.

(٥) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني» حتى أتينا الجيش. بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة[١]، «فقال أهل الإفك فيَّ ما قالوا، فارتجّ العسكر» فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره[٢] عبد الله بن أبي بن سلول، «ووالله ما أعلم بشيء من ذلك» فقدمنا المدينة..)[٣].

مهلاً يا أمّاه

ما هو الإفك ومن هم أهله.. وما هي الفرصة التي غرز فيها هذا المنافق أنيابه ونفث فيها سمومه..

عندما رأى المنافقون عائشة الصغيرة.. عائشة الطاهرة المسكينة على راحلة صفوان بن المعطل رضي الله عنه.. رقصت الفتنة في قلوبهم.. وتراقص الشيطان بينهم.. وطالت أنيابهم تنهش أطهر الأعراض.. عرض النبي ﷺ..

انطلقت ألسنتهم في جرأة وقحة.. في حقد متربّص تتهم عائشة النقية بالزنا.. وتتّهم صفوان البريء بعائشة رضي الله عنها.. عاصفة من الحقد والتشفّي أطلقها المنافقون.. وعاصفة أخرى للنفاق معها علاقة.. عاصفة كادت أن تدفن الجيش وهو يقترب من المدينة..

عاصفتان ونفاق

العاصفة الأخرى يحدّثنا عنها جابر رضي الله عنه، فيقول:

---

(١) شدة حر الظهيرة.

(٢) أي صاحب النصيب الأكبر في إشاعة الإفك ونشره.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد لابن إسحاق.

(إن رسول الله ﷺ قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله ﷺ قال: بعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات)[1].

فرح النبي ﷺ وأصحابه بهلاك ذلك الطاغوت.. ذلك الكهف الذي تتسلّل إليه الأفاعي والعقارب الآدمية التي تعيش بين المؤمنين وتتكلّم بألسنتهم وتتظاهر أنها منهم.. وفرح ﷺ بقدوم عائشة.. وفرحت عائشة بحبيبها وهي لا تعلم.. وهو لا يعلم ما تتلقّفه ألسنة المنافقين من جريمة.. وبعد الوصول قام ﷺ بـ:

توزيع الغنائم.. توزيع الرحمة

عائشة المسكينة البريئة.. التي تلوك عرضها ألسنة المنافقين وهي لا تعلم شيئاً عن ذلك حتى الآن.. عائشة التي أتعبها السفر.. فانهار جسمها الضعيف على فراش المرض.. تحدّثنا عن معاناة لها مع توزيع الغنائم والسبايا، فتقول:

(لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمة له، فكاتبته على نفسها[2]، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلاّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلاّ أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه)[3].

(١) حديث صحيح رواه مسلم –صفات المنافقين (٢٧٨٢).

(٢) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٣) سنده صحيح انظر: تخريجه في نهاية القصة.

دخلت فدخلت الرحمة على قومها

تقول عائشة رضي الله عنها في حديثها عن جويرية:

(فدخلت عليه، فقالت:

يا رسول الله.. أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عمٍ له، فكاتبته على نفسي[1]، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال ﷺ: فهل لك في خير من ذلك؟

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال ﷺ: أقضي عنك كتابتك وأتزوّجك.

قالت: نعم.. يا رسول الله، قد فعلت.

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم[2].

قالت عائشة:

فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها)[3]، وما أعلم أحداً أعظم بركة

---

(١) أي يحررها مقابل مال تدفعه له.

(٢) حرروهم وأطلقوهم.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وغيره من طريقه: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة، محمد ثقة من رجال التقريب (٢/١٥٠) وعروة مر معنا كثيراً.

عليها وعلى قومها وعلى الناس جميعاً من محمد ﷺ.. لقد وجدت في رحمته وسماحته مكاناً لمطالبها الصعبة.. فهي أسيرة عنده.. ومع ذلك تطلب منه أن يعينها للفكاك بماله.. فيأخذ بيديها.. ويشرع لها باباً يطل على كنوز الدنيا والآخرة.. وهل هناك كنز في الدنيا أعظم لها من أن تكون شريكة حياته ﷺ.. وهل هناك كنز في الآخرة إلاّ كنوز الجنّة.. لم تقتصر بركته ﷺ على تلك الكريمة الجميلة.. لقد كانت بركة كالشمس ينساب شعاعها على أكثر من مائة بيت من بني المصطلق.. فانطلقوا في دفئها وشعاعها يحملون الحرية والعرفان للنبي ﷺ وأصحابه الكرام..

وفي وسط تلك الأجواء الاحتفالية.. كانت عائشة تحسّ بآلام السفر والإعياء الشديدين.. سقطت بعد أيام قليلة في فراشها.. وطال رقادها على فراشها وأنينها.. لكن ألمها ازداد عندما أحست بجفوة غريبة من النبي ﷺ.. أحسّت بتغيّر معاملته لها.. وهي التي تعوّدت منه الرقّة واللطف.. خاصة عندما تكون مريضة.. حيث يتدفق عليها ﷺ يغمرها بكلماته ولمساته الحانية المحبة.. تقول عائشة رضي الله عنها:

(فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، «أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكرت منه» إنما يدخل رسول الله ﷺ «عليَّ وأمي تمرّضني» فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ «لا يزيد في ذلك» ولا أشعر بالشر)[1].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) واللفظ له والبخاري (٤١٤١) والزوائد لابن =

وعائشة لا تدري عما يدور حولها.. لقد تطاول المنـــافقون علـــى حصنها المنيع.. حاولوا تشويهه.. قذفوا عائشة بالزنـــا.. وأرجفـــوا في البلاد.. فارتّجت المدينة.. ووصل الخبر إلى النبي ﷺ.. فتكدّر لإلقاء التهم جزافاً على مسلمة طاهرة.. هي زوجته وأحب الناس إليه.. وتأثر بتلـــك الشائعة أناس مؤمنون.. وضعفوا أمام لغط المنافقين.. وهم بشر كبقيـــة البشر.. ولكل إنسان هفوات وأخطاء.. تلقف ثلاثة من المؤمنين الإفك، فاتهموا عائشة الطاهرة..

الذين رموا عائشة بالزنا من المؤمنين ثلاثـــة أشـــخاص.. رجـــلان وامرأة.. ثلاثة أشخاص لا تحوم حولهم شبه النفاق.. لكنهم يظلّون بشراً ناقصين.. معرّضين للإثم والخطأ في كل لحظة وثانية.. أما الرجل الأشهر منهم فهو شاعر النبي ﷺ الذي يؤيّده روح القدس في أشعاره التي دافع بها عن النبي ﷺ.. حسان بن ثابت.. والآخر رجل من أهل بدر وقد (اطّلـــع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[1] واسمـــه: مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب.. وقد كان أبو بكر الصديق ينفـــق على مسطح لقرابته منه وفقره.. ومع ذلك حدث منه ما حدث..

أما المرأة فهي أخت زينب بنت جحش واسمها: حمنة.. ولا أدري ما هو دافع الرجلين.. أما حمنة فكان دافعها الحمية لأختها زينب التي كانت تنافس عائشة في المترلة عند رسول الله ﷺ.. أما رأس الحية وسمّها ومنبـــع قيح الإفك فهو زعيم المنافقين: عبد الله بن أبي بن سلول الـــذي ذهـــب

=

إسحاق وقد مر معنا.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

يزرع المدينة.. شوارعها ومجالسها.. بلسانه المتعفّن.. حوله الحقد إلى رجل بلا قيم.. بلا أخلاق.. رجل لا يحترم مكانته بين قومه.. رجل فقد عقله فأصبح كالأبله لا همّ له ولا شأن سوى عائشة الصغيرة.. يتشفّى بذكرها واتّهامها.. بعد أن فقد الأمل في الحصول على زعامة أو حتى مكانة محترمة في المدينة.. بعد أن أحرقته عيون أهلها باحتقار شأنه.. والتقزّز منه ومن مجالسه وجلسائه.. الذين هم خليط من عفن الشرك واليهود والخونة.. هذا هو ابن سلول وهذه هي عقيلته الصغيرة.. فهو الذي تولّى كبر الإثم ومعظمه.. لكن:

متى علمت عائشة بالإفك

تقول رضي الله عنها:

(كان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً، «اشتكيت شكوى شديدة، لا يبلغني شيء من ذلك، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي، ولا يذكران لي من ذلك قليلاً ولا كثيراً» والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر «كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك في شكواي تلك، فأنكرت منه، وكان إذا دخل عليّ وأمي تمرضني قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك، حتى وجدت نفسي مما رأيت من جفائه عني، فقلت له: يا رسول الله.. لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

فانتقلت إلى أمي ولا أعلم بشيء مما كان»، حتى خرجت بعدما

نقهت[١]، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع[٢] وهو متبرزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف[٣] قريباً من بيوتنا، وأمرنا العرب الأول في التنزّه[٤]، وكنّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح ابن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها[٥]، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: بئس ما قلت.. أتسبّين رجلاً قد شهد بدراً [أي أم، تسبين ابنك؟

وسكتت، ثم عثرت الثانية، فقالت: تعس مسطح.

فقلت لها: تسبين ابنك؟ ثم عثرت الثالثة، فقالت: تعس مسطح.

فانتهرتها. فقالت: والله ما أسبّه إلاّ فيك.

فقلت: في أي شأني؟]

قالت: أي هنتاه! أوَلم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك [فبقرت لي الحديث[٦].

فقلت: وقد كان هذا؟ قالت: نعم والله].

---

(١) فترة النقاهة هي الأيام الأولى للشفاء من المرض حيث عادت إلى بيتها.

(٢) مكان خارج المدينة.

(٣) المكان الساتر.

(٤) الخروج للنزهة في الصحراء.

(٥) ثوبها وهو كساء من الصوف.

(٦) أي فصلت الحديث وسردته.

فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي، «فمازلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع قلبي»، فدخل عليّ رسول الله ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟

قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي.. وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي [فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان[1] في الأسفل، وأبا بكر فوق البيت يقرأ. فقالت أمي: ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرها، وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني] فقلت لأمي: يا أمتاه.. ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوّني عليك [خفضي عليك الشأن]، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة [حسناء] عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلاّ كثرن[2] عليها، [إلاّ حسدها وقيل فيها، وإذا لم يبلغ منها ما بلغ مني.

قلت: وقد علم به أبي؟

قالت: نعم.

قلت: ورسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ورسول الله ﷺ.

قلت: سبحان الله، وقد تحدث الناس بهذا؟ «تحدث الناس بما تحدّثوا به وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً» [واستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي -وهو فوق البيت يقرأ- فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟

قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه، قال: أقسمت عليك أي بنية إلاّ رجعت إلى بيتك، فرجعت].

---

(١) هي أم عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي أكثرن من ذكرها بما يعيبها.

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع[1]، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي)[2].

أفاقت عائشة من مرضها على مرض أشدّ.. أفاقت رضي الله عنها والعالم ينهار على رأسها.. بكت بكاءً مراً حتى أحرق البكاء كبدها.. أما النبي الحزين الحائر ﷺ فالوحي لم يترل عليه حتى الآن.. والإشاعات تحاصره وتخنق أنفاس حبيبته.. اجتهد ﷺ اجتهاد البشر.. فاستدعى علياً وابنه أسامة بن زيد بن محمد.. فقد ضاق به الحال وتأذى كثيراً وهو يسمع المنافقين يلوكون عرضه الطاهر ليل نهار.. فهل هناك نهاية لهذا الأمر.. إلى أين يأخذه الحزن.. إلى أين تأخذه قدماه الشريفتان..؟

توجّه النبي ﷺ إلى أحد أبياته.. إلى بيت زينب بنت جحش رضي الله عنها بالتحديد.. ليسألها عن عائشة.. فهي التي تنافسها من بين زوجات النبي ﷺ.. فلعلّها تقول شيئاً يزيل حيرته ﷺ.. ثم إن أخت زينب «حمنة» كانت من الذين قذفوا عائشة الطاهرة بالزنا..

النبي ﷺ يسأل زينب

وزينب كالمطر.. ستقول الحقيقة.. ولن تأبه بحمية أختها لها.. وغيرتها من عائشة..

تقول عائشة: إن (رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش -زوج النبي ﷺ- عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟

---

(١) أي أن دمها لم يتوقف تلك الليلة و لم يغش النوم عينها.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) والزوائد بين الأقواس الصغيرة عند ابن إسحاق.. وما بين المعقوفين عند البخاري (٤١٤١).

فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع.

وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك)[2] (وكان الذي يتكلم به فيه:

«مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، والمنافق عبد الله بن أبي بن سلول» وهو الذي كان يستوشيه[3]، ويجمعه، وهو الذي تولّى كبره[4] منهم هو وحمنة)[5]، التي لم تكن تعرف النفاق.. لكنها الغيرة التي تورد من يبقيها بين أضلاعه موارد الضياع والهلاك.. والهوى يعمي ويصم.. والصحابة بما فيهم حمنة وحسان ومسطح بشر غير معصومين..

أما نبي الله ﷺ فقد توجهت به الهموم إلى مزيد من التساؤل والاستشارة.. فقد آذاه ابن سلول في أهله وصاحبه.. وقد تجاوز أذاه كل الحدود.

النبي ﷺ يستشير ويسأل عن حل

تقول عائشة رضي الله عنها:

(ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين

---

(١) تنافسني.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم —التوبة.

(٣) ينشره ويحث غيره على نشره وإشاعته.

(٤) معظمه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري والزيادة للطبراني (٢٣/١١٠).

استلبث الوحي[1]، يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً «وهذا الكذب والباطل».

وأمّا علي بن أبي طالب فقال: «يا رسول الله» لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، «وإنك لقادر على أن تستخلف» وإن تسأل الجارية تصدقك)[2]، فأخذ ﷺ برأي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في سؤال جارية عائشة واسمها «بريرة».. ولم يأخذ رأيه بتطليقها الذي يلوح بين كلماته ليريحه من همّ التفكير والحيرة التي طالت عليه ﷺ.

استدعاء بريرة

تقول عائشة رضي الله عنها: (فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة.. هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟

قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه[3] عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[4] فتأكله)[5] (وانتهرها بعض أصحابه[6]، فقال: اصدقي

---

(١) تأخر عن النبي ﷺ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم واللفظ له والبخاري والزوائد لابن إسحاق.

(٣) أعيبها به.

(٤) الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى.

(٥) حديث صحيح رواه مسلم والزوائد لابن إسحاق.

(٦) هو علي بن أبي طالب.. وقد ورد أنه ضربها ضرباً شديداً.. لكنني لا أستطيع الجزم بصحة سند هذه العبارة.. فربما كانت من المراسيل التي عند ابن إسحاق.

رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به[1])[2] (فقال رسول الله ﷺ: لست عن هذا أسألك.

قالت: فعمه.. فلما فطنت قالت: سبحان الله.. «والله» ما أعلم من عائشة إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر[3] الأحمر)[4]، وماذا يعلم الصائغ من الذهب النقي قبل صياغته واختلاطه بغيره سوى النقاء..

كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشة..

أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون قيحاً وصديداً يترّ من نفوسهم السوداء الحاقدة..

لكن ماذا عن البريء الآخر.. صفوان بن معطل ذلك الشاب الـــذي قُذف هو الآخر.. ولوّثه المنافقون بأنفاسهم الموبوءة.. تنامى إلى سمعه ما يقال عنه وعن أمّه عائشة.. فما زاد على كلمات تحدثنا عنها عائشـــة، فتقول:

(وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل لـــه: فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط)[5].

لكن عبد الله بن أبي بن سلول يصرّ على تشويهه والافتـــراء عليـــه ويتشهى بذكره وذكر أمّه عائشة في مجلسه حتى طفح الكيل.. فأغضـــب صنيعه رسول الله ﷺ فماذا فعل؟..

---

(١) أي: صرحوا لها بالتهمة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

(٣) الذهب النقي الخالص.

(٤) سنده صحيح رواه الطبراني (١٠٦/٢٣) وأبو يعلى (٣٣٥/٨) ومن طريق حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

(٥) هو بقية حديث البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

رسول الله ﷺ يخطب حزناً

فبعد أن سمع ﷺ رأي أقرب الناس من عائشة وأعلمهم بحالها.. خاصة أسامة وزينب وبريرة.. تحرك نحو منبره وجمع أصحابه يطلب منهم أن يعذروه.. أن ينصروه على ذلك المنافق الذي يبحث عن أي قذارة يلطخ بها رسول الله ﷺ وأهله وأصحابه.

تقول عائشة رضي الله عنها:

«فخرج النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه»، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر[١] من عبد الله بن أبي سلول. فقال: رسول الله ﷺ:

«أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا[٢] أهلي، ما علمت عليهم من سوء قط، وابنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا تغيب قط إلاّ وهو معي، ولا دخل بيتي قط إلاّ وأنا شاهد».

يا معشر المسلمين.. من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً.

ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري[٣]، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله[٤]،

إن كان من الأوس ضربنا عنقه،

---

(١) من يقوم بعذري ولا يلومني إن جازيته على فعله القبيح.

(٢) رموهم بخلق قبيح وقذفوهم بالزنا.

(٣) وهو سيد الأوس.

(٤) أي أنا أنصرك.

وإن كان من إخواننا الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة -وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية- فقال لسعد بن معاذ:

كذبت.. لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله «أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم».

فقام أسيد بن حضير -وهو ابن عم سعد بن معاذ- فقال لسعد بن عبادة:

كذبت..لعمر الله، لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان: الأوس والخزرج «حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد»، حتى همّوا أن يقتتلوا)[1].

تأزم الموقف.. ورقص الشيطان طرباً لما يحدث.. وتمايل قلب عبد الله ابن أبي بن سلول فرحاً بالمسافة التي وصلت إليها الأمور..

كلمة واحدة.. لا دليل عليها ولا برهان سوى الكذب.. أوصلت الأمور إلى حد كادت السيوف أن تُسلّ.. والدماء أن تغرق المسجد ومن فيه.. وتلك الكلمات التي تفوّه بها سعد بن عبادة رضي الله عنه.. في دفاعه عندما اجتهلته الحمية.. تلك الكلمة التي قيلت دفاعاً عن رأس المنافقين وخبيثهم في ساعة غضب وحمية.. كانت كلمات خطيرة جداً.. كانت مليئة بالدماء.. قالها أحد عظماء الإسلام ورجاله السابقين.. ولا تقل عنها في الخطورة تلك الكلمات التي أطلقها أسيد بن حضير رضي الله عنه غضباً لله ورسوله.. وهو من عظماء الإسلام ورجاله السابقين كسعد بن عبادة.. لكنه غضب لله ورسوله غضباً جعله يصف ابن عبادة بالنفاق.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٧٠) والزوائد للبخاري (٤٧٥٧).

تلك الكلمات التي انطلقت كالرصاص الطائش داخل المسجد كانت أمام سمع النبي ﷺ وبصره.. أمام سمع نبي مجروح في عرضه وشرفه ومكانته وهو قائد هذه الأمة.. وفي بقعة هي من خير البقاع على وجه الأرض.. داخل المسجد النبوي الكريم..

موقفان خطيران.. حدثا أمام النبي ﷺ ومازالت مشاهدهما تتكرّر في كل زمان.. موقفان يتجسدان أكثر ما يتجسدان بين الدعاة وبين العلماء.. بين من يحملون الإسلام خطاً ومنهاجاً وإن تحوّرت القبيلة إلى جماعة في بعض المشاهد.. موقفان لا يمكن وصفهما إلاّ بالتطرف..

موقف من تجتهله الحمية وتقوده فينسى نفسه وحدوده..

وموقف من يغضب لله ومحارمه غضباً ينسيه نفسه وحدوده.. فإذا غضبه يقتحم النوايا والقلوب والضمائر..

لا هذا يهم.. ولا ذاك.. لا موقف سعد بن عبادة رضي الله عنه ولا موقف أسيد بن حضير رضي الله عنه.. لأنها تسر وتفرح ابن أُبَيٍّ ومن معه.. أما نحن فأمامنا موقف هذا الواقف فوق منبره..

هذا النبي الذي لا ينطق عن الهوى..

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.. فهو الحكم والحكمة..

محمد ﷺ والبقية تبع لمحمد..

ماذا فعل بأبي هو وأمي.. وهو يحس بالمنايا تموج تنتظر السيوف والدماء.. لقد قتل الفتنة في مهدها.. وأعاد الطرفان إلى الصواب والحكمة.. فسعد بن عبادة ملء السمع والبصر.. وأسيد بن حضير ملء السمع والبصر.. لكنهما غاضبان.. والأمر لا يستحق أن تسفك من أجله

الدماء.. وما سفكت الدماء في مثل هذه المواقف إلاّ لغياب تلك الحكمة التي انطلقت من فوق منبره ﷺ.

تقول عائشة رضي الله عنها وهي تكمل حديثها: (همّوا أن يقتتلوا،ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت.

قالت عائشة: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي)[1].

أمّا عائشة نفسها فقد كاد الحزن أن يهلكها ويفنيها.. إنها تصف ما وصلت إليه.. فتقول:

(لما بلغني ما تكلّموا به، هممت أن آتي قليباً فأطرح نفسي فيه)[2].. لكنها لم تفعل لخوفها من الله.. وثقتها به.. وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر في أمرها.. وتواصل حديثها عن النبي ﷺ وما جرى في مسجده.. فتقول:

(وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، «فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً»، وأبواي يظنّان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم (٢٧٧٠) واللفظ له.

(٢) سنده حسن رواه الطبراني (١٢١/٢٣). حدثنا أحمد بن القاسم حدثنا خالد بن خداش، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة.. ابن أبي مليكة تابعي أدرك ثلاثين من الصحابة - التقريب (٤٣١/١) وهو ثقة فقيه وتلميذه السختياني ثقة ثبت حجة وحماد ثقة ثبت فقيه.. وشيخ الطبراني ثقة - البلغة (٦١) والسند حسن من أجل ابن خداش وقد وثقه أئمة النقد وجرحه غير مفسر - التهذيب (٧٤/٣).

جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي «معي».

فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ «وقد صلّى العصر»، فسلم. ثم جلس -ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل- وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء -«وقد اكتنفني أبواي عن يميني وشمالي»- فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: أما بعد يا عائشة.. فإنه قد بلغني عنك كذا.. وكذا.. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب «إلى الله» تاب الله عليه، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته[1]، قلص دمعي[2] حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله فيما قال.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ)[3]. سكت الجميع فتحررت من صدر عائشة المظلومة:

دعوة مكروب

انفجرت داخل صدرها كالبركان.. دعوة نبيّ الله يعقوب عندما فقد أحبّ أبنائه إليه.. يوسف وبنيامين عليهما السّلام.. دعوة أطلقها يعقوب

---

(١) حديثه.

(٢) توقف دمعها.

(٣) هو حديث البخاري ومسلم السابق.

بعدما أصابه العمى وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم.. لكن حزن عائشة أنساها اسم ذلك النبيّ المكروب.. حاولت تذكره فلم تستطع لكنها عاشت معاناته ودعاءه.. توجهت عائشة الصغيرة نحو أبيها الذي لا يدري ما يقول.. نحو أمها الحيرانة.. نحو حبيبها الذي آذاه الناس وتأخّر عنه الوحي.. فقالت كلمات كالجمر.. قالت رضي الله عنها:

(فقلت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، «تشهدت، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد»: إني والله، لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرّ في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة -والله يعلم أني بريئة- لا تصدقوني بذلك، «والله عزّ وجلّ يشهد إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم»، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ -والله يعلم أني بريئة- لتصدقونني «إن قلت إني فعلت -والله يعلم أني لم أفعل- لتقولن قد باءت به على نفسها».

وإني والله.. ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ «والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه»)[1]، حاولت عائشة تذكر اسم يعقوب فلم تستطع.. فألقت بجسدها وقلبها المتعبين على فراش كالمرض.. وألقت بكمدها وبثها إلى الله وسكتت.. دعوة فتاة مظلومة بلغ بها المرض والكرب مسافات أتعبتها.. ولكن الله أرحم بهذه المسكينة التي أنحفها الضَّيْم والحزن.. ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.. هبطت رحمة الله ونزل عدله سبحانه.. فسمعت عائشة في تلك الحجرة حركة غريبة وهمهمة..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧).

فاعتدلت ونظرت فإذا النبي ﷺ مغشى عليه والعرق يتحدّر من جبينه الشريف.. وهو يعاني ثقلاً وشدّة من نزول الوحي عليه.. بـ:

براءة عائشة رضي الله عنها

تقول أم المؤمنين بعد أن لهجت بدعائها: (فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون..

ثم تحولت، فاضطجعت على فراشي، وأنا والله يعلم أني بريئة، وأن الله مبرّئي ببراءتي. ولكن -والله- ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلّم الله عزّ وجلّ فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها. فوالله ما رام[1] رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ، فأخذه[2] ما كان يأخذه من البرحاء[3] عند الوحي، حتى إنه كان ليتحدّر منه مثل الجمان[4] من العرق في اليوم الشات[5]، من ثقل القول الذي أنزله عليه، «وأنزل على رسول الله ﷺ من ساعته، فسكتنا، فرفع عنه وإني لأتبيّن السرور في وجهه وهو يمسح جبينه» فلما سرّي[6] عن رسول الله ﷺ -وهو يضحك- فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: أبشري يا عائشة، أما الله فقد برّأك «أنزل الله براءتك»، فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت: والله.. لا أقوم إليه، ولا

---

(١) أي: ما فارق.

(٢) جاءه أصابه.

(٣) الحمى الشديدة التي تسيل العرق.

(٤) مثل حبات اللؤلؤ.

(٥) أي أن ذلك يسيل منه حتى في أيام الشتاء الباردة.

(٦) انتهى ما به من معاناة نزول الوحي.

أحمد إلاّ الله هو الذي أنزل براءتي، «وكنت أشد ما كنت غضباً، فقال لي أبواي: قومي [فقبلي رأس رسول الله] - فقلت: والله لا أقوم إليــه ولا أحمده، ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيّرتموه».

فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ(١) مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ(٢) وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ(٣) ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ(٤) فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ(٥) بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ(٦) فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ

---

(١) جماعة.

(٢) المقصود حسان وحمنة ومسطح وهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

(٣) المقصود رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

(٤) خضتم فيه.

(٥) تتلقونه ويرويه بعضكم عن بعض وهو كذب.

(٦) تنتشر.

ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، عشر آيات، فأنزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات براءتي)[2].

وتصف عائشة رضي الله عنها حالها وحالة والديها أثناء نزول هذه الآيات الكريمات والنبي ﷺ مغشى عليه من شدّة الوحي.. فتقول:

(فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووُضعت وسادة من أدم[3] تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً[4] من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس[5].

ثم سرّي عن رسول الله ﷺ، فجلس، وإنه ليتحدّر من وجهه مثل الجمان في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: أبشري يا عائشة، قد أنزل الله براءتك. قلت: الحمد لله).. ثم قام ﷺ وخرج من البيت.. متجهاً نحو الناس.. نحو المدينة.. نحو العالم.. ليخبرهم ببراءة حبيبته.. وكذب ابن سلول ومن معه.. وليضع أمام الدنيا.. كل الدنيا حقيقة طاهرة.. وحكماً لا يزول.. أن من سيقذف عائشة بعد اليوم فقد كذب الله وكفر بكتابه.. خرج ﷺ لـ:

(١) أكملت الآيات العشر للفائدة.

(٢) هو حديث البخاري مسلم السابق.

(٣) جلد.

(٤) خوفاً.

(٥) أي خوفاً من أن تصدق تلك التهمة الكاذبة.

إعلان البراءة واستدعاء الجناة

تقول عائشة رضي الله عنها: (ثم خرج ﷺ إلى الناس، وتلا عليهم ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك و«لما تلا رسول الله ﷺ القصة التي نزل بها عذري على الناس، نزل فأمر برجلين وامرأة، ممن تكلم بالفاحشة في عائشة فجلدوا حدهم»: أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدّهم)[1].. أي جلد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثمانين جلدة.. لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[2] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾[3]، وقد تاب الثلاثة رضي الله عنهم بعد أن نزلت الآيات وتأكدوا من تهوّرهم.. واستخفاف ابن أبي بن سلول بعقولهم.. وكان لأبي بكر موقف من مسطح تبيّن من خلاله مدى الجرح الذي كان يئن منه أبو بكر ويعاني.. لكن إيمان أبي بكر كان أعظم من أي موقف.. أسما من أي قرار يتّخذه ساعة غضب.. لأنه أبو بكر.. ولأنه الصدّيق..

موقف أبي بكر الغاضب

تقول عائشة رضي الله عنها: (فقال أبو بكر -وكان ينفق على مسطح

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من رواية الإفك الصحيحة والزوائد رواها فقال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن عمرة، عن عائشة وعبد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين (١/٤٠٥ - التقريب) وعمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة تابعية ثقة تتلمذت على عائشة وأكثرت الرواية عنها وهي من رواة الشيخين (التقريب - ٢/٦٠٧).

(٢) يتهموهن بالزنا.

(٣) سورة النور: الآيتان ٤، ٥.

لقرابته منه وفقره-: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة «فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً»، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

فقال أبو بكر: «بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا»، والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت ينفق عليه، «وعاد له بما كان يصنع»، وقال: لا أنزعها منه أبداً)[1].

أفاق مسطح بن أثاثة على نسمات أبي بكر الباردة.. فأدرك عظمة الصديق وكرمه.. وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في حقه وحق ابنته الطهور..

أبو بكر الذي تغلغل في سويداء النبي ﷺ واحتلّ ما لم يحتله غيره.. لا يستحق كل هذا العقوق.. ولكي تعرف مساحة أبي بكر في عالم النبي ﷺ إليك هذه القصة التي حصلت فيها:

مشادة بين أبي بكر وعمر

سوء خلاف بين أعظم رجلين في أمة محمد ﷺ.. سوء الخلاف ذلك أثار غباراً انقشع.. فلم تر الدنيا بعد انقشاعه إلاّ أبا بكر.. ثم عمر والباقين رضي الله عنهم جميعاً..

صحابي اسمه أبو الدرداء شاهد ما حدث ورواه، فقال:

(كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٥٧) ومسلم -التوبة-.

أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء: -ونحن عنده- فقال رسول الله ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر[1].

وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم، وجلس إلى النبي ﷺ، وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر.

قال أبو الدرداء:

وغضب رسول الله ﷺ «فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر[2] حتى أشفق[3] أبو بكر، فجثا على ركبتيه»[4]، وجعل أبو بكر يقول:

والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم «يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم»، فقال رسول الله ﷺ:

هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت «وواساني بنفسه وماله» «فما أوذي بعدها»)[5]، فإذا كانت هذه الغضبة من أجل أبي بكر وفي أمر بسيط.. ومع من؟ مع عمر وما أدراك ما هذا العظيم المسمّى عمر.. فماذا يقال عن إيذاء مَنْ هم دون عمر.. وافتراء من هم أقل.. على أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

هذه المرة لم ينتصر النبي ﷺ لأبي بكر.. لقد انتصر له الله.. وآزره

(١) أي خاصم.

(٢) يتغير لونه.

(٣) خاف.

(٤) جلس على ركبتيه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦٤٠) والزوائد عنده (٣٦٦١).

الله.. وأنزل فيه وفي ابنته آيات تتلى إلى يوم القيامة.. أما عدوّه وعدّو الله وعدوّ رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول.. جرثومة النفاق الخبيثة فقد وجدت له سببين لكل هذه الحملة القذرة التي شنّها ليلوّث بها عرض رسول الله ﷺ وعرض صاحبه الصديق..

السبب الأول هو كفره وحقده وحسده للنبي ﷺ على زعامته وإقامته دول مسلمة في عقر داره ودار قومه..

أما السبب الثاني، فهو سؤال حول:

عبد الله بن أبيّ بن سلول هل كان قواداً

والقواد هو الذي يقوم بتنظيم حفلات البغاء.. وتأجير البغايا.. مقابل مبالغ قذرة مثله.. وكان عبد الله بن أبيّ يقوم بذلك.. بل كان يرغم جاريته على الزنا إرغاماً.. ويبدو أنه تضايق كثيراً عندما نزل تحريم الزنا.. وهو يريد تعميم تجربته المثيرة في هذا المجال وإشاعتها.. وعندما لم يجد بدّاً من التخلص من قذارته رماها على عتبة دار عائشة النظيفة النقيّة.. يقول أحد الصحابة:

(في قول الله تعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾، قال: نزلت في عبد الله بن أبي، كانت عنده جارية «يقال لها مسيكة»، وكان يكرهها على الزنا، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾)(١)، بهنّ.. إذاً فهذا هو عالم

(١) حديث صحيح رواه البزار (٣/٦١ - زوائد) والطبراني (١١/٢٨٤) والطبري في تفسيره والزيادة له: قال الطبري: حدثني الحسن بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج

ابن سلول المليء باليهود والعفن والبغايا والنفاق.. إنه كبعض الحشرات التي لا تجد نفسها إلاّ عند القذارة.. وهم لم يكن كذلك في جاهليته.. لكنه الحسد.. يطيح بالقامات ويجتث من النفوس المكرمات.. أمّا من حاول الدفاع عنه في لحظة من لحظات الضعف البشري حين تمسّها العصبية فله قصة أخرى جعلته يفيق من لحظة السهو القصيرة تلك.. أقصد سعد بن عبادة رضي الله عنه الذي تحدّى سعد بن معاذ أن يقتل عبد الله ابن أبي بن سلول..

قصة ابن عبادة مع القذف

ابن عبادة الكريم.. والصحابي العظيم الجليل.. يحب قبيلته.. ويتمزّق قلبه لأفعال أحد زعماء قومه المشينة.. يؤلمه ما يقوله عبد الله بن أبي ويتمنى هدايته لكن ابن أبي كان حجراً.. نزلت الآية تبيِّن أن من قذف يجلد فتحركت الغيرة في دم سعد بن عبادة وغلت.. فتكلم بكلام لم يعجب النبي ﷺ.. فابتلاه الله بمصيبة وقعت في قومه.. فكانت عاراً على قوم ابن أبي بعد أن كان يتمنى تعليق العار على باب النبي ﷺ.. فعندما (نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾، قال سعد بن عبادة: لهكذا أنزلت يا رسول الله؟! لو أتيت لكاع[1] قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء، حتى يفرغ من حاجته! «إن أنا رأيت لكاع متفخذها

= أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر وهذا السند صحيح الحجاج والحسن صدوقان وابن جريج وأبو الزبير صرحا بالسماع ورواه البزار عن ابن السائب عن ابن جبير عن ابن عباس، وعن ابن إسحاق عن الزهري عن أنس واللفظ له والزيادة للطبري.

(١) وصف يطلقه سعد هنا على الزوجة التي يراها زوجها وهي تزني.

رجل، فقلت بما رأيت، إن في ظهري لثمانين»، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟

قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلاّ عذراء، ولا طلّق امرأة له، فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها «فقال رسول الله ﷺ: فإن الله يأبى إلاّ ذاك»[1].

قال سعد: «صدق الله ورسوله» يا رسول الله بأبي وأمي، والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرّكه، حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فوالله ما لبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء هلال بن أميّة –«ابن عم له»– من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه، فقال:

يا رسول الله، إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلاً مع أهلي، رأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله، إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلاّ حقاً، فإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً.

واجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين؟ «فشق ذلك على المسلمين، فقال: لا والله لا يجعل في ظهري ثمانين أبداً، لقد نظرت حتى أيقنت، ولقد استسمعت حتى استشفيت».

---

(١) أي أن الله لا يقبل إلا حكمه سبحانه.

فهمّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا أن الوحي قد نزل، حتى فرغ، فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ(١) وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ(٢) عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾.

فقال رسول الله ﷺ:

أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجاً. فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله، فقال رسول الله ﷺ: أرسلوا إليها. فجاءت، فلما اجتمعا عند رسول الله ﷺ، قيل لها: فكذّبت.

فقال رسول الله ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟

فقال هلال: يا رسول الله بأبي وأمي لقد صدقت، وما قلت إلاّ حقاً.

فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما)(٣).

ما هي الملاعنة

الملاعنة تكون بين الزوجين.. في حالة اتّهام الزوج لزوجته بالزنا.. فيحلف قائلاً أربع مرات: أشهد بالله أنني صادق في اتهامي.. وفي المرة الخامسة يقول أن لعنة الله عليَّ إن كنت كاذباً عليها.. فيقام عليها الحد

---

(١) يقذفون زوجاتهم.

(٢) يمنع ويدفع عنها الحد.

(٣) حديث صحيح انظر: تخريجه عند نهاية القصة.

والعقوبة إلا في حالة أن تشهد زوجته بالله أربع مرات أنه لمن الكاذبين في اتّهامه لها.. ثم تقول في الخامسة: أن غضب الله عليَّ إن كان من الصادقين.

(فقال رسول الله ﷺ: لاعنوا بينهما.

قيل لهلال: يا هلال.. اشهد. فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. فقيل له عند الخامسة: يا هلال، اتق الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإنها الموجبة التي توجب عليك العذاب.

فقال هلال: والله لا يعذبني الله عليها، كما لم يجلدني عليها رسول الله ﷺ، فشهد الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

ثم قيل لها: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، فقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإن هذه الموجبة التي توجب عليها العذاب، فتلكأت[1] ساعة، ثم قالت: والله لا أفضح قومي.

فشهدت الخامسة: أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق بينهما رسول الله ﷺ وقضى أن الولد لها، ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها)[2].

وكان اسم الرجل المتهم بالمرأة «شريك بن سمحاء»، يقول أحد الصحابة وهو يروي القصة:

---

(١) ترددت وأحجمت.

(٢) سنده صحيح رواه الطبري في تفسيره حدثنا خلاد بن أسلم أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا عباد، وسمعت عكرمة عن ابن عباس: عباد بن منصور الناجي صدوق وقد صرح بالسماع من عكرمة التقريب (١/٣٩٣) وخلاد والنضر: ثقتان (١/٢٢٩ - ٢/٣٠١) التقريب. ومعنى لا يرمي ولدها: أي لا يقال له يابن الزنا.

(قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، فتلكأت[1] ونكصت حتى ظننّا أنها ترجع ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت، فقال النبي ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين[2]، سابغ الإليتين[3]، خدلج الساقين[4]، فهو لشريك بن سمحاء.

فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن)[5]، فقد صدق هلال وكذبت.. ولكن لا يطبق الحدّ بعد نزول هذه الآية إلاّ بالاعتراف أو البيِّنة.. كما قال ﷺ: (لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة رجمت هذه)[6].

كان حادث الإفك افتراءً.. ظلماً وتجنّياً على عائشة.. لكن رحمة الله وانتصاره للمظلوم وعدالته.. أحالته إلى دروس وأحكام وبراءة..

ها هي عائشة بريئة كيوم ولدتها أمّها.. ها هي وقد غمرها ﷺ بأمواج حبّه وفؤاده..

ها هي وقد رفعها الله بآيات كريمات.. وتكلّم في شأنها ودافع عنها جبار السموات والأرض..

كان الفرج بحجم الدنيا في صدر عائشة.. لكنها غاضبة غضباً شديداً.. وعاتبة عتاباً شديداً على من يسكنون قلبها.. زوجها ﷺ ووالديها رضي الله عنهما.. فلم تقدم لهم أي نوع من أنواع الامتنان

(١) ترددت.

(٢) وورد في الصحيح أدعج وأسحم.

(٣) أي عظيم كما جاء في بعض الألفاظ.

(٤) ممتلئ.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٣١٠).

والشكر.. ومع ذلك لم يلمها أحد منهم.. فالذي مرّ على هذه الفتاة المسكينة ثقيل جداً.. ومرير جداً..

إن سمعة المرأة وشرفها عند العرب تعادل حياتها.. وهم لم يدفنوا بناتهم وهنّ صغار إلاّ خشية أن يتّهمن بما اتّهمت به عائشة.. ومن يستطيع أن ينفي تهمة في ذلك المجتمع.. والهدم أسهل من البناء.. فهل تُلام عائشة إذا غضبت على من أحبّتهم.. لم يلمها ﷺ.. بل استرضاها وأرضاها بلطفه ورقته وحبّه.. كان ﷺ يقول لها:

(إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى.

فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال ﷺ:

أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين، لا، وربّ محمد. وإذا كنت غضبى، قلت: لا، وربّ إبراهيم.

قلت: أجل يا رسول الله، ما أهجر إلاّ اسمك)[1].

نهضت عائشة من الموت.. وتمادت كالنهر.. كالبدر.. نحو:

بساتين الحب

بساتين الحب التي زرعها ﷺ ونسق شجيراتها وأزهارها.. تدلّلت فيها عائشة.. ورفرفت فيها كالطير.. كالعبير.. حتى (كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة «يبتغون مرضاة رسول الله ﷺ».

قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن:

يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة[2]، وإنا نريد

(١) حديث صحيح رواه مسلم –فضائل عائشة.

(٢) أي يهدون للنبي (ص) في اليوم الذي يكون فيه عند عائشة رضي الله عنها.

الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار، فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليّ، ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها)[1].

وانقسم نساء النبي ﷺ إلى:

حزبين في بيت النبوّة

تقول عائشة رضي الله عنها:

(إن نساء رسول الله ﷺ كنّ حزبين:

فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية[2] وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله ﷺ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخّرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلّم حزب أم سلمة فقلن لها: كلّمي رسول الله ﷺ يكلّم الناس)[3]، فذهبت أم سلمة وكلّمته وحدث ما حدث كما في القصة السابقة.. لكن حزب أم سلمة لم يستسلم.. واصل المطالبة.. وهذه المرة قرّر الحزب أن يضغط على النبي ﷺ، مستخدماً جانب العاطفة الأبوية.. مدركاً مدى رقّته ﷺ ورحمته ببناته وأولاده خاصة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.. قرّر حزب أم سلمة ذلك

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٧٥).

(٢) زوجة قادمة للنبي (ص) سوف تأتي قصتها فيما بعد.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٨١).

عن طريق حبيبته فاطمة.. مع أن النبي ﷺ كان يقضي عند كل واحدة يوماً..

تقول عائشة رضي الله عنها: (أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة -وأنا ساكتة- فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية.. ألست تحبين ما أحب؟

فقالت: بلى.

قال: فأحبّي هذه.

فقالت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرهن بالذي قالت، وبالذي قال لها رسول الله ﷺ. فقلن لها: ما نراك أغنيت عنّا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة.

فقالت فاطمة: والله لا أكلّمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ، وهي التي تساميني منهن في المترلة عند رسول الله ﷺ.. ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة[1] كانت فيها، تسرع منها الفيئة.

فاستأذنت على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها

(١) سرعة غضب لكنها سرعان ما تنطفئ.

على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها. فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله.. إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبّتها».

وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه، وهل يأذن لي فيها.

فلم تبرح زينب «حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة: هل تكلم؟».

حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

«فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها»، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها حين أنحيت عليها [أن أثخنتها غلبة] «فنظر النبي ﷺ إلى عائشة».

فقال رسول الله ﷺ وتبسّم: إنها ابنة أبي بكر)[1]، وقد انتصرت وانتصر حزبها.. لأنها لم تفعل ما يجرح شعورهن رضي الله عنهن.. لكنهن يطالبن النبي ﷺ بالعدل وهو عادل إلاّ في شيء واحد لا يستطيع التحكّم فيه.. وهو قلبه.. فهو بشر كبقية البشر لديه ما لديهم من الأحاسيس والمشاعر والميول.. ولم يكن ﷺ يتدخّل في كل ما يحدث بين زوجاته من أمور طبيعية تحدث عادة بين النساء عند زوج واحد.. إلاّ إذا تجاوزت إحداهن الحد.. عندها يحكم ﷺ بالعدل ويقوم بفضّ الاشتباك.

رضي حزب أم سلمة بمكانة عائشة.. بل قدم تنازلات أكثر ليحظى بحب الله ورسوله.. فبدلاً من أن يطالب حزب أم سلمة مرة أخرى بأن

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم وما بين المعقوفين له.. والزوائد للبخاري (٢٥٨١).

تكون هدايا الناس في أوقات وأبيات مختلفة.. قام هذا الحـــزب الطيّـــب بتقديم الهدايا للنبي ﷺ.. لكن متى وأين..

أم سلمة تهدي للنبي ﷺ وهو عند عائشة

هكذا انقلب الحال.. ومن كان لـــه حيلة فليحتال.. وما دام الهدف هو الوصول إلى قلب الحبيب محمد ﷺ والمنافســـة عليـــه.. فـــلا بـــأس بالتضحية.. ولا بأس بكتم الغيرة مؤقتاً.. فعلت ذلك أم سلمة رضي الله عنها.. لكن عائشة أدركت أهداف أم سلمة وأدركتها الغيرة.. وخافت أن تزحزحها أم سلمة عن عرض الحب الذي تنعم به.. فقامت للتصدي لأم سلمة ولمحاولاتها ولكن بطريقة أكثر انفعالاً مما فعله حزب أم سلمة.. وأشدّ قسوة مما قالته زينب.. فما الذي جرى بين أم سلمة وعائشة رضي الله عنها.. تحدثنا أم سلمة نفسها عن محاولتها وهديتها.. فتقول:

(إنها أتت بطعام في صحفة[1] لها، إلى رســـول الله ﷺ وأصـــحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء، ومعها فهر[2]، ففلقت[3] بـــه الصـــحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة.. ويقول:

كلوا.. غارت أمكم.. كلوا.. غارت أمكم.

ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة لعائشة)[4] فانتصرت أم سلمة رضي الله عنها هذه المـــرة

(١) إناء.

(٢) حجر.

(٣) كسرت.

(٤) سنده صحيح رواه النسائي (٧/٧٠): أخبرنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أبي المتوكل عن أم سلمة.. وأبو المتوكل تابعي ثقة اسمه علي بن

وانتصر حزبها.. ليست الغيرة فقط تحدث بين حزب وحزب.. بل -حياناً- داخل الحزب الواحد تغلي الغيرة.. وليست هذه المرة الوحيدة التي تندفع فيها عائشة نحو تصرّف تندم عليه.. مأخوذة بالغيرة وحبّها الشديد للنبي ﷺ.. ففي أحد الأيام تصرّفت تصرفاً تمنّت بعده أن تلاقي حتفها.. رغم أن الأمر لا يستدعي الموت.. لكنها الغيرة..

عائشة تدعو على نفسها بالموت

تقول رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القرعة على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعاً، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة، يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة:

ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك، فتنظرين وأنظر؟

قالت: بلى.

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلّم، ثم سار معها حتى نزلوا.

فافتقدته عائشة، فغارت، فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الإذخر[1]، وتقول:

= داود الناجي (التقريب - ٣٦/٢) وتلميذه تابعي ثقة عابد وهو البناني - التقريب (١١٥/١) وحماد ثقة من رجال مسلم وهو أثبت الناس في ثابت البناني (السابق - ١٩٧/١) وأسد صدوق (التقريب - ٦٣/١) ويلقب بـ (أسد السنة) وشيخ النسائي ثقة انظر (التقريب - ٤٢٥/١) فالسند بذلك صحيح وصححه الإمام الألباني في الإرواء (٣٦٠/٥).

(١) نبات طيبت الرائحة توجد به الهوام غالباً في البرية.

يا رب سلط عليَّ عقرباً، أو حية تلدغني، رسولك ولا أستطيع أن أقول له شيئاً)[1].. ولا تستطيع أن تقول لحفصة شيئاً.. فهي التي جنت على نفسها.. فأي غيرة تسكن عائشة.. وأي حب ذلك الذي يأكل معها ويشرب.. ويحلّ ويرتحل.. كان حب عائشة للنبي ﷺ سماءها وأرضها وبحارها التي لا شاطئ لها..

لكن ماذا عن حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي مدى هو.. وما هي المسافات التي قطعتها عائشة في قلبه وبين حناياه..؟

النبي ﷺ نفسه.. في ساعة حب وعشق لعائشة.. في ساعة لم يكن فيها سوى محمد وعائشة والحب.. تحدّث ﷺ بحديث يتقاطر شهداً وحباً.. حديث لم تسمع مثله حبيبة قط.. حديث جعل عائشة تشعر أن الشمس والقمر والدنيا كلّها بين يديها.

حب النبي ﷺ لعائشة إلى أي درجة؟

تقول رضي الله عنها: (جلست إحدى عشرة امرأة، فتعاهدن، وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينقل[2].

قالت الثانية: زوجي لا أبثّ خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره، أذكر عُجره وبجره[3].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الفضائل.

(٢) تصفه بأنه كلحم الجمل الهزيل ويصعب الوصول إليه أيضاً، فالوصول إليه شاق، ليس فيه مصلحة حتى تنقله الناس إلى بيوتها وتستفيد منه.

(٣) تقول إنها لا تشيع خبر زوجها ولا تذكره.. لأنها لن تنتهي من إكماله لكثرة عيوبه.. والعجر تعقد العروق والعصب ونتؤها.. والبجر هو نتؤ في البطن.

قالت الثالثة: زوجي العشنق: إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق[١].

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة: لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة[٢].

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد[٣].

قالت السادسة: زوجي إن أكل لفّ، وإن شرب اشتفّ، وإن اضطجع التف، ولا يولج الكف ليعلم البثّ[٤].

قالت السابعة: زوجي غيأياء، أو عيأياء، طباقاء، كل داء له داء، شجك، أو فلك، أو جمع كُلالك[٥].

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زرنب، والمس مس أرنب[٦].

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد[٧].

---

(١) العشنق هو الطويل أي ليس فيه إلا طول دون نفع.. فإن ذكرت عيوبه طلقها.. وإن سكتت عن عيوبه علقها لا مطلقة ومتزوجة أي أهملها مع بقائها في ذمته.

(٢) تمدحه أنه مثل ليل منطقة تهامة ليس فيه أذى.. بل هو لذيذ كريم الأخلاق لا تخشاه، لا يسأم منها ويملها.

(٣) شبهته بالفهد لكثرة نومه كما يقال، أنوم من فهد، غافل عن تعاهد مترله وما ذهب منه وما بقي، وهو بين الناس شجُاع كالأسد.

(٤) أي أنه يلف الطعام لفاً ويكثر منه، ويشرب كل ما في الإناء، أما عند نومه فهو يلتف بثيابه وغطائه عن زوجته دون اهتمام بها، ولا يلمسها بكفه ولا يتحسسها ليعلم إن كانت تشتكي من شيء.

(٥) أي أنه خائب لا يقترب منها.. وأموره مطبقة عليه لحمقه، وكل داء ومرض يجتمع فيه.. وهي معه غير آمنة فإما أن يشج رأسها أو يكسر بعضها أو يجمع لها الأمرين.

(٦) أي ريحه طيبة كرائحة الزرنب وهو نوع من أنواع الطيب.. وأما مسه فلين لكرمه ورقته ولطفه.

(٧) رفيع العماد هو الشريف المذكور في قومه، طويل حمائل السيف لطول قامته.. كريم كثير =

قالت العاشرة: زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، لـــه إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهـــنّ هوالك[1].

قالت الحادية عشر: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع: أناس من حلي أذني[2]، وملأ من شحم عضدي[3]، وبجحني فبجحـــت إلى نفســـي[4]، وجدني في أهل غُنيمة بشق[5]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط[6]، ودائس ومنق[7]، فعنه أقول فلا أقبح[8]، وأرقد فأتصبح[9]، وأشرب فأتقنح[10].

أم أبي زرع، فما أم أبي زرع؟ عكومها رداح، وبيتها فساح[11].

ابن أبي زرع، فما ابن أبي زرع؟ مضجعه كمسل شطبة[12]، ويشبعه

=

الرماد لكثرة ما يوقد نار لأضيافه.. وبيته قريب من النادي وهو مجتمع القوم ومنتداهم.

(١) إبله كثيرات.. لا يرسلهن للسرح إلا قليلاً.. إذا سمعن العزف على العود لوجود الضيفان أدركن أنهن منحورات لهم.

(٢) أي حلاني أقراطاً فهن تنوس أي تتحرك لكثرتها.

(٣) أي أسمنني وملأ بدني شحماً.

(٤) أي فرحني ففرحت.. وعظمني فعظمت عند نفسي.. والتبجح هو التعاظم والتفاخر.

(٥) أي أنه وجدها عند أهل غنم قليلة وحياتهم فيها مشقة وفقر.

(٦) نقلها إلى أرضه حيث صهيل الخيل وأطيط الإبل.

(٧) أي أنه صاحب زرع يدوسه وينقيه.

(٨) لا أحد يرد قولها ويقبحه.

(٩) أي أنها تأخذ كفايتها من النوم لأن هناك من يخدمها.

(١٠) لا تترك الشراب حتى تقضي حاجتها.

(١١) واسع.

(١٢) أي خفيف اللحم كالسيف سل من غمده.

ذراع الجفرة[١].

بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها[٢]، وغيظ جارتها[٣].

جارية أبي زرع، فما جارية أبي زرع؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً[٤]، ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً[٥]، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً[٦].

قالت: خرج أبو زرع، والأوطاب تمخض[٧]، فلقى امرأة معها والدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين[٨]، فطلّقني ونكحها، فنكحت بعده رجلاً سرياً، ركب شرياً[٩]، وأخذ خطياً[١٠]، وأراح عليَّ نعماً ثرياً[١١]، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[١٢]، قال: كلي أم زرع وميري أهلك[١٣].

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

---

(١) الجفرة الأنثى من ولد الماعز أو الضأن إذا تجاوزت أربعة أشهر.

(٢) ممتلئة الجسم.

(٣) لديها من العفاف والجمال والأدب ما يغيظ ضرتها.

(٤) لا تفشي أسرارنا.

(٥) لا تفسد الطعام ولا تفرقه لأمانتها.

(٦) لا تترك القمامة متفرقة تشوه المترل كعش الطير.

(٧) أي أنه خرج في وقت الربيع.

(٨) أي أن كفلها عظيم بحيث أنها لو استلقت رفعها عن الأرض حتى تصير تحتها فجوة يجري فيها الرمان.

(٩) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(١٠) الرمح.

(١١) كثيرة والمقصود الثروة.

(١٢) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(١٣) أعطيهم.

قالت عائشة:

قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)[1].

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع.. غير أن النبي ﷺ أحبّها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذاك طلق والنبي ﷺ لم يطلق..

هذا الحب لا شكّ أغاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن سلول ومن معه من الخفافيش.. كما أغاظهم من قبل انتصار النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق.. التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين.. وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين.. لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شعوراً أسوداً.. ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تتزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوسها.. فقد امتدّت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق.. الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ.. وقريش الآن تخشى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة..

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنين في أحد.. والرجيع وبئر معونة.. وغيرها لم تزدهم إلاّ صلابة وعزماً واتّقاداً.. كأنها النار التي تذيب صدأً.. كانت لقاحاً عاد بعده الجسم صحيحاً منيعاً.. فها هو النبي ﷺ يرسل جيشاً لرصد قوافل قريش

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).

التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

غزوة سيف البحر

كان قائد هذا الجيش هو أمين الأمة أبو عبيدة عامر بـــن الجـــراح.. وكان ضمن ذلك الجيش كبار الصحابة منهم سعد بن عبادة.. وجابر بن عبد الله الذي يقص علينا بعض أحداث تلك الغزوة فيقول:

(بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل وأمر عليهم أبا عبيـــدة بـــن الجراح وهم ثلاثمائة فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد.. فـــأمر أبـــو عبيدة بأزواد الجيش.. فجمع فكان مزودي تمر فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة.. فقلت: ما تغني عنكم تمرة)[1] تمرة في اليوم الواحد مما اضطر ذلك الجيش إلى أكل نبات الخبط وهو علف للحيوانات.. ولذلك سمي ذلك الجيش فيما بعد: (جيش الخبط).. يقول جابر رضي الله عنه لمن سأله عن تلك السرية: (بعثنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش.. وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره.. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة.. فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؛ قال: نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنـــا إلى الليل.. وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله[2].

كان سعد بن عبادة وابنه قيس رضي الله عنهما يأكلان من أشجار الخبط وهي علف للإبل.. كانا يعانيان ماتعانيه تلك السرية ويشعران بما تشعر به.. فكأن لسيد الأنصار وابنه موقف عظيم.. الكرم الأنصـــاري يتدفق حتى يعانق أمواج البحر.. قام سعد بن عبادة بشراء مجموعة مـــن

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٥٣٥.

النياق من أصحابها ثم سلمها لابنه قيس وأمره بنحرها للسرية التي أحرق أجوافها شجر الخبط.. يقول قيس رضي الله عنه: (كنت في الجيش فجاعوا قال: انحر قالك: نحرت.. ثم جاعوا.. قال: انحر.. قال: نحرت.. ثم جاعوا.. قال: انحر.. قال: نحرت ثم جاعوا.. قال: انحر.. قال: نهيت) [1] ترى كم نحر من ناقة جزور.. يقول جابر رضي الله عنه أن سعد بن عبادة رضي الله عنه (نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ثم نحر ثلاث جزائر ثم إن أبا عبيدة نهاه) [2] لأن هذا الكرم الأنصاري ليس له حدود.. وسيقضي على مراكب السرية.. وقد تعودُ إلى المدينة على الأقدام إذا لم يتم إيقاف تدفقه.. كانت أياما عصيبة ومريرة.. كان فارسها سعد بن عبادة الكريم.. وكانت رحمة الله فوق ما يتصورون.. فقد رأى بعضهم صخرة كبيرة جداء.. وكانت سوداء وملساء تتمدد على الساحل.. اقترب الجميع منها فإذا هي ليست بصخرة.. إنها حوت عملاق يسمونه العنبر.. كان ميتا ينبض بالحياة لهذه السرية.. وقد فرح الجميع بهذه المفاجأة السارة وشكروا الله عليها.. لكن أبا عبيدة تذكر أن الميتة لا تجوز.. ثم تذكر كم يفتح الإسلام من أبواب الفرج في أشد ساعات الضيق.. تذكر أن هناك ضرورة الإبقاء على هذه الأرواح والأجساد المنهكة.. فسموا الله وكلوا واستخرجوا من زيت الحوت وشربوا دهنوا أجسادهم المتعبة وسعورهم الشعثة.. لمدة تقارب الشهر.. ثم قاموا بقياس ارتفاع أحد أضلاعه فغرز الضلع.. ثم نادى أطول رجل في تلك السرية وأمره بأن يركب أرفع جمل أيضا.. ثم أمر بالمرور فمر تحت تقوس ذلك الضلع العملاق.. يقول جابر رضي الله عنه وهو يتحدث عن تلك

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٥٨٥.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٥.

المشاهدات العجيبة: (انطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر قال أبو عبيدة: ميتة.. ثم قال: بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله وقد اضطررتم.. فكلوا) [1] (فأكلنا نصف شهر وادهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا) [2] (حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن.. ونقتطع منه القدر كالثور أو كقدر الثور.. فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه.. وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها)[3] وبعد مرور نصف شهر من عثورهم على هذا الحوت الهائل أمر أبو عبيدة جنده بالعودة للمدينة فقد أدوا المهمة التي أرسلوا من أجلها.. وعادوا أحسن أجساداً وأكثر قوة.. ثم اقتطعوا ما قدروا على حمله من بقايا لحم الحوت.. ولما وصلوا إلى المدينة أخبروا نبيهم ﷺ بذلك ففرح بفضل الله عز وجل على جنده.. وطلب منهم أن يطعموه من ذلك اللحم الطيب.. يقول جابر رضي الله عنه: (وتزودنا من لحمه وشائق فلما.. قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا.. فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكله) [4].

أما قريش فقد شعرت بخطورة الوضع بعد تلك السرايا وبعد غزوة بني المصطلق.. فلا بد من التحرك.. ولابدّ من حسم الأمر قبل أن يستشري الخطر.. وتفاجأ قريش بمحمد ﷺ وجيشه يطوفون حول الكعبة

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢٠٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

ويحطّمون الأصنام.. هذا هو الكابوس الذي يقضّ مضجع أبي سفيان ومن معه من الوثنين.. هذا هو الخوف الذي تعيشه مكة.. لكن ماذا عن المدينة.. هناك شعور لا يختلف عن هذا الشعور.. فداخل دول الإسلام لم يكن الأمر كما يحبّ رسول الله ﷺ وصحابته تماماً.. كان هناك المنافقون الذين خرجوا للتوّ من هزيمة الإفك.

وهناك أيضاً اليهود الذين أغاظهم نصر النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق.. وزاد غيظهم نصر الله لعائشة في حادثة الإفك.. فتحوّلت حصون اليهود إلى قدور ضخمة تطبخ فيها الخيانة والمؤامرات..

اليهود يجمعون الأحزاب

في مؤامرة كالانتحار.. فالذي يقومون به الآن ضرب من الانتحار.. لأن فشل مؤامرتهم هذه تعني نهايتهم.. اليهود اليوم خناجر تسافر في الظلام ولا تدري من تصيب.. إن بينهم وبين قائد الدولة المسلمة عهداً بألاّ يخونوا ولا يعتدوا ولا يتآمروا.. وإلاّ فإن مصيرهم سيكون مصير بني النضير.. لقد سامحهم ﷺ بعد خيانتهم الأولى.. وهم الآن طامعون في تسامح آخر إن فشلوا في مؤامرتهم، يقول أحد الصحابة: (إن يهود النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقرّ قريظة)[1]، وذلك بعد غزوة بدر عندما (كتبت كفار قريش بعد واقعة بدر إلى اليهود:

إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل- فلما بلغ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨) وأبو داود (٣٠٠٥) واللفظ له.

كتابهم النبي ﷺ، أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ:

اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنّا بك، فقصّ خبرهم، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحصرهم، فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلاّ بعهد تعاهدوني عليه.

فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم.

وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها)[1]، منظر حزين يتكرّر على اليهود.. ويتباكى عليه اليهود.. وهم يجيدون التمثيل والتباكي.. لكن أكثر ما يجيدونه هو سبب التباكي.. أكثر ما يجيده اليهود هو المؤامرات والخيانات.. والطعن من الخلف.. والطعن في الظلام.. وعندما يتلقون العقاب الرادع.. تسيل أنهار الدموع والبكاء والشعر على مصيرهم البائس وكأنهم لم يفعلوا شيئاً. وبنو قريظة يستحقون مصير بني النضير.. لكن النبي ﷺ منحهم فرصة.. فإن فشلت مؤامرتهم فإن عقابهم سيكون مضاعفاً.. دعونا نراقب هذا الوفد اليهودي الذي سافر سراً إلى مكة ليجتمع بأبي سفيان وقيادات المشركين هناك.. ليعرضوا عليهم مشروعاً عسكرياً يسحقون به دولة الإسلام والتوحيد.. بعد أن فشل مشروع كعب بن الأشرف اليهودي مع قريش فتم اغتيال

---

(١) حديث مر معنا رواه أبو داود (٣٠٠٤) وقد صححه الإمام الألباني وانظر تعليق قوله حفظه الله هناك —غزوة بني النضير.

كعب على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه.. وها هو:

المشروع اليهودي من جديد

يحمله يهود من بني النضير فشلت خيانتهم.. فاحتقنوا من الحقد.. ومعهم يهود آخرون تثيرهم هذه التجربة وهذا المشروع.. لم تنطلق الرصاصة من مكّة.. بل من حصون اليهود فـ:

(إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانة بن أبي الحقيق النضري» وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكّة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ[1]، وقالوا:

إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش:

يا معشر يهود.. إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه.

فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا

---

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

عَظِيمًا ۝ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾[1].

لم يكتفِ اليهود بالتآمر عليه ﷺ.. بل أضافوا إلى خيانتهم ونقض عهدهم والوثيقة المكتوبة بينهم وبين النبي ﷺ.. أضافوا إلى قائمة جرائمهم جريمة هي الأشنع والأحقر.. جريمة تترّ بالخسّة والوقاحة.. زوّر اليهود وأباحوا لنفسهم القفز على كل مبدأ وعقل وحقيقة.. فمنحوا للوثنيين المشركين صكّاً بالبراءة من كل إثم في كل ما يرتكبونه من جاهلية.. وسلبوا النبي ﷺ كل حق وحقيقة يملكها.. جعلوا التوحيد هو الباطل.. وطلبوا من عَبَدة الأخشاب والأَحجار الاستمرار في طقوسهم المنحطة.. فعلوا ذلك كلّه وهم أهل كتاب.. وقد قرأوا الكثير.. الكثير عن محمد ﷺ ونبوّته وصفاته.. فما هو العقاب الذي يستحقه هؤلاء.. مسلسل الوحل اليهودي لم ينتهِ بعد.. فبعد أن وضعوا قريشاً في إحدى جيوبهم.. توجّهوا نحو قبيلة غطفان القوية فأغروها بالنبي ﷺ والمدينة.. وأغروها بتمر المدينة ونخيلها ونسائها.. فاستجابت.. وانتصبت المؤامرة.. وتدلّت ثمارها أمام اليهود والوثنيين.. لكن الخبر وصل إلى النبي ﷺ عن طريق رجل أحمق من غطفان.. يدعى «الحارث الغطفاني».

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة منها: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها البعض لأنه ربما كان مصدرها واحداً وهو مجهول.. لكن لها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن وهو عند ابن إسحاق أيضاً (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد بن أبي محمد.. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر التقريب (٢/٢٠٥) حيث قال عنه مجهول.

وقد أرسلت من أجل هذه المهمة أحد وجهائها.. رجل اسمه: الحارث الغطفاني.. ركب راحلته.. وعندما استقرت به على أرض المدينة.. بحث عن النبي ﷺ.. ولما وقف أمامه.. أملى على النبي ﷺ شرطه للانسحاب من التحالف اليهودي الوثني.. وكان شرطاً يفوح صفاقة وتغطرساً.. لكن إجابة الأنصار كانت كالسيف على رأسه.. فقد رفض الأسدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ كل أنواع الابتزاز.. مهما كان مصدره وقوّته.. فقد:

(جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد.. ناصفنا تمر المدينة. «وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً»، فقال ﷺ: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يشاورهما «فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد. قالوا: يا رسول الله أوحي من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بشِرى أو قرى»[1]، فقالا[2]: ما أعطينا الدنية[3] من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام.

فرجع إليه الحارث، فأخبره.

فقال: غدرت يا محمد.

---

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية فكيف وقد أسلمنا.

فقال حسان بن ثابت:

يا حارِ من يغدر بذمة جـاره ... منكم فإن محمـداً لا يغـدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم ... واللؤم ينبت في أصول السخبر
وأمانة النهدي حيث لقيتـها ... مثل الزجاجة صدعها لا يجبر

فقال الحارث: كفّ عنا يا محمد لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه)[1]، ولم يكن لسان حسان أشدّ من لساني السعدين.. لم يعرض ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر ولا على عمر.. بل على أهل دار الهجرة والكرم وأصحاب الشأن الأوّل..

فذهب ذلك الوثني إلى قومه ذليلاً.. حيث كان الأنصار لـه كالموت.. بالسيوف والشعر.. عندها أدرك ﷺ خطورة الموقف والأحزاب.. تأمّل ﷺ وضع المدينة فوجد المعركة هذه المرة مختلفة.. فقريش اليوم ليست وحدها.. معها غطفان.. ومعها بقايا بني النضير الذين استطاعوا زحزحة يهـود بـني قريظة عن عهدهم وميثاقهم مع النبي ﷺ.. وقد يلحق بقريش بنـو سـليم وغيرهم من حلفائهم.. والوقت قصير لا يحتمل التأخير.. والجيش المسلم لا يستطيع التصدّي لهذه الجموع خارج المدينة.. فالأفضل البقاء في المدينـة.. حيث يشارك الجميع في تلك المعركة دون استثناء وحتى لا يتكرر ما حدث

(١) سنده حسن رواه البزار (زوائد – ٢/٣٣١) واللفظ له.. والزوائد للطبراني (٦/٣٤): البـزار وعبدان والساجي قالوا: حدثنا عقبة بن سنان، حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني، حدثنا محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة..: أبو سلمة بن عبد الرحمن تـابعي ثقـة مكثـر – التقريب (٢/٤٣٠) ومحمد بن عمرو بن علقمة حديثه حسن إذا لم يخالف من هو أوثق منـه وهو من رجال البخاري ومسلم بل من رجال الستة – التقريب (٢/١٩٦) وعثمان صـدوق من رجال مسلم – السابق (٢/١٢) وعقبة بن سنان بن عقبة بن سنان بن سعد بن جـابر، البصري من شيوخ أبي حاتم وقد قال عنه: صدوق – الجرح والتعديل (٦/٣١١).

في أحد.. لكن خيانة اليهود تثير الخوف.. وليس هناك وقت لبناء أسوار كأسوارهم.. فليكن الحفر بدلاً من البناء..

حفر الخندق

قرّر ﷺ أن يحفر خندقاً يحصن به الجهة الشمالية للمدينة من هجمات قريش ومن معها.. لأن بقية الجهات صعبة الاقتحام لكثرة النخيل والصخور والجبال.. وفنّ القتال لا يعني المهارة باستخدام السلاح فقط.. بل المهارة في استخدام وتسخير كل شيء يحيط بالمحارب.. وقد تفنّن ﷺ في تسخير تضاريس المدينة وطبيعتها في هذه الحرب القادمة.. غير المتكافئة عدداً واستعداداً.. جهة الشمال مفتوحة لاحتمالات مخيفة.. فقرّر ﷺ إغلاقها.. فبدأ حفر الخندق.. بدأ بحفره بيديه.. فهو الذي ضرب أوّل معول في ذلك الخندق الذي سوف يشكّل مفاجأة للوثنيين واليهود ومن معهم.. فقد:

(ضرب رسول الله ﷺ في الخندق بيديه، ثم قال:

بسم الله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

حبذا ربنا وحبذا دينا)[1]

---

(١) سنده صحيح رواه الحارث (المطالب - ٤/٤٠٤) حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبوإسحاق الفزاري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان رضي الله عنه..

وهذا السند صحيح. معاوية ثقة من رجال الشيخين وهو الأزدي - التهذيب (١٠/٢١٥) وشيخه ثقة حافظ من رجال الشيخين (التقريب - ١/٤١).

وأما أبو عثمان النهدي فقد أدرك الجاهلية وأسلم في عهد النبي (ص) وروايته عن الصحابة.. وقد ذكره الذهبي في (التجريد - ١٨٦) ضمن الصحابة فمرسله كمرسل الصحابي.. وليس ضمن شيوخه تابعي.. وقد روي موصولاً عن سلمان عند البيهقي لكن سنده ضعيف.

فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقاً.. والحناجر تتغنى شعراً وحماساً.. وسط هذا الحماس والتفاني.. كنت لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم أم هم الذين كانوا معه.. وسط ذلك الجو الشتوي البارد.. خلال ذلك الغبار المنبعث من الخندق.. لا تستطيع تمييز القائد من الأتباع.. أحد الصحابة اسمه سهل بن سعد يقول: (كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا)[1] أما البراء بن عازب فيقول: (كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب «شعر» بطنه «وكان رجلاً كثير الشعر»)[2].

(كان ﷺ ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بآخرها»)[3].

كان ﷺ يحمس من حوله بأبيات الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة.. رافعاً ومادّاً بها صوته.. وكان لا بد من فعل ذلك.. فالجو مشحون بالجوع والبرد والحذر..

لم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقّد كل شيء.. يحتاط لكل شيء.. ثم يعود لمحاربيه.. يشجّعهم.. يحفر معهم.. يدعو لهم..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٣٦) والزوائد له (٣٠٣٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٤) والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

يحتضن فداءهم وإخلاصهم.. وهم في حالة جوع شديد.. وبرد قارس..

(خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللّهمّ إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً)[1]

البيعة تتجدّد.. والحماس يتجدّد.. لكن الجوع والتعب يتجدّد فما هو طعام كل مجموعة من هؤلاء المحاربين الأشدّاء.. الذين يحتاجون إلى كل ثانية وطاقة..

طعام رجال الخندق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

(جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً   على الإسلام ما بقينا أبدا

ويقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللّهمّ إنه لا خير إلاّ خير   فبارك في الأنصار والمهاجرة

قال:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٩).

ويؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن)[1] هؤلاء العظماء ليس لهم طعام سوى شعير مطبوخ بسمن عتيق بشع الطعم والرائحة.. بينما الوثنيون يتمتّعون بأطايب الطعام.. أمّا اليهود فلديهم مخزون أكثر من كاف لمثل هذه المؤامرة.. ولهم منافذ مفتوحة على حلفائهم.. بينما يعيش محمد ﷺ وجنوده طقساً من الحصار والبرد والجوع والطعام الخشن والقليل.. وتمرّ على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ثلاثة أيام من الجوع والحفر

نقلوا فيها الحجارة من عمق الخندق.. إلى عمق جوعهم وبطونهم.. قدّو الحجارة من الخندق وألصقوها ببطونهم من شدّة الجوع.. ثم ربطوها.. في الوقت الذي تسلّل فيه المنافقون إلى بيوتهم.. إلى شوائهم ونسائهم وشرابهم.. كأن الأمر لا يعنيهم.. كأن المدينة ليست وطناً لهم.. كان ذلك الجوع امتحاناً لإيمان هؤلاء المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا.

يقول جابر رضي الله عنه:

(لما حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي ﷺ والمسلمين جهد شديد، فمكثوا ثلاثاً لا يجدون طعاماً، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٠).

(٢) سنده صحيح رواه أحمد والبيهقي (٤٢٢/٣) حدثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن جابر.. وأيمن وابنه ثقتان من رجال البخاري التقريب (٨٩/١ - ٥٢٥) وأيمن تابعي ووكيع إمام معروف.

لكن ماذا بعد ثلاثة أيام من الجوع والطعام القليل.. بشع الطعم والرائحة.. إن رحمة الله قريب من المؤمنين.. جاءت المعجزة في بيت جابر.. فزال عن المؤمنين شيئاً ممّا بهم.

طعام جابر والمعجزة

جابر بن عبد الله.. الصحابي العظيم.. ابن الصحابي العظيم.. الذي يعول تسع أخوات وزوجته.. يستأذن النبي ﷺ لكنه ليس كاستئذان المنافقين.. لم يذهب لبيته كما يذهب ذلك المنافق طلباً للراحة بين أهله والطعام والشراب.. لكنه رأى منظراً أحزنه وآلمه أشدّ الألم فلم يستطع البقاء في مكانه.. حاول أن يخفّف عن ذلك المتألم شيئاً ولو قليلاً.. إنها على أقلّ الأحوال محاولة.

يقول رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شيئاً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كدية[1]، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق. «فقال رسول الله ﷺ: أنا نازل» فرششنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر، فأخذ المعول، أو المسحاة، ثم سمى ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل[2].

فلما رأيت ذلك من رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، ائذن لي.. فأذن لي، فجئت امرأتي فقلت: ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رسول الله ﷺ شيئاً لا صبر عليه «رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»[3]

(١) أرض صلبة.. صخرية.

(٢) رملاً متناثراً.

(٣) جوعاً شديداً.

فما عندك؟

قالت: عندي صاع من شعير، وعناق[1].

فطحنّا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها، وجعلناها في البرمة[2]، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت، فإذا العجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي[3]، «ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه»، ثم جئت رسول الله ﷺ، فساررته، فقلت:

إن عندنا طعيماً[4] لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت.

فقال ﷺ: ما هو وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق.

قال: ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي. ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، «فقام المهاجرون والأنصار».

قال: فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلاّ الله. فقلت لامرأتي: «قد افتضحت ثكلتك أمك، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون».

«فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قُلت».

فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلت: نعم.

---

(١) أنثى الماعز لم تبلغ الحول.

(٢) القدر.

(٣) الأحجار التي يوضع عليها القدر عند الطبخ.

(٤) طعام قليل.

قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندك.

فذهب عني بعض ما كنت أجد. قلت: لقد صدقتِ.

فجاء رسول الله ﷺ، فدخل، ثم قال لأصحابه:

لا تضاغطوا، ثم برَّك على التنور وعلى البرمة[١].

فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنثرد[٢]، ونغرف، ونقرّب إليهم. وقال رسول الله ﷺ: ليجلس على الصحفة[٣] سبعة أو ثمانية.

فلمّا أكلوا كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد، ونغرف، ونقرّب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك كلّما فتحنا التنور، وكشفنا عن البرمة، وجدناها أملأ ما كانا، حتى شبع المسلمون منها «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو»، وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا، وأطعموا، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم)[٤].

معجزة أخرى

تتحدّث عنها طفلة أنصارية.. نادتها أمها، ولما لبّت نداءها وضعت في طرف ثوبها تمرات.. ثم أمرتها بالتوجه نحو أبيها وخالها وهما يحفران مع

---

(١) أي دعا بالبركة على التنور والبرمة أي القدر.

(٢) فته ثم بله بمرق.

(٣) الإناء أو الطبق الذي يوضع فيه الطعام.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٢).

رفاقهما الخندق.. طوت تلك الطفلة البريئة تمراتها بطرف ثوبها.. ثم طوت الأرض.. لكن رجلاً صادفها في طريقها فأخذ منها التمر.. فأخذنا منها هذه القصة المعجزة.. إنها:

(ابنة بشير بن سعد، قالت: فبعثتني أمي بتمر في طرف ثـــوبي إلى أبي وخالي وهم يحفرون الخندق، فمررت على رسول الله ﷺ، فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفّيه، وبسط ثوباً فنثره عليه، فتساقط في جوانبـــه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، وأكلوا منه، حتى صدروا عنه)[1]، وقد شبعوا من التمر وهم أكثر من ألف رجل.. شبعوا من ملء الكفّين من التمـــر.. معجزة تزيد الطاقة والإيمان.. قدّمها ﷺ لمن يحفرون الخندق..

تلك المعجزات تفتح أبواباً جديدة من الفرح والفـــرج للمـــؤمنين.. وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا بأسرها.. والمعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره.. أما بالنسبة للمنافقين.. فكان ذلك الخندق طوقاً يخنقهم.. هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهـــم يهـــزون أذيالهم منقادين أذلاّء.. كانت المعجزات تغيظهم وتدفعهم إلى مزيد مـــن العناد والمكابرة.. لكن أشدّ ما أغاظهم عند حفر الخندق.. هو تلك المعجزة التي لهج بها ﷺ ليس لمن يحفرون الخندق فقط.. بل لأبنائهم ولمـــن بعـــد أبنائهم.. ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون مـــن الهلـــع.. كـــان ﷺ يستبشر ويبشّر بـــ:

فتح فارس والروم واليمن

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طرقه رواه البيهقي (٣/٤٢٧): حدثنا ســعيد بــن ميناء، عن ابنة بشير بن سعد: وسعيد بن ميناء الحجازي مولى البختري.. أبو الوليـــد.. تابعي ثقة من رجال الشيخين –التقريب (١/٣٠٦) وابنة بشير صحابية صغيرة.

يعد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع.. يقول ذلك لأصحابه وهو يحفر خندقاً يدافع به عن دولته الصغيرة التي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق.. يبشّرهم وهم جياع.. بكنوز فارس والروم وقصور اليمن.. لأنه نبي.. ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد..

يقول أحد المشاركين في الخندق:

(لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول.

فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ، فلما رآها أخذ المعول وقال: بسم الله، وضرب ضربة، فكسر ثلثها، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله. ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض. ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)(١).. وصحابي آخر لم يحضر الحادثة لكنه سمع من صحابي آخر فيقول: (إذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال نبيّ الله ﷺ:

دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: بسم الله، فضربها، فوقعت فلقة ثلثها، فقال: الله أكبر قصور الروم وربّ الكعبة. ثم ضرب أخرى بأخرى، فوقعت فلقة، فقال:

الله أكبر قصور فارس، وربّ الكعبة. فقال عندها المنافقون:

---

(١) حديث حسن وسنده ضعيف رواه النسائي في الكبرى والبيهقي (٤٢١/٣) وسبب ضعفه هو ميمون الزاهري لكن الحديث حسن بما بعده وبأحاديث أخرى.

نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم)[1].

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[2]، أمر هؤلاء المنافقين محير ومزعج.. لا تدري ماذا يريدون.. ولا ما هو مبدأهم ولا هدفهم.. ولا تستطيع تمييزهم بسهولة..

الكفر مرض والنفاق مرض.. وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر.. لكن عندما يتسلّل هذا المرض إلى الداخل.. تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه..

وفي غزوة الخندق كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين.. لكن من الصعب القضاء عليهم وهم يتظاهرون بالإيمان.. لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه من حفر الخندق.. ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة.. وعسكروا أمام الخندق.. وبدأ حصار قاسٍ وشديد على المدينة.. عندها بدأ المنافقون يظهرون كالبثور الكريهة المتقيّحة على جسد المدينة.. في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة.. ومع ذلك كلّه تمتّع ﷺ وأصحابه بأكبر قدر من ضبط النفس.. وعدم التهوّر بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين.. الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم.. ونظراتهم وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقلّ معاني الرجولة والنخوة.. ازداد الوضع حرجاً، فقرّر ﷺ

---

(١) حديث حسن بما قبله ورجاله ثقات لكنني لم أعثر على ترجمة لنعيم بن سعيد فيما لدي من مراجع.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

وهو حصن لبني حارثة.. دخلته عائشة أثناء غزوة الخندق وتحدّثت عنه.. فقالت: (إنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز[1] حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن)[2]، وعندما بدأت المناوشات بين جيش المؤمنين وجيوش الوثنيين كان هناك طفلان يقومان بحركات كلّها فضول براءة.. أسماء بنت أبي بكر وأمّ سلمة كانتا داخل الحصن.. وكان معهما طفلان كالورد.. عبد الله بن الزبير ابن أسماء.. وعمر ابن أبي سلمة ابن هند «أم سلمة».. وفي غفلة من أميهما صعدا إلى أحد الأسطح لمشاهدة ما يحدث خارج الحصن..كانا قصيرين.. لكن قصر قامتيهما لم يمنعهما من الإصرار على المشاهدة.. فقرّرا أن يتناوبا المشاهدة.. ينحني أحدهما فيصعد الآخر على ظهره.. ثم تكون نوبة الآخر في الانحناء.. وهكذا.. ها هو عبد الله بن الزبير.. سنسأله عمّا جرى.. إنه يقول: (جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم[3]، يعني حصناً، ومعي عمر بن أبي سلمة، فجعل يطأطئ[4] لي، فأصعد على ظهره، فأنظر إليهم كيف يقتتلون وأطأطئ له، فيصعد فوق ظهري، فينظر)[5].

لأنه لا يستطيع سوى النظر فقط.. ولا يسمح له بالمشاركة رغم

---

(١) أمنع.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل عن عائشة أنها كانت.. وعبد الله بن سهل تابعي ثقة من رجال الشيخين –التقريب (٢/٤٦٧) واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري. قال البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة انظر: التهذيب (١٢/٢١٥) ويكنى بـ أبي ليلى.

(٣) الحصن.

(٤) ينحني.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) والبيهقي (٣/٤٣٩) واللفظ له.

حماس الأطفال وحبّهم لتقليد الكبار.. بقي الأطفال كلّهم مع النساء.. إلاّ من بلغ الخامسة عشر مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان يتحرّق للقتال يوم أُحُد.. لكن النبي ﷺ ردّه.. وها هو اليوم خارج حصن بني حارثة.. ماذا قال لك النبي ﷺ يا عبد الله.. يقول رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه)[1]، وسمح له بالقتال والمشاركة بالمعركة.. أمّا من كان دون هذه السن فقد اكتفى بالمشاهدة.. حيث كانت الساحة تموج بالترقّب والتوتّر.. كان المؤمنون فيها خلف سواترهم يرقبون أي اقتحام لهذا الخندق ليضربوا ضربتهم..

أمّا جيوش الأصنام فقد جنّ جنونها مما ترى أمامها من ذكاء عسكري نادر.. وقيادة لا مثيل لها.. حيّرها هذا الخندق.. هذا الإبداع العسكري الذي لم تعرفه العرب من قبل ولم تستخدمه.. إن اقتحامه ضرب من الجنون أو الانتحار.. أما الغزو عن طريق الجهات الأخرى.. فيعني الهزيمة.. فهل ستكتفي قريش ومن معها من الوثنيين بالحصار والقتال عن بعد.. عن طريق التراشق بالنبل والرماية بالأسهم..؟ ربما.. فلن يقدر على اقتحام هذا الخندق إلاّ شجاع أو منتحر.. ها هو الشجاع الذي سيقتحم الخندق.. ها هو وقد استطاع عبوره باحثاً عن مبارز.. إنه عمرو بن عبد ودّ:

فارس يبحث عن مبارز

وقف أمام جيش المؤمنين متحدّياً.. يفيض شجاعة وحماساً.. فانبرى له حتف مخيف كحمزة.. خرج له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.. فبارزه فكان كأمس الذاهب.. وسقط عمرو بن عبد ود وسقط تحدّيه..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

يقول أحد الصحابة: (قتل من بني عامر بن لؤي: عمرو بن عبد ود، قتله عليّ بن أبي طالب مبارزة)[1].

انتظر الوثنيون خروجه من الخندق وسيفه يقطر بأرواح المؤمنين.. لكنه لم يخرج عليهم.. لم يغادر مكانه.. فليس هناك مشرك يصمد أمام سيف عليّ رضي الله عنه.. أحسّ المشركون بأنه لا طريق تؤدي إلى رقاب المؤمنين.. لا دروب إلى المدينة.. إلاّ طريقين لا ثالث لهما.. إمّا المبارزة.. وهذا الأمر بعيد جداً.. وإمّا الرماية بالسهام.. وهذا هو الأمر الوحيد الذي يقدرون عليه لكنه لن يجدي نفعاً إلاّ إذا تحركت قوات اليهود الخونة وخرجت من حصن بني قريظة.. وبقدر ما كان الخندق يبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين كان حصن بني قريظة يثير الخوف والقلق في أوساط المؤمنين.. لذلك قام ﷺ بتغطية كافة الاحتمالات.. لأن المعركة والخيانة قد تشتعلان ليلاً.. فماذا فعل ﷺ؟

كلمة السر

كلمة يعرف بها المؤمنون بعضهم بعضاً متى ما دهموا ليلاً من قبل الوثنيين.. أو اليهود.. قال ﷺ لأصحابه:

(إن بيَّتكم العدو، فقولوا: {حم، لا ينصرون})[2]، كان ﷺ يقرأ ما

(١) هذا الجزء من الحديث حسن وهو ما صح من قصة علي مع عمرو بن عبد ود.. رواه الحاكم (٣/٣٢) وسنده ضعيف لأن الحكم لم يسمع هذا الحديث من مقسم لكن هذا الجزء من الحديث له شاهدان مرسلان.. عند البيهقي (٣/٤٣٥) عن عروة.. وعن محمد ابن كعب القرظي فقتل علي لعمرو ثابت بهذه الأسانيد.. أما تفاصيل المبارزة وما جرى من حديث فلم أجد سوى مراسيل وهي لا تتقوى ببعضها لاحتمال توحد المصدر.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي (١٦٨٢) وأبو داود (٢٥٩٧) وأحمد (٤/٦٥-٢٨٩) والحاكم (٢/١١٧) من طرق عديدة عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أحد =

حوله تماماً.. يقرأ تفكير الخيانة جيداً.. ولذلك طلب فارساً من أصحابه.. يتطوّع للذهاب حيث حصن بني قريظة.. كي يقدم تقريراً عن آخر تحرّكاتهم.. وهل بدأوا تنفيذ مؤامرتهم مع قريش وغطفان.. هل بدأوا التحرك العسكري للضرب من الخلف..

هبّ الزبير ملبياً نداء النبي ﷺ.. حمل روحه وسيفه وانطلق كالسهم نحو بني قريظة.. وفي طريقه مرّ من تحت سور حصن بني حارثة.. فشاهده ابنه الصغير عبد الله الذي كان يطل من الحصن بالتناوب مع صديقه الصغير عمر بن أبي سلمة..

يقول عبد الله بن الزبير: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ، أطم حسان، فكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة «على فرسه»، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق)[1].

ويقول الزبير: (كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم، فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: فداك أبي وأمي)[2]، فقد أدّى عملاً بطولياً.. وأخبر النبي ﷺ بأن بني قريظة قد نقضوا العهد وما زالوا على خيانتهم.. تأزّم الوضع..وبدأ المنافقون بالتململ.. فقد ضاقوا مما يجري.. وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم.. وأحرقت نار الحرب تلك القشرة التي يختبئ كفرهم تحتها..

=

الصحابة.. والمهلب من ثقات الأمراء وقد سمع منه أبو إسحاق وقال عنه: ما رأيت أميراً أفضل منه —التقريب (٢/٢٨٠).

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (١/١٦٤) واللفظ له والزوائد للبخاري.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠).

فضحتهم الحرب.. وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم.. بدأوا يقدمون التماساتهم وأعذارهم بعدم القدرة على الصمود نظراً للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم.. بعد أن رأوا السهام كالمطر على جيش المؤمنين.. انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر.. هرباً من المعركة.. كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين لولا ثقتهم بنصر الله ووعده.. اشتدّ الأمر على المؤمنين.. وضاقت بهم السُّبل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت..

أعداء في الخارج أعلى المدينة.. ويهود أسفلها.. ومنافقون في داخلها ينسحبون كالجرذان.. ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين..

يقول سبحانه عن تلك الأيام العصيبة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ[1] وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا[2] ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا[3] ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا

(١) مازالوا يسمون المدينة يثرب.. ويطالبون المؤمنين بالرجوع إلى منازلهم لأنهم مهزومون لا محالة..

(٢) عذرهم في الانسحاب من المعركة أنهم يخافون على بيوتهم من السرقة والأعداء.

(٣) أي لو دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من المنافقين إعلان الكفر لأعلنوه حالاً.

أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ[1] وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ[2]﴾[3].

أولئك هم المنافقون.. وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم.. مات فيهم كل شيء.. حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها.. حتى تلك.. ماتت داخل نفوسهم المتعفّنة.. خنقها عفن النفاق وأجهز عليها.. وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة.. يحاول التسلّل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها.. ليبعثر في جنباها الإحباط..إنهم الآن بين نسائهم يأكلون ويشربون ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق.. وليتهم اكتفوا بذلك.. إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام.. لأن المعركة في نظرهم محسومة.. وأبو سفيان سيحتل المدينة غداً إن لم يقم بذلك اليوم.. أولئك المنافقون.. نسوا كل شيء.. نسوا أن المدينة مدينتهم.. نسوا عهدهم مع الله ورسوله.. نسوا بيعتهم لله ورسوله.. نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ وأن لا يفرّوا من المعركة مهما كانت النتائج.. هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأنذال..

أمّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات.. التي غرفت ما بداخلهم.. ونشرته للجميع.. لقد شرَّحتهم الآيات وبيَّنت للناس أيّ سرطان يتمدّد في

---

(١) الذين يعيقون غيرهم من الجهاد والدفاع عن المدينة.. ويطالبونهم بالبقاء معهم.

(٢) يشحون على المؤمنين ويبخلون بالمساعدة والجهاد بأموالهم وأنفسهم وحتى بالدعم المعنوي بألسنتهم لا خير فيهم.

(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠-١٩.

المدينة.. فضحهم الله وبيّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة.. لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن.. فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد.. وخوفهم منه وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدّة النزع.. ويشتد دوران أعينهم أكثر ما يشتد الآن.. فالخوف في كل مكان.. والجوع في كل مكان.. والبرد في كل مكان.. و:

القتال يشتد

و(اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)(1) وغدرهم الذي لم يتزحزح حتى الآن.. كان ﷺ يخشى على المدينة منهم.. فلديهم من العتاد والعدّة والحقد الشيء المخيف.. ولذلك بعث الزبير مرّة ثانية حتى لا يفاجأ بجيشهم فتكون القاضية.. واستأنف الوثنيون رشقهم بالنبال.. كانت نبالاً طائشة وغير طائشة.. وهذا ما أثار خوف عائشة..

عائشة تخاف على سعد بن معاذ

وتقول: (كان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم، قالت عائشة: فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة(2)، وقد خرجت منها ذراعه، في يده حربته توقد، وهو يقول:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (٣/٣١٤) واللفظ له ورواية البخاري عن ابن الزبير رضي الله عنه.

(٢) ربما يعني أنها كانت تضم صدره.

لبث قليلاً فيشهد الهيجا حمل لا بأس بــالموت إذا حــان

فقالت أم سعد:

الحق يا بني.. فقد والله أخّرت، فقالت عائشة: يا أم سعد، لــوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، فخافت عليه)[1].

هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجل.. لقد أصابه سهم في ذراعه رماه مشرك يدعى: حبــان بــن العرقة.. وهو يرتجز بهذه الأبيات المليئة بالحماس والموت.. والتي ربما قالها رجل سابق اسمه: حمل.

سعد بن معاذ.. هذا الفارس العظيم.. والمؤمن النقــي.. الــذي لا يخشى في الله أحداً.. والذي دافع عن عرض النبي ﷺ أثناء إشاعة الإفك.. هذا الصحابي الجليل.. أصيب بسهم في ذراعه.. وقد نزف دمــاً كــثيراً وحالته خطيرة.. والوضع أخطر.. اعتنى النبي ﷺ بهذا الرجل الكريم.. أمر بحمله ومحاولة علاجه.. وصنع قبّة له داخل المسجد النبوي كي يــزوره أهله وأصحابه.. ويكون تحت سمع النبي ﷺ وبصره.. لكن سعداً كــان جمالاً.. كان فداءً حتى وهو يترف.. كان محملاً بالأحلام والانتصــارات والأماني..

أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي (٣/٢٤٠) حدثنا عبد الله بن سهل، عن عائشة: أنها كانت.. وعبد الله بن سهل هو أبو ليلى المدني، تابعي ثقة مــن رجــال البخاري ومسلم، وقد قال الإمام البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة – التهذيب (١٢/٢١٥) والتقريب (٢/٤٦٧).

تقول عائشة رضي الله عنها: (أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة - وهو حبان بن قيس من بني معيص ابن عامر بن لؤي، رماه في الأكحل[1]، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب)[2].

وتقول رضي الله عنها: (خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي -يعني حس الأرض- فالتفتّ فإذا سعد بن معاذ ومع ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوّف على أطراف سعد - وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول:

ليت قليلاً يدرك الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان

«قالت: فقمت، فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني مغفراً، فقال عمر: ما جاء بك.. لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز..

قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقتّ لي ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد اللهً، فقال: يا عمر.. ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوّز أو الفرار إلاّ إلى الله عزّ وجلّ».

قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه

(١) عرق في الذراع.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢).

فدعا الله عزّ وجلّ سعد، فقال:

اللّهمّ لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة -وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية- فرقى كلمه)[1]، كان سعد يعاني من جرحه.. ومازال يعاني حتى بعد توقف النزيف.. لكن جرحه الذي لا يندمل ولا يبرأ.. هو ذلك الجرح الذي فتحه في أعماقه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله.. ونقضهم العهد وهم يعيشون في ظل دولة الإسلام..

هذه هي الحرب الثانية.. والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه.. لكنها الأشدّ.. لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحرّكاتهم.. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ.. ومرة ثالثة يُشرق الزبير.. فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميّز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريي)[2]، أي صاحبي النقي أو

---

(١) حديث حسن لغيره دون ما بين الأقواس الصغيرة فسنده ضعيف لأنه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد (١٤٢/٦) وعمرو بن علقمة يحتاج إلى متابعة - التقريب (٧٥/٢) حيث قال الحافظ: مقبول.. أي عند المتابعة وبقية الحديث يشهد له ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣١٤/٣) واللفظ له.

وزيري.. والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه.. ففداه ﷺ بأمّه وأبيه.. وتجدّد التماهي بين القائد وجنده في أشدّ لحظات كتابة التاريخ والبطولات.. وقدم الزبير للمرّة الثالثة تقريراً يؤكد تورط يهود بني قريظة في المعركة والحصار.. لكنهم أجبن من أن يترلوا إلى ساحة العراك.. لذلك فضّلوا الانتظار فقد تنجح عملية اقتحام المدينة.. عندها يسهل الانقضاض على محمد ﷺ ومن معه.. لكن الحصار طال.. والانتظار طال.. واليهود تعلم أن هذا المحاصر نبي.. وهناك داخل السور رجال يؤكّدون لمن حولهم من اليهود أن هذا هو النبي المنتظر.. كان هناك أكثر من ثلاثة رجال يحاولون إقناع من حولهم أن محمداً ﷺ نبيّ -لكن اليهود تعاند- واليهود لها تاريخ دموي مع أنبياء سابقين.. فقد تمكنت من اغتيال عددٍ منهم.. فما المانع أن يكون محمد ﷺ ضمن قائمة من حكم عليهم بالإعدام لدى أحبارهم.. لكن خبث اليهود لم يقتصر على هذا التفكير.. فاحتمال انتصار المسلمين وارد.. والمعجزات قد تأتي في أي وقت وفي أي مكان.. لذلك قامت اليهود بمبادرة تستدرج فيها النبي ﷺ.. قامت بدور العميل المزدوج حتى تأمن جانب المسلمين في حالة انتصارهم.. وإن كان انتصارهم بعيداً.. بعيداً في ظل هذا الحصار والجوع القاتلين.. لكن اليهود تخطّط لأسوأ الاحتمالات.. فماذا فعلت؟

خيانة ثالثة لليهود

والخيانة تشكل نسبة لا بأس بها من دمائهم وعروقهم.. اجتمع أحبارهم وزعماؤهم.. وقرّروا بعث رسول إلى النبي ﷺ.. يظهرون فيه أهم معه في هذه المعركة.. وأهم جاهزون لأي إجراء يتّخذ ضدّ قريش وغطفان.. وقدّموا الدليل على ما يدّعون..

تقول عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: (إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجلاً رهناً من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم)[1]، وكأن النبي ﷺ متعطّش إلى الدماء.. أيّ دماء.. وكأنه يستبيح أي شيء من أجل الوصول إلى هدفه..

كانوا يريدون إشراك النبي ﷺ والمؤمنين في خستهم تلك..

هل هذا الفعل الحقير.. وهذه النفوس المنحطة يمكن أن تكون لقوم يدينون بدين سماوي.. ويزعمون أن لديهم كتاباً مترلاً من عند الله بذلك.. إن الخيانة هي أهون شيء في قائمة ألقاب اليهود وصفاقم..

أدرك ﷺ أن هؤلاء القوم لن يتورعوا عن فعل أي شيء.. وهدم أي مبدأ.. وتجاوز أي مقدس.. وانتهاك أي محرم من أجل أحقادهم.. لذلك قرر أن يسقيهم من الكأس الذي سقوه منه.. قرر ﷺ إطلاع قريش وغطفان على غدر قريظة بهم وذلك عن طريق رجل يشدك ويثيرك عندما يتكلم ويؤثر في سامعيه.. تقول عائشة رضي الله عنها:

(كان نعيم رجلاً نموماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟ فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم بذلك.. فلما ولى نعيم، قال رسول الله ﷺ: إنما الحرب خدعة)[2].

---

(١) سنده صحيح.. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٤٤٧): حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة.. ويزيد مولى آل الزبير تابعي صغير ثقة –التقريب (٢/٢٦٤)، وشيخه، إمام ثقة مر معنا كثيراً.

(٢) سند صحيح وهو الحديث السابق.

وقريش تعلم أن النبي ﷺ لا يكذب.. وتحقق للنبي ﷺ ما أراد فتم عزل بني قريظة عن قريش وغطفان.. وانكسر أحد أضلاع مثلث الأحزاب.. فتزعزعت ثقة الأحزاب بأحلامهم وجيشهم.. وأصبحت الهزيمة عندهم قابلة للاحتمال.. وبدأت بوادر استجابة الله لدعاء سعد بن معاذ.. الذي حاول ﷺ علاجه.. يقول جابر رضي الله عنه:

(رمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ، فقطعوا أكحله، فحسمه رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فترفه، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[1].

استجاب الله لسعد بن معاذ.. فأي مصير ينتظر بني قريظة.. استجاب الله دعاء سيد الأنصار.. فهل يستجيب الله لـ:

دعاء سيد البشر

الذي حاصره الكفر من كل مكان.. وطال عليه الحصار.. وسيطر الخوف على كل شبر في المدينة.. وصار الطفل والمرأة والرجل يخشون على أنفسهم إذا خرجوا لقضاء حاجة.. اشتد البرد والشتاء والجوع.. وبلغت الحال كما وصف الله في القرآن: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٣/٣٥٠) حدثنا حجين ويونس قالا: حدثنا الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر.. وظاهر هذا السند الضعف لأن أبا الزبير مدلس وقد عنعن.. لكن ذلك لا يضر في هذه الحالة لأن الراوي عن أبي الزبير هو الليث بن سعد وقد أعلم له أبو الزبير ما سمعه من جابر فرواه عنه.. التهذيب (٩/٤٤٢) وحجين ثقة –التقريب (١/١٥٥).

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾[1] هذا هو الوضع الآن.. وهذه هي المدينة.. كالطفل الخائف.. طيبة خائفة.. والرعب يطل عليها من رؤوس الجبال.. وشقوق الأبواب.. ومن بين النخيل..

والمشركون يستعدون الآن لشن هجوم شرس للقضاء على هذا الملل والانتظار.. للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه.. وبدأ الهجوم في ظهيرة أحد الأيام الباردة.. فتصدى لـه المسلمون.. وكان ﷺ يمثل جيشاً على إحدى مداخل الخندق.. يحميه ويذود عنه.. ويفتك بمن يقتحمه.. حتى صدهم عن ذلك الثغر.. وقد بقي ﷺ على ذلك المدخل من بعد صلاة الظهر إلى أن توارت الشمس وغابت.. يقول علي رضي الله عنه:

(إن رسول الله ﷺ كان يوم الأحزاب قاعداً على فرضة من فرض الخندق، فقال: شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوقم ناراً)[2].

وها هو أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة.. مشغولون عن الصلاة بقريش ومن معها.. لقد ذهب وقت صلاة العصر.. ودخل المغرب وهم يحاربون.. ها هو عمر قد استشاط غضباً على أولئك الوثنيين

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ١٠ - ١٤.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الدليل لمن قال.. كتاب المساجد) والبيهقي (٣/٤٤٣) واللفظ له.

(عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله.. ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب.. قال النبي ﷺ: والله ما صليتها. فقمنا إلى بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب)(1) في ذلك الوادي المسمى: بطحان.. وحول الخندق كان الليل إذا أقبل.. أقبل مع الليل برد شديد.. وعندما تشرق الشمس تشرق معها المنايا.. ففي أحد الأيام أشرقت الشمس والمعركة.. وحميت المعركة وتأجج لهيبها ولم يستطع النبي ﷺ والصحابة الصلاة من شدة القتال.. خرج وقت صلاة الظهر.. والعصر والمغرب ولم تهدأ المعركة إلا بعد دخول صلاة العشاء: يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه:

(حبسنا يوم الخندق عن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، حتى كفينا ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ فقام رسول الله ﷺ، فأمر بلالاً فأقام، ثم صلى الظهر، كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك)(2) هكذا بلغ الحصار بالنبي ﷺ وأصحابه.. لم يجدوا حتى دقائق قليلة لأداء الصلوات في أوقاتها.. ماذا يفعل ﷺ وسط هذا الخوف والجوع.. وسط هذا الزلزال.. لم يجد وسيلة مباحة إلا استخدمها.. ولم يبق أمامه وأمام أصحابه سوى الدعاء.. (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال:

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٦) ومسلم -كتاب المساجد.

(2) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٥).

اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[1] دعا دعاء المكروب.. المحتاج.. وما كان الله ليذر نبيه وعباده الصالحين في همومهم وقد بذلوا كل جهدهم وطاقتهم له ومن أجل رضاه سبحانه.

استجاب الله دعاء نبيه

وها هي طلائع الهزيمة تقترب نحو الأحزاب دون أن يشعروا.. بعث الله جيشاً لا يقهر نحو أعدائه.. بعث الله الريح والبرد وجنوداً لا يروهــا.. أما المؤمنون فقد أصابهم البرد امتحاناً من الله.. وتمحيصاً لهم.. وتكفيراً.. وقد أخرج البرد بقايا المنافقين من صمتهم.. فانطلقوا يعتذرون من النبي ﷺ للعودة إلى منازلهم.. فأذن لهم.. وبقي هو وأصحابه متجمدين من شدة البرد لا يقوون على الحركة ولا القتال.. أما في معسكر الوثنيين فقد هاجت الريح عليهم.. فأطفأت نارهم.. واقتلعت خيامهم.. وقلبت قدورهم.. وملأت أنوفهم وعيونهم وأفواههم بالتراب والهزيمة.. أما البرد فقد أعجزهم عن الحركة.. وتحول معسكرهم إلى ساحة كبيرة من النفايات والفوضى والرعب.. البرد والجوع والخوف ينتقل من المدينة.. يعبر الخندق كوحش لا يطاق.. ويتحول الأحزاب إلى أكوام.. إلى ركام من الفشل.. ويتفرق شملهم.. تنهار أحلامهم أمام أعينهم.. تتطاير مع الريح والغبار.. فماذا سيفعلون.. وماذا فعل ﷺ مع أصحابه الذين مستهم الريح ومسهم البرد والجوع.

قرر النبي ﷺ السماح لأصحابه بالعودة إلى بيوتهم.. فقد جاء نصر الله بريح وجنود لا يراها البشر.. فعاد من أحب العودة منهم.. وبقي من بقي

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٥).

فقد كفى الله المؤمنين القتال.. وفي أشد ساعات الريح والبرد.. كان ﷺ يستدفئ بمناجاة حبيبه سبحانه.. كان يتمتع بصلاته.. ويريح نفسه بها.. قيل لذلك الشاب الذي يشارك لأول مرة.. قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب: (أين كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الأحزاب؟ قال: كان يصلي في بطن الشعب، عند خربة هناك، ولقد أذن رسول الله ﷺ في الانصراف للناس، ثم أمرني أن أدعوهم، فدعوتهم)(١) لكنهم لم يعودوا. ولم يستطيعوا العودة من شدة البرد والجوع.. وكان لعدم عودتهم قصة يحكيها ذلك الشاب أيضاً.. الذي أرسله خاله الصوام القوام عثمان بن مظعون.. ليحضر بعض الطعام ولحاف عله يذهب ما به وبأصحابه من ريح وجوع وبرد.. يقول عبد الله بن عمر: (أرسلني خالي: عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف.

فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي، وقال: من أتيت من أصحابي فمرهم أن يرجعوا.

فذهبت الريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحد إلا أمرته

---

(١) رجاله ثقات رواه الطبراني (١٢/٣٦٩): حدثنا محمد بن الحسين الأنماطي، حدثنا مصعب ابن عبد الله الزبيري، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع، قال قيل لعبد الله.. وهذا السند، رجاله ثقات: عبيد الله ثقة ثبت (التقريب - ١/٥٣٧) وعبد العزيز الدراوردي: صدوق (التقريب - ١/٥١٢) ومصعب صدوق (التقريب - ٢/٢٥٢) وشيخ الطبراني سكت عنه الشيخ حماد الأنصاري حفظه الله في البلغة (٢٨٠) ووجدت توثيقه في تاريخ بغداد (٢/٢٢٧) لكن يعكر على صفو هذه السلسلة قول الإمام أحمد أن الدراوردي: ربما قلب حديث عبد الله بن عمر يرويها عن عبيد الله.. لكن الراجح أنه لم يقلب هنا.. لأنه روى نحو هذا الحديث وهو الحديث التالي وقد توبع تابعه إمام ثقة هو ابن وهب عند ابن جرير (ابن كثير - الأحزاب).

بالرجوع إلى النبي ﷺ، فما يلوي أحد منهم عنقه. وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأبعدها إلى الأرض)[1] وسط هذا الجو العاصف البارد.. كانت الريح معركة وحدها.. أشغلت كل إنسان بنفسه.. فصار لا يدري ما حوله ولا من حوله.. وخلال هذا الجو المخيف.. كان ﷺ يناجي ربه الذي أنزل نصره.. وأرسل ريحه.. كان الجميع مشغولين بأنفسهم.. ونبي الله ﷺ مشغول بصلاته ودعائه.. لكن ماذا عن الجهة الأخرى من الخندق.. ماذا عن الوثنيين وماذا فعلت بهم الريح..

الريح في معسكر الوثنيين

النبي ﷺ يتساءل أيضاً عن أحوالهم.. فقد هتف ﷺ بالقلة المحيطين به ونادى بالتطوع لاكتشاف ما حل بالمشركين لكنه لم يجد مجيباً.. ثم هتف فلم يجبه أحد.. وكرر ثالثة.. فكانت الريح والبرد هي الإجابة.. ولما رأى ﷺ أن التطوع في هذه الساعة صعب.. أمر ﷺ أحد الصحابة.. فنفذ ما أمره به.. هذا الصحابي.. هو ابن حسيل.. حذيفة ذلك الرجل الصالح الذي استشهد أبوه في معركة أحد بسيوف المؤمنين يحدث من

---

(١) سنده قوي رواه ابن جرير (تفسير ابن كثير - الأحزاب) حدثنا يونس ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر..

ونافع تابعي إمام ثقة معروف، وعبيد الله ثقة ثبت مر معنا في الحديث السابق.. والراوي عنه ثقة ثبت حافظ من رجال الشيخين (التقريب - ١/٤٦٠) وتلميذه ثقة من رجال مسلم واسمه يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة الصدفي (التقريب - ٢/٣٨٥) والحديث عند الطبراني (١٢/٣٦٨) والأوسط (مجمع البحرين - ٥/١٠٨) من طريق الدراوردي عن عبيد الله وقد توبع هنا والحديث شاهد لبعض ما قبله.

حوله عن مهمته تلك الليلة عندما قال له أحد أصحابه:

(لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت.

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدة وقرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ:

ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يُجبه منا أحد، ثم قال:

ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد، ثم قال:

ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. فقال:

قم يا حذيفة.. فأتنا بخبر القوم.

فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي[2].

فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[3]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي[4] ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم علي[5]، ولو

---

(١) أي البرد.

(٢) لا تثيرهم ولا تحركهم.

(٣) أي كأنه يسير في حمام دافئ معجزة من عند الله رغم شدة البرد.

(٤) أي يدفئ.

(٥) لا تثيرهم ولا تحركهم.

رميته لأصبته، «فذهبت، فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً [فحس أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم] فقام أبو سفيان، فقال:

يا معشر قريش: لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، والخف[1]، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل فرجعت إلى رسول الله ﷺ» فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[2]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يا نومان[3])[4].

فقد أصبحت المدينة وأصبح الملك لله.. وأصبح النصر لله ورسوله..

---

(١) الكراع يعني الخيل والخف الإبل.

(٢) أي بردت.

(٣) يا كثير النوم.. يمازحه ﷺ.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة الخندق) والزوائد - ما بين الأقواس الصغيرة - ليست لمسلم إنما هي حسنة لغيرها رواها ابن إسحاق بسند يحتمل الانقطاع بين حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وهو تابعي كبير أدرك علياً وروى عنه (ابن هشام - ١٣٩/٣) ويقويه ما عند البيهقي (٤٥٠/٣) وفي سنده موسى بن أبي المختار وهو يحتاج إلى توثيق - الجرح والتعديل (١٦٤/٨).

وخلت الساحة من الأوثان والوثنيين الذين ولوا مدبرين.. تكنس الريح أثارهم ونفاياهم.. نظر ﷺ إلى ساحة القتال فحمد الله هو وأصحابه.. وذكرهم بنعمة الله عليهم.. ومعجزته التي لوت أعناق المشركين وأذلتهم.. كما أذلت أعناق مشركين آخرين في زمن غابر جداً.. إنهم قوم النبي الكريم: هود وهم قوم عاد.. فقد نصر الله نبيه هود بريح عاتية آتية من الغرب.. ونصر الله محمداً ﷺ بريح عاتية آتية من الشرق.. ولذلك يقول ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[1] وقال ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[2] وقد حول ساحة المؤمنين إلى نصر وربيع.. فالحمد والشكر لمن هزم الأحزاب وحده.. كانت معركة غير متكافئة عدداً واستعداداً.. لكن المؤمن عندما يفعل الأسباب.. ثم يتوجه بها نحو الله تتحول النتائج إلى أعياد.. ها هو ﷺ يبشر أصحابه بعد انتهاء المعركة بنهاية عصر وبداية آخر.. يبشرهم ﷺ بانهيار هيبة قريش.. وانكسار حربتها.. يبشرهم بأن:

الخندق مقبرة قوة قريش

فليس هناك بعد اليوم هجوم أو حصار من قريش.. سمع ذلك أحد الصحابة الذين شاركوا في الخندق واسمه سليمان بن صرد رضي الله عنه. فقال: (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[3].

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (الاستسقاء).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٤) ومسلم (الذكر - الدعاء).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٠).

كان ﷺ في الفترة السابقة حريصاً على وحدة المدينة.. وتماسكها.. وتجذير الإيمان والتوحيد والحب فيها.. بينما كانت قريش حريصة على تقويض ذلك كله.. حاولت في معركة بدر بقيادة الطاغوت أبي جهل وفشلت.. وقادها للثأر أبو سفيان في معركة أحد.. فلم تنل ما حملت به.. وها هي تعود محطمة بعد معركة الخندق هي ومن ساندها من الأحزاب.. تعود إلى مكة وقد تفتتت هيبتها.. وانكسرت شوكتها.. ويعود ﷺ وأصحابه إلى بيوتهم بعد أن انتصروا.. رجعوا ليغتسلوا من عناء أيام قاسية.. ومن غبار ريح عاتية:

النبي ﷺ يضع سلاحه ويغتسل ولكن شيئاً حدث جعله يلبس أداة الحرب مرة أخرى.. ففي بيت عائشة رضي الله عنها كان ﷺ يغتسل من المعركة ويتطيب.. ولكن تقول عائشة:

(لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل «وهو ينفض رأسه من الغبار» فقال: قد وضعت السلاح!

والله ما وضعناه، فأخرج إليهم. قال: إلى أين)[1].

إلى أين يحمل ﷺ سلاحه

سأل النبي ﷺ جبريل فـ (قال: إلى أين؟

قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم)[2] وقبل أن يتحرك جيش النبي ﷺ.. تحرك موكب جبريل في طرقات المدينة.. ومر بطريق يقال له «زقاق بني غنم» لم يرهم أحد.. لكن أنساً رضي الله عنه رأى غباراً

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧) والزيادة لمسلم.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧).

في ذلك الزقاق.. غباراً أثاره موكب جبريل.. يقول أنس رضي الله عنه:

(كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة)[1].

النبي ﷺ ينطلق إلى بني قريظة

قبل ذلك يرسل مجموعة من أصحابه نحوهم.. وكان أحد هؤلاء ذلك الشاب الذي سيشارك مرة ثانية في الجهاد معه ﷺ.. عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

(قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب:

لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: «لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت» لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم)[2].

ثم لحق بهم ﷺ حتى وصل إلى حصنهم.. ولم يكن ذلك الحصار مهماً إلى هذه الدرجة عنده وعند أصحابه.. لم يكن ﷺ على عجلة من أمره في حصارهم.. فقد ذهب إلى بيته واغتسل وتطيب ولكن الله سبحانه أخرجه من بيته إليهم.. فالأمر خطير جداً.. وما فعله بنو قريظة أخبث مما فعله الأحزاب.. فلم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش وغطفان معاهدة عدم اعتداء.. بل كان هناك عداوة.. أما قريظة فبينهم وبين النبي ﷺ عهد

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٩٤٦) والزيادة لمسلم.

مكتوب.. ووثيقة موقع عليها.. وجوار يجب حفظه.. لكن قريظة نسفت ذلك كله.. وخانت للمرة الثانية وتآمرت.. وطعنت من الخلف.. وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة أن يخرج الله نبيه إليهم بهذه السرعة.. وأن يأمر ﷺ بعدم الصلاة إلا عند حصونهم.. إن ما فعله اليهود سيتكرر لأن محمداً ﷺ ليس من بني إسرائيل.. وما داموا قد قتلوا أنبياء من بني إسرائيل.. فلا مانع من تكرار التجربة مع نبي ليس منهم.. ستتلمظ الخيانة أفعى داخل كل حصن تسكنه يهود.. ولن يعرف النبي ﷺ والمسلمون طعم الراحة والأمن ما داموا فيها.. وصل جيش الإسلام إلى هناك.. فتزلزلت الحصون.. وارتعدت الأوصال.. وبدأ الخوف والضجيج والتلاوم بين اليهود.. وشرب بنو قريظة من الكأس الذي سقوه للمؤمنين.. شاركوا في حصار المدينة.. وها هم يعيشون المأساة نفسها.

النبي ﷺ يحاصرهم بالسيوف والشعر

طوق جيش الإسلام حصن بني قريظة.. ووصل في معية النبي ﷺ شاعره الكبير حسان بن ثابت الذي هتف به ﷺ وهتف بشعره فقد (قال النبي ﷺ لحسان يوم قريظة:

أهجم أو هاجهم وجبريل معك)[1] (اهج المشركين فإن جبريل معك)[2] هجاهم حسان.. ورماهم بأبيات كالرماح.. لابد أنه وصفهم بالخيانة والتآمر والغدر.. وكفى بتلك الصفات أن تهزم صاحبها.. لمع شعر حسان ولمعت السيوف.. فصاحت قريظة تسأل النبي ﷺ عن مخرج لهذه الورطة وهذا الحصار.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٤).

قريظة تبحث عن مخرج

عرض عليهم ﷺ أمرين.. وإلا فإن الموت سيقتحم حصوهم.. الأمر الأول: أن يسلموا. فإن أبوا ذلك فعليهم بالأمر الثاني: وهو الترول تحت حكمه ﷺ وأن يرضوا بعقوبة الخيانة التي سيترلها بهم.. ولم يحددها ﷺ حتى الآن.. وهي عقوبة يتوقع اليهود أن تكون شديدة تناسب حجم نذالتهم وغدرهم.. فليست هذه هي الأولى في سجل خياناهم.. فقد (حاربت قريظة والنضير فأجلى ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[1] وأعطاهم الأمان.. وعفا عنهم وسامحهم.. ولكنه أخذ عليهم عهداً مكتوباً.. وثيقةً بعدم الخيانة والتآمر والغدر.. كتب بينه وبينهم وثيقة بحسن الجوار وأشياء أخرى.. لكنهم يهود.. عادوا فنقضوا كل ما كتبوا.. وها هم أمام حصار خانق وخيارين لا ثالث لهما إلا الموت.. وفجأة دوت صرخة زعيم من زعماء يهود.. تناشد أحد الصحابة وهو «أبو لبابة» رضي الله عنه:

أبو لبابة يثير الرعب في نفوس يهود

بعدما (قذف الله في قلوبهم الرعب، واشتد عليهم الحصار، فصرخوا بأبي لبابة بن عبد المنذر.. وكانوا حلفاء الأنصار «فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: قد أذنت لك» فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه، وقالوا: يا أبا لبابة.. ماذا ترى، وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟

فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه، وأمرَّ عليه أصابعه، يريهم أنما يراد بهم القتل)[2].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

(٢) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة.. رواه ابن إسحاق وهو في مغازي موسى..=

فازدادوا رعباً إلى رعبهم.. وزلزلهم الهلع والخوف.. وأدركوا فداحة جرائمهم.. والمجرم الموغل في الإجرام لا يدرك شناعة جرائمه إلا إذا نزل به العقاب.. مصير شنيع يفتح أذرعه القاسية لليهود.. ويستشير اليهود بعضهم بعضاً.. فيلمحون في الأفق سراباً عله يكون ماءً.. فينطلق الصراخ والمناشدة الخائنة من الحصن مرة أخرى.. فماذا تريد اليهود هذه المرة؟

قريظة تطلب خياراً ثالثاً

اقترح اليهود الخائفون حلاً أخيراً لورطتهم التي رسموها بأنفسهم.. اقترحوا على النبي ﷺ حلاً ثالثاً.. فهم لا يطيقون الحرب.. ولا النزول على حكم النبي ﷺ بعدما مرر أبو لبابة أصابعه على حلقه.. وهم أيضاً مازالوا يعاندون ويرفضون الإسلام رغم اقتناعهم بأن محمداً ﷺ نبي مرسل..

لقد طلبوا منه ﷺ أن يجعل حكمهم بيد حليفهم السابق.. الصحابي الجريح سيد الأنصار: سعد بن معاذ.. مهما كان هذا الحكم.

قبل ﷺ هذا الاقتراح وأرسل في طلب سعد بن معاذ.. وإحضاره من خيمته داخل المسجد النبوي حيث يتم تمريضه هناك.. وصل رسول الله ﷺ إلى سعد وأخبره الخبر.. فأدرك سعد أن الله قد استجاب دعاءه عندما دعاه والدماء تشخب من عروقه والموت يزحف إليه.. قال سعد حينها: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة

=

عن الزهري وعن عروة مرسلاً (سيرة ابن كثير - ٢/٢٢٩) لكن له شاهد عند أحمد من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده وقد قال ابن كثير (إسناده جيد) والأصوب أن فيه عمرو بن علقمة الوقاصي وهو يحتاج إلى توثيق لذلك قال الحافظ في التقريب (٢/٧٥) مقبول: أي عند المتابعة والشواهد.. انظر سيرة ابن كثير (٣/٢٣٧).

فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[1] من دم. وبقي سعد صابراً في خيمته.. محتسباً ألم جرحه عند الله.. حتى أتاه الفرج.. وأتاه مبعوث رسول الله ﷺ يطلبه للحكم في قضية خيانة بني قريظة.. حُمل سعد على حمار وتوجه به المبعوث إلى بني قريظة.. وقبل أن يصل سعد.. كان هناك اضطراب وضجيج وحركة داخل الحصن.. وفجأة فتح الباب.. وخرج منه رجال ونساء.. إنهم يتوجهون الآن نحو النبي ﷺ.

من الذين خرجوا من حصن بني قريظة

إنهم رجال ونساء يريدون الإسلام والنجاة في الدنيا والآخرة.. هؤلاء (بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ، فآمنهم وأسلموا)[2].

وكان من بين هؤلاء.. ثلاثة شباب ليسوا من بني قريظة.. لكنهم دخلوا حصونهم ودينهم منذ زمن هرباً من الشرك.. لعل الله أن يهديهم على يد ذلك النبي المنتظر الذي تنتظره اليهود..

يحدثنا عن هؤلاء الثلاثة رجل شاهدهم وسمعهم وعاش معهم.. وخرج معهم من الحصن.. (شيخ من بني قريظة قال: هل تدري عما كان إسلام: أسيد، وثعلبة ابني سعية، وأسد بن عبيد: نفر من هذل، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذاك؟ فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام، من اليهود، يقال له: «ابن الهيبان» فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط يصلي الخمس خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا، وقل علينا المطر نقول:

يا ابن الهيبان.. اخرج فاستسق لنا، فيقول:

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٣/٣٥٠) وقد مر معنا تخريجه تحت عنوان خيانة ثالثة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

لا والله، حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مدين من شعير، فنخرجه، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا -ونحن معه- فيستسقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين، ولا ثلاثة.

فحضرته الوفاة، واجتمعنا إليه. فقال:

يا معشر اليهود.. ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير[1]، إلى أرض البؤس والجوع[2]؟ قالوا: أنت أعلم.

قال: إنما أخرجني أتوقع[3] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فأتبعه، فلا تسبقن إليه إذا خرج يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الفتية وكانوا شباباً أحداثاً: يا معشر يهود.. والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان.

فقالوا: ما هو به.

قالوا: بلى والله، إنه لصفته، ثم نزلوا، فأسلموا، وأحرزوا أموالهم، وأولادهم، وأهاليهم)[4] انتهى كل شيء بالنسبة لهم.. لم يعودوا أعداءً..

(١) أي أرض الشام حيث الأنهار والأشجار والخمر.

(٢) أي المدينة قبل أن يدعو لها النبي (ص) بالبركة.

(٣) أي أنتظر وأتربص وآمل.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٨٠): حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة.. وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي التقريب.. وشيخه صحابي أدرك ذلك الحدث وأسلم رضي الله عنه وروى ذلك الحدث وقد يكون عطية القرظي رضي الله عنه.

ولم يجدوا من يعاتبهم أو يلومهم.. أو حتى يذكرهم بمواقفهم.. انتهى كل شيء فالإسلام يمحو ما قبله.. أدرك هؤلاء أن دين الله الصحيح أرحب من أن يحبس في حصن من حصون يهود.. وأعظم من أن تستقل به قبائل بني إسرائيل.. خرج هؤلاء فوجدوا أذرعاً وقلوباً مفتوحة.. ووجدوا رسول الله والإسلام.. وأما من أغلقوا على أنفسهم أبواب الحصن والعناد والتعصب.. فقد وصل إليهم سعد بن معاذ كما طلبوا.. وصل سعد على حماره.. قطع تلك المسافة ليرضي الله ورسوله.. ولتقر عينه من بني قريظة الخونة.. كان:

وصول سعد بن معاذ إلى ذلك المكان يحبس الأنفاس.. شاهده النبي ﷺ وهو قادم.. وكان ﷺ في مسجده المؤقت قرب الحصن.. فسر لمرآه.. وهتف بأصحابه: (قوموا لسيدكم)[1] يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ: قوموا لسيدكم، أو لخيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك)[2].

كل هذا يحدث ومازال أمام اليهود فرصة للحياة بالإسلام.. لكنه الحسد.. كيف يخضع بنو إسرائيل لعربي.. وكأن الإسلام والتوحيد جاءا من أجل العرب لا من أجل الدنيا كلها.. اكتفوا بمناشدة سعد والتوسل إليه.. فماذا قال سعد يا عائشة..؟ تقول رضي الله عنها إن اليهود: (قالوا: نتزل على حكم سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

«فقالوا: يا أبا عمرو.. حلفاؤك، ومواليك، وأهل النكاية، ومن قد علمت -ولا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم- حتى دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال:

قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم».

قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ:

قوموا إلى سيدكم «فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله.

قال: أنزلوه» قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم.

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله [من فوق سبع سماوات](1) (حكم الله فيهم وكانوا أربعمائة)(2) مقاتل.. خانوا.. وتربصوا بالمؤمنين الدوائر.. وتعاونوا مع الأعداء لإزالة دولة الإسلام..

أخذ هؤلاء على حدة.. وأخذ الأطفال والنساء على حدة.. أما من أسلم فقد عاد إلى الحصن.. إلى أهله وأولاده وإلى ماله الذي لم يمس.. ثم توجه بهم المسلمون نحو سوق المدينة.. وأدخل النساء والأطفال بيوت

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة وله شواهد صحيحة.. وهو حديث عائشة الذي حسنه ابن كثير وهو من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عن عائشة.. وأبوه يحتاج إلى توثيق - والحديث حسن بالأحاديث الصحيحة عند البخاري وأحمد وغيرهما والزيادة بين المعقوفين حسن عند ابن سعد (٣/٤٢٦) من طريق التمار وهو حسن الحديث ولها شاهد مرسل عند ابن إسحاق.. من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده..

(٢) سنده صحيح وقد مر معنا من رواية الليث عن أبي الزبير عن جابر عند أحمد (٣/٣٥٠) وقد مر تحت عنوان (خيانة ثالثة).

النبي ﷺ وبيوت أصحابه.. وكانت إحدى نساء اليهود قد ارتكبت جريمة لم يعرف حتى الآن من هو الذي فعلها.. والمــرأة الآن موجــودة عنــد عائشة.. تتظاهر بالمرح والسرور.. وتضحك ضحكاً أثار استغراب عائشة رضي الله عنها ودهشتها في مثل هذا الظرف الذي تكون فيه المرأة مليئة بالحزن والنواح.. غارقة بدموعها على قومها.. جمع الرجال بعيداً عــن أطفالهم ونسائهم.. وتم تنفيذ حكم سعد فيهم.. وقرت عينه مــن بــني قريظة.. وشفى غليله من غدرهم.. وفجأة.. وأثناء تنفيذ الحكم.. صاح صائح ينادي باسم تلك المرأة الضحوك.. لقد اكتشف ســرها.. فمــاذا ستفعل.. وهي:

المرأة الوحيدة التي ستقتل من بني قريظة

تقول عائشة رضي الله عنها عن تلك المرأة الغريبة:

(لم يقتل من نسائهم «تعني بني قريظة» إلا امرأة واحدة، والله إنهــا لعندي تحدث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهــا في السوق، إذ هتف هاتف باسمها:

أين فلانة؟

قالت: أنا والله.

قلت لها: ويلك.. مالك؟

قالت: أُقْتَلُ.

قلت: ولِمَ؟

قالت: لحدث أحدثته.

فانطُلِقَ بها، فضرب عنقها، فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها، طيبَ نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل)[1].

هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشــرون المــوت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب.. حكم عاجل وحازم وحاسم.. أخرج نبيه من بيته.. من استراحته.. وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.. قد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لماذا هذا الحزم مع اليهود.. لماذا كل هذه الشدة.. ولا أجد جواباً أعظم من أنه حكم الله وحده لا شريك لـــه.. لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في توراة القوم.. تخول اليهود أن يفعلوا ما يشاءون بأعدائهم.. إذا بدرت منهم إساءة لليهود فكيف إذا كانوا في نظرهم كفاراً كالمسلمين..

هذه الإضافة تجدها في:

قصة دينة بنت يعقوب

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم.. فخرجت دينة ذات يوم تتمشى فرآها ابن الملـــك «حمور» واسمه «شكيم» فاغتصبها ثم طلب من أبيه أن يخطبها.. فتكـــدر يعقوب عليه السلام لما حدث لابنته وسكت حتى جاء أبناؤه.. وقال لهم إن الملك عرض عليه الإقامة الدائمة والمصاهرة بين العـــائلتين.. فتظـــاهر الأبناء -وهم أعظم أنبياء اليهود- بالموافقة.. لكن اشترطوا أن يختتن كل

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن هشام - ١٤٧/٣) وأبو داود (٢٦٧١) وغيره مـــن طريق ابن إسحاق.. واللفظ لابن هشام والزيادة عند أبي داود: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة.. ومحمد ثقة من رجال الشيخين التقريب (٢/١٥٠) وشيخه إمام معروف مر معنا كثيراً جداً.

من أراد الزواج منهم.. ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه.. وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق.. وقتلوا كل ذكر.. ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم[1].

إذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل.. والذين إليهم ينسب كل اليهود.. إذا كان الغدر هو مبدؤهم -كما يقول كاتب التوراة- فكيف بالرعاع والحاقدين من بني قريظة.. ما هو حجم الكارثة التي سيرتكبها اليهود في المدينة.. لا أحد يعلم إلا الله.. ولا شيء يردع تهور اليهود ودسائسهم سوى السيف.. وها هو السيف يبطش بهم في سوق المدينة.. وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة.. ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها.. وقد كان هناك حدٌّ للمحارب يعرف به ويميز.. يذكره لنا أحد الذين نجوا من ذلك الحكم لأنه لم يبلغ ذلك الحد.. إنه فتى صغير يدعى عطية القرظي وقد أسلم فيما بعد وأصبح من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.. يقول رضي الله عنه: (كنت في سبي بني قريظة فأمر رسول الله ﷺ بمن أنبت أن يقتل، فكنت فيمن لم ينبت فتركت)[2].

وهكذا أهال الإسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن.. وأراح العالم منه.. وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإسلام والهواء النقي من كل خبث ودسيسة.. فعاشوا أحراراً بالإسلام.. إلا من أبى..

رأى المنافقون السيوف تجتث رقاب أصدقائهم اليهود.. الذين طالما

(١) انظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي (٢٥/٤) من طريق: شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير عن عطية: وشعبة يلقب بأمير المؤمنين في الحديث (التقريب - ٣٥١/١) وشيخه تابعي وثقة فقيه التقريب (٥٢١/١).

اتخذوهم كهفاً لأصنامهم ونفاقهم.. فلم يطق أحد شعرائهم مشهد انهيار رفاق التآمر والخيانة فقال أبياتاً تعبر عن:

موقف المنافقين مما حدث لقريظة

وتلقي باللوم على سعد بن معاذ الذي كان شديداً في حكمه عليهم.. وما علم هؤلاء أن الله سبحانه هو الذي أمر نبيه ببني قريظة.. في الوقت الذي كان فيه ﷺ قد وضع سلاحه واغتسل وتطيب.. وتهيأ لأخذ بعض الراحة من عناء حرب شاقة وقاسية.. وتجاهل أولئك المنافقون أن مصيرهم سيكون أسود من ليلهم لو انتصر الأحزاب واحتلوا المدينة..

ولم ينس ذلك الشاعر المنافق مدح زعيمه عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان حليف كل من على وجه الأرض إلا محمداً ﷺ وأصحابه.. وفي مدحه لابن أبي بن سلول سب لسعد بن معاذ.. لأن سعد بن معاذ لم تأخذه في الله لومة لائم.. ولا بيت شاعر.. أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد دافع عن يهود بني قينقاع عندما غدروا بالمسلمين.. ووقف معهم.. وكلم النبي ﷺ فيهم ورجاه العفو عنهم.. فأبقاهم ﷺ وعفا عنهم من أجله.. وأمهلهم.. وعن هذين الموقفين المتناقضين يقول ذلك الشاعر:

(ألا يا سعد سعد بني معاذ ... فما فعلت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بني معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
تركتم قدركم لا شيء فيها ... وقدر القوم حامية تفور
وقد قال الكريم أبو حباب ... أقيموا قينقاع ولا تسيروا
وقد كانوا ببلدهم ثقالاً ... كما ثقلت بميطان الصخور)[1]

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه مسلم –المبادرة بالغزو.

وسواءً كانوا ثقالاً كالجبال على أرض ميطان أو كانوا أثقـــل مـــن ذلك.. فقد اجتثوا من جذورهم المتعفنة.. وطهر الموحدون تلك الأرض منهم ومن شركهم.. وإذا كان لهم من لوم فليلوموا أنفسهم.. هم الذين اختاروا سعداً فكان لهم ما أرادوا..

أما سعد فقد توجه إلى المسجد.. إلى خيمته المنصوبة فيه.. ولما استقر فيها توجه بدعاء كله شوق إلى الله.. دعاء يفيض بسر المؤمن إذا تـــألق بالإيمان.. فسعد حكم على مقاتلي قريظة بالموت.. ثم تمنى الموت شـــهيداً بجرحه ذلك.. ما هذا؟.. إنه لم يسأل الله ولا رسوله شيئاً من أرض قريظة ولا أموالهم ولا نخيلهم ولا نسائهم.. إنه يسأل الله أن يقـــبض روحـــه.. بجرحه حتى يكون شهيداً من شهداء الخندق.. أما ما عدا ذاك فحطـــام.. وسعد أكبر من الحطام.. أراد الشهادة لأنه ما أسلم وترك الأوثان إلا من أجل تلك العوالم الساحرة المرفوفة في الجنة.. فما هو

دعاء سعد بعد قريظة

تقول عائشة -وقد احتفظت رضي الله عنها في ذاكرتها لسعد بالكثير الجميل- فهو الذي دافع عنها وعن عرضها في قصة الإفك الآثمة.. تقول رضي الله عنها:

(إن سعداً كان قد تحجر كلمه(١) للبرء، فدعا سعد فقال:

اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك مـــن قـــوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننـــا وبينهم، فإن كان من حرب قريش شيء، فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك،

---

(١) جرحه.

وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرها واجعل موتتي فيها.

ففجر من ليلته فلم يرعهم[1].. ومعهم في المسجد أهل خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم.

فقالوا: يا أهل الخيمة.. ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد جرحه يغذو[2] دماً)[3] ولما (ثقل حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة»، وكانت تداوي الجرحى، فكان النبي ﷺ إذا مر به يقول: كيف أمسيت؟

وإذا أصبح قال: كيف أصبحت؟ فيخبره.

حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها، فثقل، فاحتملوه، إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ كما كان يسأل عنه، وقالوا: قد انطلقوا به.

فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع[4] نعالنا، وسقطت أرديتنا عن أعناقنا، فشكا ذلك إليه أصحابه:

يا رسول الله.. أتعبتنا في المشي.

فقال ﷺ: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة. فانتهى رسول الله ﷺ إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وهي تقول:

---

(١) يفزعهم.

(٢) يسيل بشكل متواصل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢) وتابع شيخه ابن سعد (٣/٨٤٩) واللفظ له.

(٤) سيور النعال التي تمسك النعال بالأصابع.

ويـــل أم ســـعد ســـعداً حزامـــــة وجـــــدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب إلا أم سعد. ثم خرج به.

يقول له القوم أو من شاء منهم: يا رسول الله.. ما حملنا ميتاً أخف علينا من سعد. فقال ﷺ:

ما يمنعكم من أن يخف عليكم وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، وقد سمى عدة كثيرة لم أحفظها، ولم يهبطوا قط قبل يـــومهم قـــد حملـــوه معكم)[1] توجه ﷺ بصاحبه نحو البقع.. فسبقه أبو سعيد وبعض الصحابة نحو البقيع لحفر القبر وإعداد اللبنات والماء.. طمعاً في ذلك الأجر العظيم الذي قال عنه ﷺ:

«من حفر لـــه[2] فأجنه، أجري عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة»[3].

وصل النبي ﷺ وأصحابه إلى البقيع.. يقول أبو سعيد الخدري:

---

(١) سنده حسن رواه ابن سعد (٤٢٧/٣) أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا عبد الرحمن بـــن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد: هذا الإسناد حسن: محمود بن لبيد صحابي وتلميذه ثقة عالم بالمغازي –التقريب (٣٨٥/٢) وعبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة ثقة من رجال الشيخين، وجرحه غير مفســـر بـــل هـــو مضطرب، فقد قال النسائي: ليس بالقوي، ومرة قال: لا بأس به، ومرة قال: ثقة.. أمـــا توثيقه فمعتبر، قال إمام علم الرجال ابن معين: ثقة، وقال أبـــو زرعـــة: ثقـــة، وقـــال الدارقطني: ثقة، انظر التهذيب (١٩٠/٦) وقال أحمد وابن معين: صالح.. وكـــلام ابـــن حبان غير معتبر فيه فمن تتبعي لجرحه وجدته يطلق هذا الحكم حتى على من ليس مـــن الحديث إلا واحد أحياناً (يخطئ كثيراً.. أو يخطئ).

(٢) أي حفر لأخيه المسلم قبراً.

(٣) صححه الألباني في الجنائز (٥١).

(فطلع علينا رسول الله ﷺ وقد فرغنا من حفرته ووضعنا اللبن والماء عند القبر، وحفرنا له عند دار عقيل اليوم، وطلع رسول الله ﷺ، فوضعه عند قبره، ثم صلى عليه، فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع)[1].

ولئن امتلأ البقيع بالناس فلقد زاحمهم فيه آخرون ليسوا من الناس.. جاؤوا كرامة لهذا المسافر الحبيب.. يشهدون توديعه والصلاة عليه ودفنه.. هبط من السماء سبعون ألف ملك فكانت الدنيا عرشاً يهتـز.. وسمـاء مفتوحة.. وملائكة تهبط.

كل ذلك حدث من أجل ذلك الفارس الجسور.. والمؤمن الطهور.. المسافر بالقلوب.. سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري..

ها هو جابر الأنصاري يرى ويشاهد ويروي فيقول: (قال رسول الله ﷺ وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: اهتز لها عرش الرحمن)[2] (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ)[3].

أما بعد دفنه رضي الله عنه فقد وقف ﷺ يحدث أصحابه عن هـذا الراقد.. الذي نحت الحب في قلوب المؤمنين.. ونحت العدل على جدران قريظة.. يحدثهم عما حدث له بعد دفنه فيقول:

(هذا العبد «الصالح» الذي تحرك له العرش، وفتحت لـه أبـواب السموات، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم يترلوا الأرض قبل ذلـك،

---

(١) سنده صحيح رواه ابن سعد (٣/٤٢٤) أخبرنا عفان ويحيى وأبو الوليد الطيالسي، أخبرنا شعبة أنبأني سعد بن إبراهيم: سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث عن أبي سعيد.. شعبة إمام وسعد تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ١/٢٨٦) وأبو أمامة صحابي.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

لقد ضم ضمة ثم فرج عنه)[1] وهي ليست ضمة عذاب إنما هي ضغطة القبر وضمته و(لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد)[2] وهي من الآلام التي تمر بالمؤمن وغيره.. مثل ألم خروج الروح.. وألم القيام من القبر.. وألم الموقف والورود على النار لكنها تخفف على المؤمن النقي.. وتشدد أحياناً حتى يتطهر من بقية ذنوبه.. فينجو برحمة الله من النار أعاذنا الله منها..

ودع ﷺ سعداً وبشر أحبابه بأنه من أهل الجنة.. ثم انصرف وهو مثقل بالحزن.. وانصرف الصحابة بقلوب حزينة وعيون تذرف الدموع على سعد.. وذكريات سعد.. بكى المهاجرون والأنصار.. وغمر طوفان الحزن الأوس على سيدهم.. ومرت الأيام طويلة وثقيلة على أم سعد.. وعلى أهل بيت سعد..

كان سيفاً لا يفل على الباطل.. في كل وقت.. وفي كل مكان.. ومن مثل سعد.. وهو الذي سافر إلى مكة معتمراً.. وهناك وحول الكعبة كاد يفتك بأبي جهل.. ولما حاول منعه أمية هدده بالموت..

---

(١) سنده صحيح رواه ابن سعد (٣/٣٤٠) والنسائي (٤/١٠٠) من طريق عبد الله بن أدريس، حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر.. وهذا إسناد كالذهب.. نافع مولى عبد الله بن عمر تابعي مشهور وثقة ثبت فقيه -التقريب (٢/٢٩٦) وعبيد الله ثقة ثبت قدمه أحمد على مالك في نافع، التقريب (١/٥٣٧) وعبد الله بن إدريس ثقة فقيه عابد من رجال الشيخين (٢/٤٠١).

(٢) سنده صحيح رواه عقبة بن مكرم (سير أعلام النبلاء - ١/٢٩١) حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سعد بن إبراهيم عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن عائشة. وصفية تابعية ثقة (التقريب - ٢/٦٠٢) ونافع مر معنا وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ثقة فاضل عابد (التقريب - ١/٢٨٦) وابن أبي عدي اسمه: محمد بن إبراهيم وهو ثقة: التقريب (٢/١٤١).

يهدد قادة مكة في عقر دارهم.. ويهددهم بقطع تجارتهم إن لم يتعقلوا ويدعوه وشأنه.. أما في بلده.. في المدينة فكان يهدد دفعاً عن عرض النبي ﷺ زعيم المنافقين بالموت.. كان مستعداً للاجهاز على رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.. رضي من رضي وسخط من سخط.. هذا هو سعد في مواجهته لجبهتي الشرك والنفاق.. أما في مواجهته لليهود فقد قال في قريظة كلمته.. كان رضي الله عنه يفعل ذلك لله وحده ودفاعاً عن دينه ورسوله ﷺ ودعوته التي يحاول المشركون والمنافقون واليهود القضاء عليها.. فرحم الله سعداً ما أعظمه.. ورضي عنه وأرضاه وحشرنا معه ومع نبيه ﷺ.. سافر سعد إلى الجنة.. لكنه ترك لليهود وغيرهم درساً.

ولحق بسعد بن معاذ فارس آخر.. وعظيم آخر.. لحق به المجاهد العابد.. الذي كاد ينسى زوجته وماله والدنيا بأسرها ليتفرغ للعبادة.. العبادة فقط.. مات الذي أعاده النبي ﷺ إلى سنته وزوجته.. والذي كان في حياته دروس.. وفي مماته دروس.

مات عثمان بن مظعون

فبكته حبيبته.. وبكته نساء... وبكاه الرجال.. وسال دمع النبي ﷺ على خدي عثمان وهو يقبّله بحزن يملأ صدره.. مات ذلك العابد الذي باع الدنيا كل الدنيا واشترى الآخرة.. فكان مشهد جنازته والأحباب من حولها مشهداً يذيب الصخر والقلوب.. ويذيب النواح.. ها هو ﷺ وقد (دخل على عثمان بن مظعون يوم مات فأحنى عليه[1] كأنه يوصيه، ثم رفع رأسه، فرأوا في عينيه أثر البكاء، ثم أحنى عليه ثانية، ثم رفع رأسه

(١) أي انحنى عليه وأكب.

فرأوه يبكي، ثم أحنى عليه الثالثة، ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه قد مات، فبكى القوم، فقال النبي ﷺ:

مه.. إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله[1]، ثم قال: اذهب عنها أبا السائب فلقد خرجت و لم تلتبس منها بشيء)[2]، كانت عائشة هناك.. حزينة مثل بقية الحاضرين.. شاهدت دموعه ﷺ وهي تسيل على خدي عثمان بن مظعون رضي الله عنه.. فقالت:

(رأيت رسول الله ﷺ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميت «وهو يبكي، وعيناه تهرقان» فرأيت دموعه تسيل على خدّيه)[3]، أي على خدي عثمان.. حزناً على ذلك الصاحب الزاهد.. القائم الصائم.. الذي سافر عن الدنيا نقياً دون أن تلوثه.. شهد بذلك النبي ﷺ.. شهد ﷺ لعثمان بالنقاء والصفاء من الدنيا.. فهل يعني أن كل من كان مثله نقول عنه إنه من أهل الجنّة.. النبي ﷺ يبكي.. يشهد لعثمان بالزهد.. زوجته تشهد له بالصيام والقيام ألا يكفي ذلك للجزم بدخوله الجنة؟.. لا

(١) طالبهم (ص) بالاستغفار لا من أجل البكاء لأنه بكى قبلهم وهو لم يحرم البكاء على الميت لكنه نهى عن رفع الصوت نواحاً على الميت ويطلق عليه بكاء أيضاً، لكنه بكاء محرم كما مر في البكاء على حمزة رضي الله عنه.

(٢) سنده قوي وقد ضعفه الشيخ شعيب حفظه الله في السير (١/١٥٦) بل جعله واهياً ومتنه منكراً.. ولعله اعتمد في ذلك على قول الإمام الهيثمي: و لم أعرفهما، يقصد شيخ الطبراني راوي الحديث ووالد شيخه.. لكن نظرة سريعة على التقريب والتهذيب تغني عن ذلك، فشيخه عبد العزيز بن عمر بن مقلاص ثقة فاضل معروف ــ التهذيب والتقريب (٢/٥٩) وكان ملازماً لحلقة أبيه الثقة ووالده له ذكر في التهذيب وغيره وأنه كان يدارس العلماء ويكفيك من تلاميذه: أبو حاتم وأبو زرعة والعقيلي قال أبو حاتم عنه: صدوق (٥/٣٩١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢/١٣٠) وصحّحه والبيهقي وغيرهما، وله شاهد بإسناد حسن يراجع في «مجمع الزوائد» (٣/٢٠).

لا يحكم لأحد - حتى عثمان - بالجنّة

كيف ذلك؟ شيء مفزع.. ومخيف.. إذا لم يحكم لعثمان فلمن يحكم..؟ العواطف مرة أخرى تثور وتستنكر وتحتج.. لكن الإسلام والتوحيد لا ينطلقان من العواطف ولا الأهواء.. وإلاّ لأصبح لكل فرد دين.. لأن كل فرد عالم من العواطف والأهواء.. الإسلام يعتني بالعاطفة يهذّبها.. ينقّيها من الشوائب ثم يطلقها أطيافاً جميلةً في الأجواء.. وحبنا لشخص لا يعني أن الحق معه أينما اتّجه.. الكل يشهد لعثمان بن مظعون بالصلاح في دنياه.. لكن النبي ﷺ غضب عندما حكم له بالجنة.. لأن في ذلك تجاوزاً لمسؤوليات الإنسان.. فيه تزييف وادّعاء..

عندما قدم عثمان بن مظعون إلى المدينة مع المهاجرين.. أقبل عليهم الأنصار بالأيدي والقلوب والبيوت.. تنازع الأنصار كلٌّ يريد أن يفوز بأخ له من المهاجرين يسكن معه في بيته.. ولم ينته ذلك النزاع الحبيب إلاّ بالقرعة.. وعندما وصل دور القرعة إلى عثمان بن مظعون.. جعلته القرعة من نصيب بيت زوج أم العلاء وهو من الأنصار رضي الله عنهم.. ولما أصابه المرض.. مرّضته أم العلاء.. وشهدت له عند رسول الله ﷺ بالصلاح لكنها شهدت له بشيء أغضب النبي ﷺ..

يا أم العلاء ماذا قلت عن عثمان رضي الله عنه..؟ تقول رضي الله عنها: (إن عثمان طار لهم في السكنى حين قرعت الأنصار على سكنى المهاجرين، فاشتكى عثمان عندنا، فمرضته حتى توفي وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ، فقلت:

رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله.

فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟

قلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟

قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري -والله- وأنا رسول الله ما يفعل بي.

قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً. قالت: فأحزنني ذلك، فنمت، فأريت لعثمان بن مظعون عيناً تجري، فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: ذلك عمله)[1] الصالح..

تقبّله الله منه وجزاه الجنّة بما عمل.. فأوحى بهذه البشرى إلى نبيه ﷺ، لكن قبل ذلك لا أحد يدري عن مصيره.. وهل هناك فوق قول النبي ﷺ: وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي.

إذاً فلا شأن لأحد بما بعد الموت.. ولا بالنوايا.. ولا يكفي ظاهر العمل للحكم على الإنسان بأنه من أهل الجنّة أو النار..

حتى في مدح الإنسان لأخيه وهو حي يأمر ﷺ بعدم الاندفاع.. ففي أحد الأيام (أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال: ويلك، قطعت عنق صاحبك.. قطعت عنق صاحبك.. مراراً، ثم قال ﷺ: من كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه)[2].

لنعد إلى عثمان بن مظعون رضي الله عنه.. ها هم يحملونه نحو البقيع.. ومعهم رسول الله ﷺ بعد أن صلّوا عليه.. وقد بيّن ﷺ لأصحابه الطريقة الأفضل للمشي مع الجنازة.. فقال:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٦٢).

(الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي يمشي خلفها وأمامها، وعن يمينها، وعن يسارها، قريباً منها)[1]، وكان ﷺ يقول:

(إذا رأى أحدكم الجنازة، فإن لم يكن ماشياً معهم فليقم «حين يراها»)[2]، وقال جابر رضي الله عنه: (قام النبي ﷺ وأصحابه لجنازة يهودي حتى توارت)[3]، (فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية، فقال: إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)[4] (فقيل: إنه يهودي، فقال: أليست نفساً)[5].

ثم إن الأمر بالقيام لم يدم.. فقد أمر الله نبيّه بالقعود.. يقول عليّ رضي الله عنه: (رأينا رسول الله ﷺ قام، فقمنا، وقعد، فقعدنا)[6].

رسول الله ﷺ لم يكن قائماً ولا جالساً.. كان ﷺ يشارك في دفن صاحبه بيديه.. ويفعل شيئاً يدلّ على مكانة عثمان في نفسه ﷺ، فبعد أن قال: (بسم الله وعلى سنّة رسول الله)[7] يقول أحد الصحابة: (لما مات عثمان بن مظعون أخرج بجنازته فدفن، أمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر،

---

(١) حديث صحيح رواه أهل السنن من طريق زياد بن جبير حدثني أبي عن المغيرة وهو إسناد صحيح جبير ووالده ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٩٥٨) والزيادة له.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٠).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٣١٢).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم - (نسخ القيام للجنازة).

(٧) سنده صحيح رواه أبو داود (٣٢١٣)... حدثنا محمد بن كثير ومسلم بن إبراهيم، حدثنا همام، عن قتادة عن أبي الصديق عن ابن عمر.. وأبو الصديق تابعي ثقة اسمه: بكر بن عمرو (التقريب - ١/١٠٦) وهمام بن يحيى ثقة من رجال الشيخين التقريب (٢/٣٢١) وقد توبع قتادة - لعنعنته - تابعه نافع عند الترمذي وابن ماجه.

فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه[1]، كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنها، ثم حملها، فوضعها عند رأسه وقال:

أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي)[2].

كل هذا الحب لعثمان بن مظعون.. كل ذلك البكاء وتلك الدموع.. ومع ذلك فلم يزد ﷺ على وضع حجر كبير ليعرف به قبر أخيه عثمان عندما يزور مقبرة البقيع.. أما من تسوّل له نفسه أن يزين قبر حبيبه أو حبيبته بالرخام أو الجص أو البناء أو القباب.. فقد قال ﷺ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سويته)[3].

ولأن (رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها)[4] فقد (نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)[5] لأن فتح باب البدعة لا يعني أبداً مرونة في العقيدة.. هو تمييع للعقيدة.. تمزيق لها.. يعني التواءً نحو الشرك.. والإسلام هروب.. كله هروب من الشرك وانحرافاته.. لقد شدّد ﷺ في قضية القبور حتى لقد (نهى أن يكتب على القبر شيء)[6] إن

---

(١) في الحديث بعد هذه الكلمة (قال كثير: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ.

(٢) سنده حسن رواه أبو داود من طريق: كثير بن زيد المدني، عن المطلب.. عن أحد الصحابة.. (٣٢٠٦) والمطلب صحابي انظر: التقريب - (٢/٢٥٤) وكثير بن زيد ثقة وجرحه لا ينهض أمام توثيقه - التهذيب (٨/٤١٤).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (الأمر بتسوية القبور).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (٩٦٨).

(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٩٧٠).

(٦) حديث صحيح انظر أحكام الجنائز للإمام الألباني (٢٠٤).

الكتابة في نظر من لا يدرك عواقب الأمور شيء بسيط.. لكنه في الحقيقة يفضي إلى كتابة المدائح.. والأشعار.. والآيات.. والمبالغات وأشياء تجعل من القبور تحفاً أو معارض.. أو مزارات لذاتها.. ولما ذكرت أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ ما رأته في الحبشة من نقوش جميلة وصور عجيبة داخل كنيسة هناك يسمونها «مارية» قال ﷺ: (أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[1]، وقال ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[2] لعنهم الله رغم أن بعضهم كان يريد تكريم نبيّه بإقامة ذلك المسجد أو المعبد أو الكنيسة.. لعنهم الله لأنهم استمدّوا العقيدة من العواطف.. من التخاريف.. من غلوّهم وتطرّفهم في أنبيائهم.. والعقيدة وحي متى ما خالطها غير الوحي فسدت.. وحب النبي وتكريمه لا يكون بالغلوّ والتطرّف.. بل بتنفيذ ما جاء به ذلك النبي.. بحفظه ونقله بأمانة دون زيادة أو نقصان.. لأن الزيادة دين بشري.. والنقصان تشويه للوحي.. والزيادة والنقصان أورام خبيثة محتقنة بالكفر والشرك والبدع.. وما جاء ﷺ إلاّ لاستئصال تلك الأورام واجتثاث الشرك وجذوره.. والإسلام جاء ليبتدع الإنسان ويبدع في شؤون الدنيا زراعةً وصناعة وتجارةً مستمداً ذلك الإبداع وموجهاً بالوحي النقي.. فإذا ابتدع الإنسان في الدين والدنيا تمزق بين اتجاهين.. فإما أن يكون متطرفاً دينياً أو يكون رقماً في آله لا ضمير لها ولا قيم.. واليهود ممزقون لذلك.. فما هي حالهم الآن بعد موت سعد بن معاذ..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٣٠).

اليهود بعد موت سعد بن معاذ

أشد رعباً وخوفاً من قبل إلا من آمن منهم وامتلأ قلبه برحابة الإيمان وراحته.. فالسيف الذي تركه سعد لا يزال محمولاً بكف فارس آخـــر.. وهو على أتم الاستعداد لأي خيانة جديدة مهما كان حجمها..

لكن ماذا عن رأس الفتنة.. ومحرض الأحزاب سلام بن أبي الحقيق.. وحيي بن أخطب الذي أخذ على نفسه عهداً بمعاداة النبي ﷺ ومحاربتـــه وعناده ما تردد الهواء في صدره.. رغم معرفته وتأكده من نبوته.. يبدو أن حيي بن أخطب قد قتل مع من قتل من بني قريظة.. أما ســـلام بـــن أبي الحقيق فقد ورط الأحزاب ثم خانهم جميعاً وهرب.. بل خان يهود قريظة ثم انسل كالحية إلى (حصن له بأرض الحجاز)[1] في خيبر بالتحديد.. فهل سيفلت من العقاب الذي حل ببني قريظة.. إنه يستحق أكثر من عقاب.. فهو الذي خطط.. ورتب وحرض.. ولما اشتبك أعداؤه وحلفاؤه تـــرك الجميع وهرب.. وهو في حصنه الآن.. بين نسائه وأصـــدقائه يشـــرب ويتنعم ويحلم بدماء محمد ﷺ وأصحابه.. وانهيار دولتهم في أقرب فرصة..

لكن النبي ﷺ لن يترك هذا المجرم وأحلامه.. إنه آفة خطيرة تسري في العقول.. وتنتشر في الهواء.. وتلوث الحياة.. لذلك فقد أصدر الـــنبي ﷺ أمراً بالقضاء على تلك الآفة.. أصدر أمراً بـــ:

قتل سلام بن أبي الحقيق

وكان أكثر المتحمسين لذلك فرسان الخزرج.. الـــذين أرادوا منافســـة إخوانهم الأوس في نصرة الله ورسوله.. يقول البراء بن عازب رضي الله عنه:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩).

(بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، «عبد الله بن عتبة في ناس معهم» وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه:

اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل.

فأقبل حتى دنا من الباب «فانطلق رجل منهم فدخل حصنهم.

قال: فدخلت في مربط دواب لهم، وأغلقوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حماراً لهم فخرجوا «بقبس» يطلبونه، فخرجت فيمن خرج، أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا» «فخشيت أن أعرف، فغطيت رأسي ورجلي كأني أقضي حاجةً، ثم نادى صاحب الباب:

من أراد أن يدخل فليدخل، قبل أن أغلقه».

ثم تقنع بثوب كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس فهتف به البواب:

يا عبد الله.. إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت «في مربط حمار عند باب الحصن» فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق[1] على وتد، «ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفاتيح الحصن في كوة فأخذته ففتحت به باب الحصن» فقمت إلى الأقاليد[2]، فأخذها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علالي[3] له، «فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت

(١) أي المفاتيح وهي ما يغلق بها الباب.

(٢) أي المفاتيح أيضاً.

(٣) غرفة.

ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم» فلما ذهب عنه أهل سمره «هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة.. خرجت» صعدت إليه «في سلم» فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نـــذروا بي[1] لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم «قد طفـــئ سراجه» وسط عياله لا أدري أين هو من البيت.

فقلت: يا أبا رافع.

فقال: من هذا؟

فأهويت نحو الصوت[2] فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهـــش، فمـــا أغنيت شيئاً، وصاح فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلـــت إليه، «كأني أغيثه».

فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ «مالك يا أبا رافـــع.. وغـــيرت صوتي.

فقال: ألا أعجبك لأمك الويل».

«قلت: ما شأنك».

فقال: لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

«فعمدت لـــه» فأضربه ضربة أثخنته و لم أقتله، «فصاح، وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهـــره» ثم وضعت ضبيب[3] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره «ثم تحاملت عليـــه

(١) أي إن علموا بي وأنذر بعضهم بعضاً.

(٢) توجهت نحو مصدر الصوت.

(٣) ربما يعني حرف حد السيف.

حتى قرع العظم» «ثم أنكفئ عليه حتى سمعت صوت العظم» فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي «فانخلعت رجلي» فعصبتها بعمامة، «ثم أتيت أصحابي أحجل[1]، فقلت لهم: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية» ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك، قام الناعي على السور.

فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

«فقمت أمشي ما بي قلبة[2]، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ﷺ» فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء[3]، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ، فحدثته، «فبشرته».

فقال لي: ابسط رجلك.

فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط)[4].

أكرم الله عبدالله بن عتيك بتلك المسحة.. بعد أن مسح عن وجه الأرض ذلك العفن المسمى «سلام بن أبي الحقيق» كان عبد الله رضي الله عنه قلباً من حديد.. وأعصاباً من فولاذ.. نشر الرعب في ذلك الحصن.. وفي قلب كل يهودي.. لقد اهتز كل شيء حول المدينة وتزلزل.. والمدينة هي الحضن الدافئ.. والأمن الحاني التي يقصدها من استبد بهم الخوف..

(١) يرفع رجلاً ويقف على الأخرى من العرج.

(٢) أي أنه لم يشعر بالألم لشدة ما هو فيه من الأمر.

(٣) أي أسرعوا.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٣٩) والزوائد له في (٤٠٤٠) و(٣٠٢٢).

ويأوي إليها من تطارده وحوش الهموم والقلق من سوء المصير.. أحد الهائمين على وجوههم.. الموغلين في الشرك والدماء.. أحد الذين قدسوا صنم اللات.. وعبدوها وسدنوها.. وحاربو الإسلام ونبيه ﷺ والمسلمين من أجلها.. داهية تتضاءل أمامه الصعاب.. وتنفرج لحيلته المضايق.. وقع في ورطة أدهى منه فلم يجد سوى الإسلام ومحمد ﷺ مخرجاً منها.. هذا الداهية الثقفي.. المنحدر من جبال الطائف التي تضيق باللات.. يدعى المغيرة بن شعبة.. جمع الشجاعة والدهاء.. وعمه زعيم الطائف واسمه: عروة بن مسعود الثقفي.. وقد كلفه دهاء المغيرة وحيلته الشيء الكثير.. في ورطة كان المخرج منها:

إسلام المغيرة بن شعبة

فقد سافر المغيرة وهو مشرك مع قوم مشركين.. ويبدو أنه قد صدر من هذه المجموعة ما أثار المغيرة وأهانه.. فغلى الانتقام والغضب والحيلة في رأسه.. فأخذ أموالهم وتركهم طعاماً لذئاب الصحراء وطيورها وترك ديتهم لعمه عروة.. وعندما أحس بضيق الدنيا في وجهه أبصر طريقه نحو النبي ﷺ.. يقول أحد الصحابة: (كان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)[1] فالله طيب لا يقبل إلا طيباً.. والغدر والخيانة ليست من صفات المؤمنين.. لم يقره النبي ﷺ على قتله وسلبه لأولئك القوم رغم أنهم كانوا مشركين.. والفرق بين ما فعله المغيرة وما فعله عبد الله بن عتيك بسلام بن أبي الحقيق.. أن سلاماً كان قد حرض على حرب المدينة وخطط لها وغدر بأهلها.. ثم خان المسلمين والمشركين

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

وهرب إلى حصنه في أرض خيبر وكأنه لم يفعل شيئاً.. إن خطر أمثال ابن أبي الحقيق أشد من خطر جيش بأكمله.. وخيانته لا يمكن أن تتوقف مادام يعتبرها هو وأتباعه ديناً يتعبد الله بفعله..

وإذا كان الطائف قد ضاق بالمغيرة.. فمكة تضيق الآن بداهية آخر.. وشجاع آخر وهو الآن يهرب منها. إنه:

عمرو بن العاص يهرب من مكة

كَلَّ دهاؤه وتفتت على حافة الخندق.. وعاد مكسوراً مع من عاد من قومه إلى مكة.. تأمل المكان الذي أوصله إليه شركه ودهاؤه.. فوجده بعيداً جداً عن المنطق.. وأدرك أن هذا النبي وهذا الدين أعظم من أي دهاء.. وأقوى من أي كيد.. توجه عمرو بن العاص وهو الرأس في قومه إلى حيث يلتجئ الضعفاء والمساكين.. توجه محمولاً بالعناد والحيرة إلى الحبشة حيث يلتجئ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه بعيداً عن أيدي قريش.. ركب عمرو بن العاص سفينة قذفته في أرض الحبشة.. وأقام هناك إقامة متواضعة مقارنة بإقامة المؤمنين الذين يحظون بحب وحماية النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه.. وفي أحد تلك الليالي الحبشية لمح عمرو بن العاص جعفراً رضي الله عنه فلحق به.. يقول عمرو:

(فلما كان ذا عشية لقيته في السكة، فنظرت خلفه، فلم أر خلفه أحداً، فأخذت بيده.. فقلت:

تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فغمزني، وقال: أنت على هذا.

وتفرقنا.. فما هو إلا أن أتيت أصحابي، كأنما شهدوني وإياه، فما

سألوني عن شيء حتى أخذوني فصرعوني، فجعلوا على وجهي قطيفة، وجعلوا يغمونني بها، وجعلت أخرج رأسي أحياناً حتى انفلت عرياناً، ما علي قشرة، ولم يدعوا لي شيئاً إلا ذهبوا به، فأخذت قناع امرأة عن رأسها فوضعته على فرجي، فقالت لي: كذا. وقلت: كذا -كأنها تعجبت مني-.

وأتيت جعفراً فدخلت عليه بيته، فلما رآني قال: ما شأنك؟

قلت: ما هو إلا أن أتيت أصحابي، فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة، غموني بها، أو غمزوني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية، أخذته من رأسها.

فقال جعفر: انطلق. فلما انتهينا إلى باب النجاشي، نادى: ائذنوا لحزب الله، وجاء آذنه، فقال: إنه مع أهله.

فقال: استأذن لي عليه، فاستأذن له عليه، فأذن له، فما دخل قال: إن عمراً قد ترك دينه واتبع ديني، قال: كلا.

قال: بلى. فدعا آذنه فقال: اذهب إلى عمرو، فقال: إن هذا يزعم أنك تركت دينك واتبعت دينه. فقلت: نعم. فجاء إلى أصحابي حتى قمنا على باب البيت، وكتبت كل شيء حتى كتبت المنديل، فلم أدع شيئاً ذهب إلا أخذته، ولو أشاء أن آخذ من أموالهم لفعلت.

ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفينة مسلمين)[1].

---

(١) سنده حسن رواه البزار (زوائد - ٢/٢٩٧): حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن معاذ، حدثنا ابن عون، عن عمير بن إسحاق، حدثني عمرو بن العاص.. وقد مر معنا الحديث في المجلد الأول.. عمير بن إسحاق حسن الحديث.. قال ابن معين ثقة، وقال مرة: ليس =

ها هي سفينة أخرى محملة بالإيمان.. قادمة من اليمن تحمل رجـــالاً يقصدون المدينة.. لكن ربانها لم يكن بالمهارة المطلوبـــة.. وبـــدلاً مـــن تسلمهم المياه إلى ساحل على قارة آسيا قذفتهم على إحـــدى شـــواطئ أفريقيا.. لكن لا بأس.. فإن في الحبشة نسيماً عطراً يدعى النجاشي رضي الله عنه.. وفيها أيضاً أحبة لرسول الله ﷺ لعل أشهرهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزوجته المجاهدة الصابرة أسماء بنت عميس رضي الله عنها.. ها قد نزل أهل اليمن من السفينة.. تعالوا لنقترب منها ومنهم.. نتعرف على هذه الوجوه التي أرهقها البحر والسفر..

وأبحر بها الحب والإيمان.. كان من بين هؤلاء المسافرين الذين زادوا على الخمسين.. ثلاثة أخوة من اليمن الطيب:

أبو رهم وأبو بردة وأبو موسى في الحبشة

يقول أصغرهم سناً وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

(بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم أحدهما: أبو بردة، والآخر أبو رهم إما قال: في بضـــع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنـــا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده.

فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فـــأقيموا

=

بشيء أي قليل الحديث، وقال: النسائي: لا بأس به. انظر تعليقي على التقريب. وعبد الله ابن عون ثقة ثبت فاضل - التقريب (٤٣٩/١) ومعاذ ثقة متقن من رجال الشـــيخين - التقريب (٢٥٧/٢) وشيخ البزار ثقة ثبت يعرف بـــ(الزمن) التقريب (٢٠٤/٢).

معنا، فأقمنا معه)[1] على أرض الحبشة الرحبة.. في ضيافة ملكهم الكريم العادل: النجاشي رضي الله عنه.. وعلى تلك الأرض الطيبة لم تصفُ الحياة للمؤمنين.. لكنها كانت بعيدة عن مخالب قريش على كل حال.. فقد هاجرت إلى الحبشة مع أول من هاجر فتاة مؤمنة.. تمرد إيمانها على زعامة أبيها وسلطته.. فأخذت بيد زوجها إلى أول مركب وأبحرت إلى الحبشة.. هذه الفتاة.. هي بنت زعيم قريش ومكة.. بنت أبي سفيان.. واسمها «رملة» وتكنى بـ(أم حبيبة).

أم حبيبة تبكي في الحبشة

حزينة على أرض الحبشة.. بعيدة عن مكة والمدينة.. لم يكن البعد وحده الذي يعصف بقلب أم حبيبة.. فزوجها الآن طريح الفراش.. مريض وقد اشتد به المرض.. وعندما أحس بأنامل الموت تدنو منه وتدب في أوصاله.. همس بمن حوله برسالة إلى النبي ﷺ.

رسالة قبل الموت

بعث بها عبيد الله بن جحش الذي هاجر مؤمناً[2] إلى أرض الحبشة.. إلى النبي ﷺ يوصيه بأحب الناس إلى قلبه.. يوصيه بالحبيبة أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان».

تقول عائشة رضي الله عنها:

(هاجر عبيد الله بن جحش بأم حبيبة بنت أبي سفيان وهي امرأته إلى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٣٦).

(٢) روي أن عبيد الله مات نصرانياً على أرض الحبشة مرتداً عن الإسلام، لكنني لم أجد حديثاً صحيحاً يثبت ذلك، إنما وجدت العكس وهو الحديث التالي والله أعلم.

أرض الحبشة، فلما قدم أرض الحبشة مرض، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ)[1].

فوصلت الوصية إليه ﷺ.. فبعث الرد مع أحد المؤمنين القادمين على هذا القارب الذي يتهادى فوق مياه البحر نحو سواحل الحبشة.. إنه يرسو الآن حاملاً لأم حبيبة البشرى والعزاء.. فقد انقضت أيام حدادها وأحزانها.. وجاء صاحب رسول الله ﷺ يخطبها له ﷺ.. استبشرت أم حبيبة بهذا الخبر.. وفرح النجاشي.. فقد وجدها فرصة ولا أنسب ليقدم هدية للنبي ﷺ:

النجاشي يهدي للنبي ﷺ مهر أم حبيبة

مهرها كله.. هدية من النجاشي للنبي ﷺ.. ثم أرسلها مع صحابي كريم اسمه: شرحبيل بن حسنة.. عن ذلك تقول أم حبيبة رضي الله عنها:

(أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش «وكان أتى النجاشي» فمات بأرض الحبشة «وأن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة وإنها بأرض الحبشة» فزوجها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف «ثم جهزها من

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان (الزوائد - ٣١٢) أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا سعيد بن كثير بن عفير، حدثنا الليث عن ابن مسافر عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة.. وعروة وابن شهاب الزهري مرا معنا كثيراً.. أما ابن مسافر فاسمه: عبد الرحمن بن خالد بن مسافر المصري - أمير مصر - قال تلميذه الذهلي عنه: ثبت. قال ابن معين: كان على مصر وكان عنده عن الزهري كتاب فيه مائتا حديث أو ثلاث مائة كان الليث يحدث بها. وقال العجلي والدارقطني: ثقة وقال ابن يونس: كان ثبتا في الحديث (التهذيب - ١٦٢/٦) وقال الحافظ: صدوق والأولى أن يقول: ثقة. وسعيد بن كثير بن عفير صدوق عالم بالأنساب انظر التقريب (٣٠٤/١) وهو من شيوخ البخاري ومسلم، وبقية الرجال أئمة ثقات.

عنده» وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل بن حسنة «وجهازها كله من عند النجاشي»)[1] عبرت أم حبيبة البحر تحمل مهرها والفرح.. عبرت الحزن والغربة.. وجعلها الله من أمهات المؤمنين.. من سيدات نساء العالم والجنة.. من حبيبات النبي ﷺ.. وصار لها بدل الهجرة هجرتين.. وأزاح ذلك العرس ما بها من شقاء وغربة وأحزان.. وصلت رملة ففرح بها النبي ﷺ.. وكان قد أعد لها مترلاً تسكنه.. تشاركه حياته ومعاناته وأفراحه.. أما والدها أبو سفيان فيبدو أن الخبر أفرحه.. لذلك لم يصدر منه ما ينبئ عن استنكاره لذلك الزواج.. فهو يعتبر النبي ﷺ زعيماً لا مثيل له.. وإنه لشرف أن يكون صهراً لهذا الزعيم..

ولئن كان زواج النبي ﷺ من رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها قد أبهج والدها إلا أن النبي ﷺ قد عزم على ما يكدر صفوه.. ويضيف إلى هزيمته عند الخندق هزيمة أخرى.. فـ:

النبي ﷺ يريد أداء العمرة

وهذا من حقه.. ومن حق أي عربي.. بل من حق أي إنسان أن يزور بيت الله ويطوف به.. لكن قريشاً تفكر بطريقة مختلفة.. فهي لا تنظر إليه حقاً من حقوق خصمها الذي يجب عليها أن تؤمن له الحماية ما دام على أرضها.. وهذه من صفات قريش الكريمة المحسوبة لها.. لكنها

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود (٢١٠٧) واللفظ له وأحمد (٦/٤٢٧) والزوائد لـه.. ورواه النسائي كلهم: حدثنا ابن المبارك، حدثنا معمر، عن الزهري عن عروة عن أم حبيبة.. وعروة والزهري إمامان وتابعيان ثقتان مرا معنا كثيراً.. ومعمر بن راشد تلميذ الزهري ثقة ثبت فاضل - التقريب (٢/٢٦٦) أما تلميذه وشيخ أحمد عبد الله بن المبارك فهاك ما قاله ابن حجر ملخصاً سيرته العطرة: ثقة، ثبت، فقيه، عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير - التقريب (١/٤٤٥).

تنظر إلى هذه العمرة على أنها هزيمة يلحقها محمد ﷺ وأصحابه بها كسابقاتها.. كيف يطوف هو وأصحابه وقد طردوهم بالأمس من مكة.. كيف يأتون مكة دون إذن قريش.. أين مكانة قريش وأصنامها..؟

سؤال ضاقت به مكة..

أما رسول الله ﷺ فلم يبال برأي قريش.. لقد أراه الله في منامه رؤيا.. ورؤيا الأنبياء وحي.. وقد قص النبي ﷺ على أصحابه تلك الرؤيا.. وبشرهم بأنهم سيطوفون ببيت الله بعد طول غياب عنه.. بعد خمس سنوات من الحرمان.. يقول عمر بن الخطاب: إن النبي ﷺ (كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)(١) فتهللت وجوه الصحابة.. وأفرحهم الخبر.. وأعدوا للسفر عدته.. وأطلق اسم (الحديبية) على تلك العمرة فيما بعد. فـ:

متى كانت عمرة الحديبية

وماذا جرى على أرض الحديبية البعيدة عن المدينة.. والتي تقترب من مكة بمسافة ٢٢ كيلاً..

خرج ﷺ وأصحابه نحو مكة متعمرين.. يقول ابن عمر:

(إن رسول الله ﷺ خرج متعمراً)(٢) و(كانت الحديبية سنة ست بعد مقدم النبي ﷺ المدينة في ذي القعدة)(٣).

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢) وهو حديث طويل.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) سنده قوي رواه البيهقي (٤/٩١) لكنه مرسل أرسله نافع لكن يقويه ما ذكره الحافظ في الفتح: (وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع). وقد ثبت أن عمرة القضاء بعد عمرة الحديبية بعام.

يقول أنس رضي الله عنه: (عمرة الحديبية في ذي القعدة)[1].

ولم تقتصر دعوته ﷺ للخروج على أصحابه.. بل دعا الأعراب المتناثرين حول المدينة لمصاحبته.. علَّ العمرة تذيب ما ببعضهم من جلافة وجفاء.. لكن بعض تلك الجلافة كان صدأً لا يذيبه سوى اللهب..

موقف بعض الأعراب من الخروج للعمرة

موقف كالعار.. فبعض الأعراب تصحر من رأسه حتى قدميه.. فهم يتلهفون للنهب والسلب والغنيمة الباردة.. وحساباتهم لا تعدو ذلك.. وهم وإن ادعوا الإسلام إلا أن أرقام قريش ما زالت تخيفهم.. وحشود الأحزاب مازالت في نظرهم تكمن خلف الأكمات والهضاب.. أما نصر الله ووعده والثقة برسوله ﷺ ووحي الله له فلا رصيد لها في تلك النفوس المتكلسة.. إنها سراب في الصحراء الممتدة داخلهم.. لقد ظنوا أن قريشاً ستفني محمداً ﷺ وأصحابه فلا داعي للمجازفة في معركة معروفة النتائج سلفاً.. ولذا فقد ادعوا أنهم مشغولون بأموالهم وأهلهم وشؤون دنياهم.. وطلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم وأن يسامحهم عن المسير معه نحو مكة.. لكن الوحي نزل يفضح سوء ظنهم بالله ورسوله.. ويعري حقيقتهم.. ويكشف عارهم..

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٧٧٨).

وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾[1] آيات عظيمات.. آيات تخترق أعذار بعض الأعراب الواهية لتنزع منها جبنهم وأسرار تخلفهم.. ولابد أن المنافقين شاركوهم الرأي والتخلف.. لم يلح النبي ﷺ عليهم.. فلا خير فيهم ولا في صحبتهم.. إنه ليس بحاجتهم عند جلاد السيوف والعراك.. فكيف يكون اليوم بحاجتهم وهو لا يريد سوى السلام وزيارة بيت الله وأداء العمرة فيه.. فقد (خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد القتال، وساق معه الهدي سبعين بدنة)[2] ساقها معه من المدينة لينحرها لله في مكة.. فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له.. فكذلك النحر لا يجوز لأحد كائناً من كان إلا الله وحده لا شريك لـــه.. يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[3] ولم يأخذ ﷺ الهدي معه فقط.. بل أخذ السلاح أيضاً..

لم يأخذه ليقاتل به بل احتياطاً.. فالطريق طويلة وشاقة وقد تباغت قريش أو أعوانها من هنا أو هناك.. خرج ﷺ من المدينة وكان عدد الذين خرجوا مع النبي ﷺ يصل إلى ألف وأربعمائة.. توجه إليهم النبي ﷺ بقلبه وحديثه.. وبشرهم ببشرى تتطامن أمامها كنـــوز الـــدنيا ومســـاحاتها

---

(١) سورة الفتح: الآيات ١١-١٤.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد (٣٢٣/٣) حدثنا الزهري عن عروة، عن المسور ومروان.. وسند ابن إسحاق هو سند البخاري في روايته لقصة الحديبية وقد صرح ابن إسحاق هنا بالسماع.

(٣) سورة الكوثر: الآيات ١-٣.

وألقابها.. جابر بن عبد الله رضي الله عنه أحدهم.. أحد الذين شملتهم تلك البشرى.. يحدث الدنيا فيقول: (قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأربعمائة)[1].

ويقول أحد هؤلاء وهو البراء رضي الله عنه: (كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة)[2] وقال كل من معقل بن يسار والمسيب بن حزن رضي الله عنهما: (ألفاً وأربعمائة)[3] وقد يكون العدد أكبر من ذلك.. أي أن عدد الصحابة الذين خرجوا معه ﷺ قد يبلغ ألفاً وخمسمائة صحابي.. قال أحد أبناء الصحابة الثقات واسمه: سعيد بن المسيب بن حزن عندما قال له أحد أصحابه: (بلغني أن جابر بن عبد الله يقول: كانوا أربع عشرة مائة، قال: نسي جابر كانوا ألفاً وخمسمائة)[4] (وهَمَ جابر رحمه الله وهو حدثني أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة)[5] توجهوا بمطاياهم وقلوبهم خلف رسول الله ﷺ نحو بيت الله الكريم.. وبعد أن قطعوا مسافة.

توقف بهم النبي ﷺ في مكان يدعى «ذو الحليفة» وكان:

التوقف بذي الحليفة

ضرورياً لأداء العمرة.. فالعمرة طواف حول الكعبة.. ومشي بين الصفا والمروة.. وقبل ذلك إحرام من مكان يقال له الميقات.. وقد حدد ﷺ لكل بلد ميقاتها.. بل حدد لجهات الدنيا كلها أماكن تحرم منها.. وميقات أهل المدينة منها هو «ذو الحليفة» يقول أحد الصحابة رضي الله

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٣) مسلم الإمارة وابن سعد (٢/٩٩) واللفظ له.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) وخليفه (٨١) واللفظ له.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٣) والبيهقي واللفظ له (٤/٩٧).

عنهم: (إن النبي ﷺ وَقَّتَ لأهل المدينة: ذا الحليفة، ولأهل الشام: الجحفة، ولأهل نجد: قرن المنازل، ولأهل اليمن: يلملم، هن لأهلهن، ولكل آت عليهن من غيرهن «من غير أهلهن» فمن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ[1] حتى أهل مكة من مكة)[2].

والإحرام هو أن ينوي المعتمر أو الحاج بدء ممارسة العمرة أو الحج أو العمرة والحج معاً.. والأفضل أن يكون لباس المحرم عبارة عن قطعتين من القماش فقط.. تسمى إحداهما إزاراً وتلف حول أسفل الجسم.. وأما الأخرى فتسمى رداءاً وتلف حول أعلى الجسم.. ولكن بطريقة خاصة حتى نهاية الطواف.. وتسمى هذه الطريقة بـ (الاضطباع) والاضطباع هو أن يلف الرداء حول الجسد مع تغطية الكتف الأيسر وكشف الكتف الأيمن.. أي إدارة الرداء من تحت الإبط الأيمن.. وهناك ملابس حرم النبي ﷺ لبسها على المعتمر والحاج منها: القميص والعمامة والسراويل والبرانس وهي مثل الملابس المغربية فيها غطاء للرأس.

وصل ﷺ إلى الحديبية.. فقلد ما معه من الهدي. ري وضع على ىقابها شيئاً لتعرف أنها هدي.

وأشعر الهدي وعلمه بعلامة يعرف بها أنه هدي لله وأحرم بالعمرة.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (خرج النبي ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، حتى إذا كان بذي الحليفة، قلد الهدي، وأشعره، وأحرم بالعمرة)[3] (وصلى بها)[4].

---

(١) أي من كانت بلده أقرب من جميع المواقيت إلى مكة فيحرم من مكانه.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٥٣٠).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٦٩٤) (١٦٩٥).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

وأحرم معه بقية الصحابة رضي الله عنهم إلا صحابياً واحداً.

اسمه: الحارث بن ربعي ويعرف بـ «أبي قتادة» رضي الله عنه.. في هذه الأثناء انطلق أحد الصحابة رضي الله عنهم مسرعاً نحو مكة لأداء العمرة وشيء آخر.. فقد صدر:

أمر النبي ﷺ برصد تحركات قريش

وقد اختار ﷺ لهذه المهمة رجلاً مناسباً اسمه: بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي.. فخزاعة وكعب قبيلة واحدة.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (فلما أتي ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بالعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ)[1] وسار بشر يرصد تحركات قريش ويجمع أخبارها..

أما أبو قتادة فلم يأمره ﷺ بالإحرام.. لكنه أمره بمهمتين:

مهمتان لأبي قتادة

الأولى: جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار لتوزيعها على من يستحقونها.

الثانية: التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان بين المدينة ومكة، ويبدو أنه قريب من ساحل البحر الأحمر ويسمى هذا المكان: (غيقة).

انطلق أبو قتادة ومن معه ينفذون أوامر نبيهم ﷺ.. وفي الطريق رأى هؤلاء الصحابة شيئاً لا يقدر على نيله إلا أبو قتادة أما هم فلا يجوز لهم ذلك بل اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات.. فماذا فعل أبو قتادة ولماذا يضحك أصحابه؟ أبو قتادة رضي الله عنه يقول:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨) (٤١٧٩)

(انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم أحرم)[1] وكان سبب عدم إحرام أبي قتادة هو ما يقوله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري على الصدقة وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه محرمين حتى نزلوا بعسفان)[2] لكن خبراً وصل إلى النبي لله ﷺ جعله يوجه أبا قتادة إلى مكان يقال له: (غيقة) حيث تتواجد هناك قوة من المشركين تستعد للانقضاض على النبي ﷺ وأصحابه وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة.

يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (انطلقنا مع النبي ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأُنبئنا بعدوٍ «بغيقة» فتوجهنا نحوهم)[3] (فقال ﷺ: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي. فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبا قتادة لم يحرم)[4] وقد تركوا (النبي ﷺ بالقاحة)[5] وهو مكان بين مكة والمدينة.. (فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمرُ وحش)[6] (فلما رأوه تركوه)[7] (فجعل بعضهم يضحك إلى بعض)[8].

(وأنا مشغول أخصف نعلي، فلم يؤذنوني به وأحبوا لو أني أبصرته

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢).

(٢) رواه البزار وابن حبان من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن عبيد الله بن عمر عن عياض بن عبد الله بن سعد، عن أبي سعيد.. (١٨/٢-زوائد) (٢٨٩/٩): عياض تابعي ثقة - التقريب (٩٦/٢) وعبيد الله مثله وتلميذه ثقة كذلك - التقريب (٤٦٥/١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٨) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٢).

فالتفت فأبصرته)[1] (وأنا رجل حلٌّ على فرسي، وكنت رقاءً على الجبال، فبينا أنا على ذلك إذ رأيت الناس متشوقين لشيء، فذهبت أنظر، فإذا هو حمار وحش، فقلت لهم: ما هذا؟ قالوا: لا ندري.

قلت: هو حمارٌ وحشيٌ.

فقالوا: هو ما رأيت)[2] (واستعنت بهم، فأبوا أن يعينوني)[3].

نهض أبو قتادة رضي الله عنه (فركب فرساً يقال له: الجرادة)[4].

يقول أبو قتادة: (فقمت إلى الفرس فأسرجته، ثم ركبت، ونسيت السوط والرمح، فقلت لهم: ناولوني السوط والرمح. فقالوا: لا، والله لا نعينك عليه بشيء، فغضبت، فنزلت، فأخذتهما، ثم ركبت، فشددت على الحمار، فعقرته)[5] (فأتيت إليهم فقلت: قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه. فحملته حتى جئتهم به، فأبى بعضهم، وأكل بعضهم. فقلت: أنا أستوقف لكم النبي ﷺ)[6] (فطلبت النبي ﷺ، أرفع فرسي شأواً وأسير شأواً، فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل.

قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بـ: تعهن[7] وهو قائل السقيا[8].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢١).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٠٧).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

(٧) مكان بين مكة والمدينة.

(٨) أي أنه سيقيل في مكان يقال له السقيا.

فقلت: يا رسول الله، إن أهلك «أصحابك» يقرؤون عليك السلام، ورحمة الله، إنهم قد خشوا أن يقتطعوا دونك فانتظرهم «ففعل»[1].

قلت: يا رسول الله، أصبت حماراً وحشياً، وعندي منه فاضلة، فقال للقوم: كلوا -وهم محرمون-)[2] لأنهم لم يشاركوا في صيده.. وشارك ﷺ أصحابه في تلك الأكلة.. حيث يقول أبو قتادة رضي الله عنه: (وخبأت العضد معي، فأدركنا النبي ﷺ، فسألناه عن ذلك، فقال: معكم منه شيء؟ فقلت: نعم.

فناولته العضد فأكلها حتى نفدَها وهو محرم)[3] ثم مكث ﷺ وأصحابه بانتظار أصحاب أبي قتادة الذين كانوا يسيرون ويتساءلون (أنأكل لحم صيد ونحن محرمون)[4] لقد (أكلوا، فندموا، فلما أدركوه)[5] ﷺ سألوه فقال ﷺ: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا. قال: فكلوا ما بقي من لحمها)[6]. (كلوا فهو طعم أطعمكموه الله)[7] فأكل الصحابة واطمأنت قلوبهم بالحلال.. ثم واصلوا مع رسول الله ﷺ المسير نحو مكة لأداء العمرة في بيت الله الحرام.. حتى وصلوا إلى مكان يقال له: عسفان.. عندها قرر النبي ﷺ:

---

(١) ما بين الأقواس الصغيرة عند البخاري (١٨٢٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٢١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٧٠).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٥٤).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٨٢٤).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٥٤٩٢).

التوقف في عسفان ووصول الجاسوس

توقف ﷺ للاستراحة فالسفر شاق وطويل.. والليل يخيم بهدوء على تلك الأرض.. والصحابة ينسابون في عالم النوم بعد أن فرغوا من مناجاة خالق الكون في صلاة خاشعة.. وفجأة تطاير النوم عنهم من هنا وهناك.. فقد تساقطت قطرات المطر عليهم فأيقظتهم.. وأفرحتهم فهم بحاجة إلى الماء كحاجتهم إلى النوم.. لكن النبي ﷺ أحس بحاجة أصحابه إلى ما هو أهم من الاثنين.. لقد أحب أن يتمتعوا بالمطر والتوحيد معاً.. لذلك فقد تحدث إليهم بعد أن أدوا صلاة الفجر.. تحدث إليهم عن المطر بلغة كالمطر..

يقول زيد بن خالد الجهني وهو أحد الصحابة الذين أصابهم ذلك المطر: (خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر بي:

فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي وأما من قال: مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي)[1] إن الكواكب لا تضر ولا تنفع.. والتعلق بها شرك.. إنها خلق من خلق الله.. وقد سخر الله هذه النجوم ليستغلها الإنسان ويستفيد منها.. ليكتشفها ويتفكر في خلقها.. أما المشركون المتخلفون فقد أهانوا عقل الإنسان وانحطوا به إلى مستوى يخضع فيه العقل لجلاميد الصخور ورماد اللهب.. لقد نزل القرآن ليحرر هذا العقل المكبل بالخرافة والخوف.. ليطلقه في الكون.. نزل القرآن يقدم النجوم والشمس والقمر والبحار وكل ما في

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٤٧).

السموات والأرض هدايا للإنسان.. يستمتع بها.. ينعم بها.. يستغلها في رفاهية البشرية جميعاً.. القرآن يقدم الكون للإنسان في علبة هدايا.. يقدمه بصورته الحقيقية التي لا تعني سوى التوحيد.. ها هو القرآن يخاطب الإنسان ليحرره من الخوف والخرافة فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ..﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾..﴾[2].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[3].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[4].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[5].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[6].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[7].

القرآن إذاً يجعل من الإنسان سيداً في هذا الكون.. وما حوله خدم مسخرون.. فلماذا يتنازل عن سيادته ليصبح عبداً لحجر أو نهر أو شمس أو حطب متقد.. هذا هو الفرق بين الإنسان موحداً سيداً في الكون وبين الإنسان مغلولاً بالشرك والأوهام..

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٤.

(٤) سورة النحل: الآية ١٤.

(٥) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٧) سورة الجاثية: الآية ١٣.

المطر من عند الله والنجوم من عند الله.. ومتى ما اعتقد المسلم أن نجماً يترل المطر أو يمنعه فقد اعتقد شركاً..

حفر الصحابة تلك الكلمات في صدورهم.. وأشرقت الشمس منتعشة بالتوحيد والمطر.. وأقبل راكب من بعيد.. إنه معروف لدى الصحابة ولدى رسول الله ﷺ.. فهو الفارس الذي بعثه النبي ﷺ ليرصد تحركات مكة ويقدم تقريراً مفصلاً عن قريش وموقفها من عمرة النبي ﷺ.

قريش تتحرك لمواجهة النبي ﷺ

ترجل الفارس عن مطيته.. وسلم على رسول الله ﷺ وأصحابه.. فردوا عليه السلام وكان ذلك في مكان يقال له: غدير الأشطاط قريب من عسفان نحو مكة فقد كان النبي ﷺ (بعث عيناً له من خزاعة وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه)[(١)] الذي أرسله.. وهو بشر بن سفيان ولما (لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل[(٢)]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم)[(٣)] (إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك)[(٤)] (قال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

(٢) الأطفال والنساء.

(٣) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد (٣٢٣/٤) والبيهقي (١٠٠/٤) والطبراني (١٥/٢٠) حدثني الزهري عن عروة عن المسور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٩).

عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة)[1] كلمات مملوءة حسرة وألماً.. حلف بعدها ﷺ أن لا يترك الجهاد لنشر رسالة الله التي بعثه الله بها إلى جميع الناس.. حتى ينتشر في كل الأرض أو تنقطع سالفته أي يفارق رأسه جسده أو تفارقه روحه.. عزم حديد وبأس شديد.. لكن دون تهور.. دون انفراد بالرأي والقرار.. لقد التفت ﷺ بحديثه إلى أصحابه الذين تجشموا معه الصعاب والألم.. وخاطبهم كعادته.. فرأيهم له وزنه.. وقراراهم له قدره.. شاورهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا حقاً.. لتكون الشورى واجبة من بعده على كل قائد وإمام:

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه في شن الحرب

استشار ﷺ أصحابه كلهم دون استثناء.. دون تعيين.. ثم أصغى جيداً.. بعد أن قال: («أشيروا أيها الناس عليّ.. أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله عزّ وجلّ قد قطع عيناً من المشركين، وإلا تركناهم محروبين».

قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد (٣٢٣/٤) والبيهقي (١٠٠/٤) والطبراني (١٥/٢٠) حدثني الزهري عن عروة عن المسور ومروان وسند ابن إسحاق هو سند البخاري.

قال ﷺ: «امضوا على اسم الله»[1] بعد أن أخذ برأي صاحبه الحكيم رضي الله عنه.. مضى النبي ﷺ وأصحابه.. وكان هناك من يراقبهم من بعيد ولما صار النبي ﷺ بين ضنجان وعسفان تسللت سرية خالد بن الوليد.. وكان خالد من القادة الأفذاذ الذين لا يتهورون بإلقاء جيوشهم في أتون محرق من الحماس والإيمان بقيادة النبي ﷺ.. لذلك فكر بطريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون.. شاهد خالد بن الوليد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة.. لا يلتفتون.. لا يكلم بعضهم بعضاً.. ينسابون في خشوع غامر مع ربهم.. لا يشتغلون بشيء أثناء قيامهم وركوعهم وسجودهم إلا التوجه نحو الله.. هذا التوجه الذي أفرح خالداً والمشركين معه.. لقد وجدوا في هذا الخشوع ثغرة ينقضون منها على جمع المؤمنين ليفنوهم.. ولذلك اتخذ خالد بن الوليد قراراً بالهجوم على جيش الإسلام وهم يؤدون صلاة العصر.. لكن شيئاً حدث.. وغير من طريقة الصلاة في تلك الظروف التي يحملق فيها الرعب من كل مكان على المؤمنين.

كيف صلى النبي ﷺ العصر

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم:

(نزل ﷺ بين ضنجان وعسفان)[2] (فاستقبلنا المشركون عليهم خالد

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٨).

(٢) حديث صحيح رواه النسائي (١٧٤/٣) والترمذي (٣٠٣٥) (والطبري في التفسير – من طريق عبد الصمد، حدثنا سعيد بن عبيد الهنائي حدثنا عبد الله بن شقيق حدثنا أبو هريرة.. عبد الله بن شقيق تابعي ثقة وتلميذه سمع منه وهو صدوق.. وعبد الصمد بن عبد الوارث صدوق انظر التقريب (٣٠١/١ – ٤٢٢ – ٥٠٧).

بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرهم)[1].

ثم قالوا:

(إن لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأبكارهم وهي «العصر» فأجمعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة)[2].

(فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح: فصففنا خلفه صفين.. ثم ركع فركعنا جميعاً..

ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم.. فلما سجدوا وقاموا.. جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم..

ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء..

وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء..

ثم ركع ﷺ فركعوا جميعاً..

ثم رفع ﷺ فرفعوا جميعاً..

ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه.. والآخرون قيام يحرسونهم.

فلما جلس ﷺ جلس الآخرون، فسجدوا فسلم بهم ثم انصرفنا.

فصلاها ﷺ مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)[3] عندها

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٥٩/٤) والطبراني (٢١٣/٥) (٢١٦/٥) وغيرهم من طريق منصور بن المعتمر عن مجاهد عن أبي عياش رضي الله عنه ومنصور ثقة ثبت لا يدلس - التقريب (٢٧٧/٢).

(٢) هو حديث أبي هريرة السابق.

(٣) هذا حديث أبي عياش الزرقي السابق.

أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة.. فالصلاة وإن كانت خشوعاً واتجاهاً إلى الله بكل المشاعر.. إلا أنها لا تعني التسمر فالنبي ﷺ يفعل أشياء كثيرة أثناء صلاته.. فهو يحمل الحسن رضي الله عنه في صلاته.. وينزل إذا أراد الركوع ثم يحمله ثانية إذا أراد القيام[١]..

وتقول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يصلي والباب عليه مغلق، فجئت، فاستفتحت، فمشى ففتح لي ثم رجع إلى مصلاه)[٢].

وكان ﷺ يرد السلام وهو يصلي ولكن بالإشارة بالكف أو بالإصبع.. يقول صهيب الرومي رضي الله عنه:

(مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي، فسلمت عليه، فرده إشارة بإصبعه)[٣] وها هو يتدخل بين صلاته ليفك اشتباكاً بين طفلتين.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم:

(جاءت جاريتان من بني عبد المطلب.. اقتتلتا، فأخذهما، ففرغ بينهما فنزع إحداهما من الأخرى)[٤] ويقول أنس رضي الله عنه: (إن

---

(١) مر معنا عند الحديث عن الحسن رضي الله عنه.

(٢) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٢) وأحمد (٣١/٦) والترمذي (٦٠١) والطبراني في الشاميين (٢٠٦/١) من طريق بشر بن المفضل حدثنا برد بن سنان عن الزهري عن عروة عن عائشة.. وبشر ثقة ثبت وبرد صدوق –التقريب (١٠١/١ - ٩٥).

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٩٢٥) والنسائي في الكبرى (١٩٣/١) من طريق بكير عن ابن عمر عن صهيب ورواه في الكبرى من طريق آخر أيضاً: الليث عن أبي الزبير عن جابر وهذا السند صحيح دون علة.

(٤) سنده صحيح رواه أبو داود (٧١٦) وابن حبان (١٢٠/٦) وابن خزيمة (٤٧/٢) وأبو يعلى (١٣٣/٥) من طريق منصور بن المعتمر عن الحكم عن يحيى بن الجزار عن أبي الصهباء عن ابن عباس. وأبو الصهباء ثقة وليس كما توحي ترجمته في التقريب فقد وثقه العجلي لفظياً وأبو زرعة وجرحه غير مفسر.

النبي ﷺ كان يشير في الصلاة)[1] وتقول عائشة: إنها كانت تنام وأرجلها أمام النبي ﷺ وتقول: (لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وأنا معترضة بين يديه، فإذا أراد أن يسجد غمز رجلي فضممتها إليّ ثم يسجد)[2].

إذا كان ﷺ يفعل ذلك وهو في ساعات السلام.. في داخل بيته.. فحمل السلاح في ساحات الحرب والخوف أدعى وأكثر ضرورة.. فهم المشركون أن الصلاة ليست تسمراً وتحنيطات للأعضاء بل هي خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان..

أدرك المشركون ذلك.. وكان ﷺ أذكى مما تصوروا فقد بث عيونه ترصد الأرض المحيطة بالمؤمنين..

أما خالد فقد انسحب إلى مكان يقال له: كراع الغميم.. وجاءت عيون النبي ﷺ تخبره فقال لأصحابه:

(إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ)[3].

وسارت من حوله عيونه.. ثم جاءته أخبار خالد مرة أخرى فأمر بتغيير طريق السير.. كل ذلك لأنه لم يخرج للقتال بل خرج لزيارة بيت الله وأداء العمرة.. لكن قريشاً تبحث عن المتاعب.. بينما كان ﷺ يتجنبها.. حتى لقد سلك طريقاً وعراً شاقاً كي يتجنب مواجهة قريش.. وفي ذلك الطريق الوعر لاحت ثنية صعبة التجاوز.. لكن النبي ﷺ بشر الصحابة أن:

---

(١) حديث صحيح —السابق (١/١٧٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (٧١٢).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

من عبر الثنية غفر الله له

يقول أبو سعيد الخدري:

(خرجنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بعسفان قال لنا رسول الله ﷺ: «إن عيون المشركين الآن على ضنجان، فأيكم يعرف طريق ذات الحنظل»؟ فقال رسول الله ﷺ حين أمسى:

هل من رجل يترل فيسعى بين يدي الركاب[1]؟

فقال رجل: أنا يا رسول الله، فترل، فجعلت الحجارة تنكبه[2]، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: «اركب.

ثم نزل آخر، فجعلت الحجارة تنكبه، والشجر يتعلق بثيابه، فقال رسول الله ﷺ: اركب.

ثم وقعنا على الطريق حتى سرنا في ثنية يقال لها: الحنظل.

فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنو إسرائيل» قيل لهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾[3].

لا يجوز[4] أحد الليلة هذه الثنية إلا غفر له.

فجعل الناس يجوزون، وكان آخر من جاز قتادة بن النعمان في آخر القوم.

---

(١) أي يمشي أمام الناس.

(٢) تضرب رجله وتصيبه.

(٣) سورة البقرة: الآية ٥٨.

(٤) يتجاوز ويعبر.

فجعل الناس يركب بعضهم بعضاً، حتى تلاحقنا، فنزل رسـول الله ﷺ ونزلنا)[1].

كان ﷺ يتابع هذا التسابق نحو المغفرة بفرح.. وبعد أن عبر المؤمنون كلهم وتجاوزوا تلك الثنية الصعبة.. رأى ﷺ أعرابياً لا يبالي بالبشـرى.. ولا وزن للمغفرة عنده.. أكلت الدنيا قلبه فخرج مع المؤمنين عله يحظى ببعض غنيمة من حطام الدنيا.. رأى ﷺ ذلك الحطام الأعرابي فالتفت إلى أصحابه وبشرهم بالمغفرة ولم يبشر ذلك الحطام بشيء.. يقول جابر بـن عبد الله رضي الله عنه:

(قال رسول الله ﷺ: من يصعد الثنية «ثنية المرار» فإنه يحط عنه مـا حط عن بني إسرائيل.

فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس، فقال رسول الله ﷺ: وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمـر. فأتينـاه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ.

فقال: والله.. لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم -وكان رجل ينشد ضالة لـه-)[2] (وإذا هو أعرابي جاء ينشـد ضـالة

---

(١) سنده صحيح رواه البزار (الزوائد - ٣٣٧٢) حدثنا إسحاق بن بهلول، حدثنا محمد بـن إسماعيل بن أبي فديك، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد.. وشيخ البزار ثقة تاريخ بغداد (٣٦٦/٦) وشيخه صدوق من رجال الشـيخين التقريب (١٤٥/٢) وزيد وعطاء تابعيان ثقتان أما هشام فهو حسن الحديث إذا انفـرد لكنه أثبت الناس رواية عن زيد كما قال الإمام أبو داود (التهذيب - ٣٩/١١) فالسند صحيح.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم -صفات المنافقين.

له)[1] فضل معها.. وكان أضل منها.. لا أدري ما فعلت به الدنيا.. ولا ما فعلت ضالته.. فقد تركه الصحابة وشأنه.. وتوجهوا خلف رسول الله ﷺ الذي انحدر من تلك الثنية على أرض يقال لها: الحديبية وعندما لامست أخفاف ناقة النبي ﷺ «القصواء» أرض الحديبية توقفت فجأة وبركت.

القصواء تبرك في الحديبية

والصحابة يصيحون بها.. يحثونها على النهوض ويقولون: حل.. حل.. لكنها لم تنهض ولم تتزحزح عن مكانها. فقد (سار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به، راحلته، فقال الناس: حل.. حل.

فألحت[2]، فقالوا: خلأت[3] القصواء.

فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»)[4] وهو الله الذي حبس الفيل عن دخول مكة.. وهدم الكعبة ثم قال ﷺ: (والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)[5] (والله لا تدعوني قريش اليوم، إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)[6] (ثم زجرها، فوثبت،

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - صفات المنافقين.

(٢) بقيت في مكانها.

(٣) حرنت.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٥) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(٦) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل يتبرضه الناس تبرضاً)[1] أي نزل في مكان اجتمع فيه ماء قليل يستسقي منه الناس تبرضاً أي بأكفهم.. وكان فيها بئر يقول عنه البراء رضي الله عنه: (الحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة فجلس النبي ﷺ على شفير البئر فدعا بماء، فمضمض ومج في البئر)[2] (لم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش)[3] لكن النبي ﷺ قال للناس: (انزلوا، فقالوا يا رسول الله ما بالوادي من ماء يترل عليه الناس، فأخرج رسول الله سهماً من كنانته)[4] (ثم أمرهم أن يجعلوه فيه)[5] (فأعطاه رجلاً من أصحابه، فترل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه، فجاش الماء بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن)[6] وبركت حوله رواحلهم فارتوت عروقهم.. واطمأنت نفوسهم.. وشكروا خالقهم على هذه النعمة العظيمة.. والمعجزة الخارقة التي أجراها سبحانه على يد نبيه ﷺ.. الذي توقف في هذه الأرض بوحي من الله.

وهو الآن يستدعي أحد أصحابه واسمه: خراش بن أمية الخزاعي ليكلفه بمهمة خطيرة.. وقد اختاره ﷺ من قبيلة خزاعة (وكانت خزاعة في عيبة[7] رسول الله ﷺ مسلمها، ومشركها، لا يخفون على رسول الله ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٧٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٦) حديث البخاري الطويل (٢٧٣١).

(٧) يثق بهم ويثقون به.

شيئاً كان بمكة)[1] (كانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة)[2] فهم موضع ثقة عند الطرفين.. ولم يكتف ﷺ باختيار رسوله بدقه.. بل اختار له راحلة مميزة.. لقد أركبه ﷺ على جمله ثم أمره بالانطلاق: فانطلق يخبرهم أن:

النبي ﷺ يعرض هدنة وقريش تريد قتل رسوله

(بعث ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب. فلما دخل مكة عقرت به[3] قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعهم الأحابش حتى أتى رسول الله ﷺ)[4] ولولا الله ثم تدخل الأحابش لهلك خراش لكن الأحابش وهم حلفاء لقريش فكروا بالعار الذي يجلبه قتل رسول.. أما قريش فقد أعماهم الكفر والحقد في ساعة غضب فضربوا بكل شيء عرض الحائط.. عاد خراش سليماً معافى. وجاءت كوكبة من الفرسان.. من قوم خراش هل كانوا يريدون نصر خراش أم ماذا؟

من هؤلاء الفرسان وماذا يريدون

إنهم رجال من بني خزاعة وقائدهم اسمه بديل بن ورقاء الخزاعي.. وكانوا من الرجال الذين يظهرون النصح لرسول الله ﷺ وهم وخزاعة محل ثقة النبي ﷺ (فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال

---

(١) حديث حسن وهو حديث أحمد الطويل وقد مر معنا (٤/٣٢٤).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) قطعت إحدى قوائمه.

(٤) حديث حسن وهو حديث أحمد السابق.

خزاعة فقال لهم كقوله لبشير بن سفيان)[١] فقد (جاء بديل بــن ورقــاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة[٢] نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال:

إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه[٣] الحديبية ومعهم العوذ المطافل[٤]، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ:

«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا[٥]، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حــتى تنفــرد سالفتي[٦] ولينفذن الله أمره.

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه شيء وقال ذوو الــرأي منهم: هات ما سمعته يقول.

---

(١) حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٣٢٣/٤).

(٢) أي أن النبي ﷺ يثق بهم وهم أهل ثقة ونصح له.

(٣) العد هو الماء الذي لا ينقطع.

(٤) أي معهم الإبل ذوات اللبن والأمهات بأطفالهن.

(٥) جعلت بيني وبينهم مدة من الزمن لا حرب فيها.

(٦) أي حتى أقتل.

قال: (يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه)[1] سمعته يقول: كذا وكذا.. لكن النبي ﷺ أراد أن يبعث رجلاً مسلماً له مكانته ويستطيع بيان رسالته.

(فدعا ﷺ عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله.. إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان، فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته، فخرج عثمان بن عفان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد بن العاص، فترل عن دابته، وحمله بين يديه، وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به.

فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به.

فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل)[2].

قتل عثمان واستعد عمر

إشاعة حولت الحديبية إلى ساحة للموت والفداء.. فكان عمر بن الخطاب أول الناس استعداداً للموت.. ها هو يلبس لباس الحرب..

(١) ما بين الأقواس الصغيرة عند أحمد وهو الحديث السابق وهو حسن.

(٢) حديث حسن وهو جزء من حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٣٢٣/٤).

ويستدعي ابنه عبد الله ليأمره بإحضار فرس لـــه عند أحـــد الأنصـــار.. ويسأل عن سبب ذلك الزحام.. فاستجاب الفتى البار لأبيه وتوجه نحـــو ذلك الأنصاري لأخذ فرس أبيه التي يريد القتال عليها.. لكن ذلك الشاب الصغير أُخذ بمشهد الزحام الذي كان في طريقه.. كان هناك شـــجرة.. تحت ظلالها كان الزحام.. وتحت ظلالها كان النبي ﷺ.. أما سبب الزحام فهو دعوة النبي ﷺ إلى: البيعة.

متى كانت البيعة تحت الشجرة

يقول شاب حضر تلك البيعة: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهـــب عثمان إلى مكة)[1] فجمعهم ﷺ تحت الشجرة.. حيث النبوة.. والرحمـــة والأرواح هدايا..

اقترب عبد الله بن عمر فتى مأخوذاً بمشهد الفداء.. فوجد الصحابة رضي الله عنهم يهدون أرواحهم.. فيهديهم الله رضاه إلى يوم القيامة.

أحب أن ينافسهم وإن كان من أصغرهم.. وبدلاً من أن يحضر الفرس لأبيه رضي الله عنه أحضر مهجته لنبيه ﷺ.. زاحم الجميع.. ثم مـــد يـــده الصغيرة وعيناه معلقتان بحبيبه فبايعه (على الصبر)[2] ثم انفتل نحـــو مهمتـــه الأولى توجه نحو أخيه الأنصاري فأخذ فرس أبيه وقادها نحوه فوجد أبـــاه لا يعلم بعد عما يحدث.. إنه مشغول بالاستعداد للحرب.. يقول ذلك الفـــتى: إن (عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار يأتى به ليقاتل ورسوله الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر لا يدري بذلك، فبايعـــه

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٨).

عبد الله ثم ذهب إلى الفرس، فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئمُ[1] للقتال فأخبره)[2] بعد أن استغرب عمر ذلك الزحام تحت تلك الشجرة.. مع أن هناك أشجاراً أخرى كثيرة.. فـ(الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ.

فقال: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ.

فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر. فخرج فبايع)[3] رضي الله عنه وقد تكون بيعة عمر على الموت.. فالبيعة تحت الشجرة ذات ألفاظ عدة لكن كل تلك الألفاظ تعني الجهاد مع النبي ﷺ حتى النصر أو الشهادة.. ها هو جابر بن عبد الله يتقدم ويبايع فيسأله رجل فيما بعد عن بيعته فيقول: (بايعناه على ألا نفر ولم نبايعه على الموت)[4] وعبد الله بن عمر بايعه على (الصبر)[5].

تسابق الصحابة وازدحموا يبايعون النبي ﷺ.. أكثر من ألف وأربعمائة صحابي يبايعونه على التوالي.. شاهد عمر ذلك الزحام فأحب أن يعين نبيه ﷺ فأخذ بيده.. يقول جابر رضي الله عنه: (كنا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة)[6] وإذا كان عمر قد أشفق على نبيه من الوقوف والتعب، فإن صحابياً آخر اسمه: معقل بن يسار أشفق عليه من أغصان الشجرة لا تؤذيه.. فقام برفعها عن رأسه،

---

(١) يلبس لأمة الحرب.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٨٧).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٥) البخاري (٢٩٥٨).

(٦) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

يقول رضي الله عنه: (لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا أرفع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر)[1] لكن: بعض الصحابة بايعوا على الموت.

ها هو أحدهم اسمه: عبد الله بن زيد رضي الله عنه (وكان شهد معه الحديبية)[2] فبايع النبي ﷺ على الموت ثم قال فيما بعد: (لا أبايع على ذلك أحداً بعد رسول الله ﷺ)[3].

وهذا صحابي آخر: خصه ﷺ ببيعة على الموت ودعاه لها فاستجاب فمد له (يداً ضخمة كأنها خف بعير)[4] اسمه سلمة بن الأكوع.. فارس لا يقهر.. يقول رضي الله عنه: (بايعت النبي ﷺ، ثم عدلت إلى ظل شجرة، فلما خف الناس قال: يا ابن الأكوع ألا تبايع؟

قلت: قد بايعت يا رسول الله.

قال: وأيضاً، فبايعته الثانية)[5] (على الموت)[6].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٦٧).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٥٩).

(٤) رواه ابن سعد (٣٠٦/٤) وسعيد بن منصور: حدثنا عكاف بن خالد حدثني عبد الرحمن ابن زيد العراقي قال: أتينا سلمة بن الأكوع.. فأخرج لنا يداً.. وهذا السند خطأ والصواب عطاف بن خالد وهو حسن الحديث التقريب (٢٤/٢) حدثني عبد الرحمن بن رزين الغافقي وليس زيد العراقي.. وعبد الرحمن قال عنه الحافظ: صدوق والأصوب أنه مقبول عند المتابعة لأنه لم يوثقه إلا ابن حبان فالسند حسن إليه.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦٠).

هل اكتفى رسول الله ﷺ ببيعته الثانية.. يبدو أن الأمر غير ذلــك.. فقد ميز النبي ﷺ صاحبه سلمة بن الأكوع ببيعة لم تكن لأحد غــيره.. وللنبي ﷺ أسلوبه الرائع في تكريم أصحابه وتفجير طاقاتهم.. وإبراز نقاط القوة في كل فرد منهم فــ:

ما هي بيعة سلمة المميزة

يقول سلمة رضي الله عنه:

(قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، ونحن أربع عشرة مائة، وعليهــا خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية[1]، فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت[2]، فسقينا، واستقينا، ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة، فبايعته أول الناس.

ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس، قال: بايع يا سلمة.

قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس.

قال: وأيضاً.

ورآني رسول الله ﷺ عزلاً «يعني ليس معه سلاح»، فأعطاني رسول الله ﷺ حجفة أو درقة[3]، ثم بايع، حتى إذا كان في آخر الناس قــال: ألا تبايعني يا سلمة؟ قلت: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس وفي أوسط الناس. قال: أيضاً. فبايعته الثالثة.

ثم قال لي: يا سلمة: أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟

(١) حافة البئر.

(٢) فارت وفاضت وامتلأت.

(٣) ترس من جلد.

قلت: يا رسول الله: لقيني عمي عامرٌ أعزلاً، فأعطيته إياها.

فضحك النبي ﷺ وقال: إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليّ من نفسي)[1].

باع الصحابة أرواحهم.. وتحت شجرة السمر تلك حل رضوان الله على الذين بايعوا.. فسميت بيعة الرضوان.. حيث بايع الجميع.. إلا رجلين..

رجل من أفضل الصحابة وأكرمهم هو: عثمان بن عفان رضي الله عنه فـ:

لماذا تخلف عثمان عن البيعة

ببساطة.. لأنه هو السبب الأول لتلك البيعة بعد أن وصل خبر اغتياله على أرض مكة.. لكن يبدو أن الخبر لم يتأكد لديه ﷺ ولذلك قام بعمل هو تكريم لعثمان.. وبيان لمترلته لدى النبي ﷺ.. يقول الشاب المجاهد عبد الله بن عمر رضي الله عنه: (كانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى:

هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان)[2].

هذه هي مترلة عثمان لدى النبي ﷺ.. وهذا هو مدى ثقته به وبإيمانه..

أما الرجل الثاني فهو من الأنصار واسمه: جد بن قيس بن الأنصاري وهو خال جابر بن عبد الله.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

يقول جابر رضي الله عنه: (كنا أربع عشرة مائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غير جد بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره)[1] ولا أدري ما سبب اختبائه.. لكنه خسر خسارة عظيمة.. وتخلف عن رضوان يظله طوال حياته.. ربما كان الخوف والجبن سبباً لتخاذله ذلك.. وربما كان السبب أمراً أخطر.. لكنه خسر لا شك.. لا سيما والخطر الداهم قد أطبق من كل اتجاه على المؤمنين.. فقد خرجت قريش ومن معها نحو الحديبية لإيقاف النبي ﷺ أو حربه إن استدعى الأمر.. وجد بن قيس قد خسر في الحالتين.. فالصحابة لن يفروا مهما كان الثمن.. وقد تأهبوا للأعداء.

قريش تحاصر الحديبية

بعد انتهاء المؤمنين من البيعة امتلأت جوانب الحديبية بجيش الشرك.. فاستعد المؤمنون لهم.. واستعدوا للشهادة.. أما النبي ﷺ فكان بينهم يتجول.. يتفقد وينظم.. ويصلح من أحوالهم.. ها هو يحذرهم.

فيقول: «لا توقدوا ناراً بليل»[2].

ويواصل ﷺ تفقده لأصحابه.. فيمر على رجل يوقد النار نهاراً تحت قدر لأصحابه.. لكن منظر شعره ولحيته لا يسر.. اسمه كعب بن عجرة و(النبي ﷺ مر وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم، وهو يوقد تحت قدر، والقمل يتهافت على وجهه فقال:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الإمارة.

(٢) سنده قوي رواه الأئمة أحمد (٣/٢٦) والنسائي في الكبرى (٣/٢٦) والحاكم (٣/٣٨) وابن أبي شيبة - إطفاء النار - كلهم من طريق محمد بن أبي يحيى الأسلمي عن أبيه عن أبي سعيد. ومحمد وأبوه صدوقان - التقريب (٢/٢١٨) (١/٣٣٣).

أيؤذيك هوامك هذه؟ قال: نعم)[1] انصرف النبي ﷺ من عنده لا يدري ما يقول له.. فنزل جبريل عليه السلام بقرآن يتلى.. واشتد الوجع بكعب بن عجرة.. فنزلت رحمة الله على كعب ومن يأتي بعد كعب..

يقول كعب رضي الله عنه: (كنا مع النبي ﷺ. ونحن محرمون، وقد حصرنا المشركون، وكانت لي وفرة[2]، فجعلت الهوام تساقط على وجهي. فمر بي النبي ﷺ، فقال:

أيؤذيك هوام رأسك؟ قلت: نعم. وأنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾)[3] وهذه الآية (نزلت فيَّ خاصة وهي عامة لكم. حملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي «فوقع القمل في رأسي ولحيتي وحاجبي وشاربي».

فقال: ما كنت أرى الوجع بلغ بك ما أرى، أو ما كنت أرى الجهد بلغ بك ما أرى، تجد شاةً؟

فقلت: لا، قال: فصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع)[4].

(فدعا ﷺ الحلاق فحلق رأسه)[5] فارتاح من القمل والوجع.. وشعر

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم –الحج.

(٢) الشعر إذا وصل شحمة الأذن، والجمة إذا تناثر على الكتفين.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩١) والنسك هو الدم وقد فسره (ص) بالشاة كما سيأتي.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (١٨١٦).

(٥) حديث صحيح رواه مسلم – الحج.

برحمة الله وفضله حيث جعل لـه بعد الضيق فرجاً وفرحاً.. كفرح رسول الله ﷺ بعودة عثمان الذي عاد دون أن يمس بأذى..

عاد عثمان لكن قريشاً لم تعد.. بل انحدرت معها ثقيف من الطائف.. يقودهم عروة بن مسعود الثقفي عم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.. وقد شارك عروة قريشاً بكل ما يملك.. جاء بأهله وولده وبعض أهل عكاظ.. ثم قال لقريش: (إني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا[1] علي، جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني)[2].

لم تأتِ عكاظ فقط لنصرة قريش.. ها هم حلفاء آخرون لقريش يسمون (الأحابيش) يسيرون مع قريش لحصار النبي ﷺ وأصحابه تحت قيادة رجل اسمه: (الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذٍ سيد الأحابيش)[3] وهو رجل عاقل وحكيم يحترم الهدي ومن يسوقه إلى بيت الله العتيق..

وكان وجود أمثال الحليس سبباً في عدم هجوم قريش وبدئها لحرب جديدة مع النبي ﷺ.. كانت قريش أكثر تعقلاً هذه المرة لوجود أمثال الحليس.. فقد (قام عروة بن مسعود فقال: أي قوم.. ألست بالولد؟ وألستِ بالوالدِ؟

قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا[4] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أعطاني؟ قالوا: بلى.

---

(١) رفضوا وأبوا.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل الصحيح.

(٤) أبوا ورفضوا.

قال: فإن هذا قد عرض لكم خطة رشد، اقبلوها، ودعوني آته «يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئت حتى آسيتكم[1] بنفسي، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم» قالوا: ائته، فأتاه «فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه» فجعل يكلم النبي ﷺ «فقال: يا محمد، جمعت أوباش[2] الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها[3]، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا، جلود النمور، يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً».

فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل بن ورقاء[4].

فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت[5] أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى[6]، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك. «وأبو بكر رضي الله عنه خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات[7]، أنحن نفر عنه وندعه؟

فقال: من ذا؟

---

(١) واسيتكم وساويتكم.
(٢) أخلاط الناس وأقلهم منزلة.
(٣) حماك أو حما قومك لتفرقه وتمزقه.
(٤) أي كلاماً كالذي قاله لبديل.
(٥) أي قطعت وانهيت.
(٦) أي إن هزمت.
(٧) إهانة لمعبوده المدعو: اللات.

قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك «لكافأتك بها، ولكن هذه بها ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ من الحديد» وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة واقف على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف[1]، وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ «قبل والله لا تصل إليك قال: ويحك ما أفظك وأغلظك، فتبسم رسول الله ﷺ» فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا «يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك». المغيرة بن شعبة.

فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ «هل غسلت سوأتك إلا بالأمس»، وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم.

فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل. وأما المال فلست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، «فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، فأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه»[2].

عروة منبهر باحترام الصحابة للنبي ﷺ

يكاد لا يصدق ما يرى.. لكنها الحقيقة شاخصة أمام عينيه.. أخذته

(١) حديدة بأسفل جفن السيف.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٤/٣٢٤) والزوائد له.

الدهشة إلى قريش فحدثهم عن إجلال لم يحض به أعظم ملكين على وجه الأرض.. كسرى وقيصر.. ها هو عروة يرمق أصحاب النبي ﷺ، (فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه «كادوا يقتتلون على وضوئه» ولا يبسق بساقاً إلا ابتدروه «إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده» ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه «وإذا أمرهم ابتدروا أمره» «وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له» فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه.

«والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها».

ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم)[1].

(فقال رجل من بني كنانة «الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذٍ سيد الأحابش»: دعوني آته.

فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن[2]، فابعثوها له «ابعثوا الهدي في وجهه».

فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك «الهدي يسيل

(١) حديث صحيح رواه أحمد (٤/٣٢٤) والبخاري (٢٧٣١) والزوائد لفظ البخاري.

(٢) ما يذبح لله في العمرة أو الحج من الإبل أو البقر.

عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى» قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال:

رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت «يا معشر قريش، قد رأيت مالا يحل صده: الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله.

فقالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»[1].

فقدت قريش عقلها واحترامها لمبادئها.. واحترامها لبيت الله ومن يقصده للحج والعمرة بتلك الكلمات التي قذفتها كالحجارة في وجه الحليس الكناني سيد الأحابش وحليفها الدائم.. لذلك لم تمانع أن تبعث رسولاً ثالثاً هابط المستوى مثلها.. قريش تبعث رجلاً فاجراً:

قريش تبعث مكرز بن حفص

بعد تلك الكلمات غير المهذبة التي أطلقتها قريش على حليفها (قام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز وهو رجل فاجر «غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه» فجعل يكلم النبي ﷺ)[2] لكن يبدو أن قريشاً ندمت على إرسال مكرز هذا.. لهذا قررت قطع رسالته ومقاطعته برجلٍ أحكم وأعقل.. ويبدو أن نداء العقل والرحم قد تنبه أخيراً داخل أوساط قريش..

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) جزء من الحديث السابق.

قريش تقاطع محادثة مكرز

لقد بعثوا رجلاً متزناً يعرف مكانته ومكانة خصمه ويحترم شرف الخصومة (بعثوا سهيل بن عمرو - أحد بني عامر بن لؤي - فقالوا: ائت محمداً، فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً، فأتاه سهيل بن عمرو)[١].. وصل سهيل بن عمرو في الوقت الذي كان النبي ﷺ يتحدث فيه إلى مكرز بن حفص (فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو)[٢] و(لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: وقد سهل لكم من أمركم)[٣].. وقبل أن يصل سهيل حدثت حركة داخل معسكر قريش.. حركة تثير الشفقة والغضب جميعاً:

أرقاء يهربون من قريش

قبل أن يصل سهيل وصلت مجموعة من الفارين من معسكر الشرك والرق.. مجموعة صغيرة من الأرقاء يمموا نحو الحرية.. نحو النبي ﷺ.. رآهم علي بن أبي طالب: فقال:

(خرج عِبدان إلى رسول الله ﷺ -يعني يوم الحديبية- قبل الصلح، فكتب إليه مواليهم،

فقالوا: يا محمد، والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هرباً من الرق.

(١) حديث صحيح رواه البخاري؟

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١).

فقال ناس: صدقوا يا رسول الله، ردهم إليهم. فغضب رسول الله ﷺ، وقال: ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا.

وأبى أن يردهم، وقال: هم عتقاء الله عزّ وجلّ)[1] وهم أحرار بين أخوتهم المهاجرين والأنصار.. ينعمون برحمة الإيمان وأفياء المساواة والتآخي في الله..

أما سهيل بن عمرو فقد وصل إلى معسكر المؤمنين (فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا، حتى جرى بينها الصلح، فلما التأم الأمر و لم يبق إلا الكتاب)[2].. تحدث سهيل بن عمرو فقال:

(هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب)[3] وكان (كاتب الكتاب يوم الحديبية علي بن أبي طالب رضي الله عنه)[4] (فقال النبي ﷺ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب باسمك اللهم. كما كنت تكتب.

---

(١) حديث صحيح دون قوله: هم... رواه أبو داود (٢٧٠٠) وله طريق أخرى عند أحمد (١٥٥/١) حيث توبع ابن إسحاق وشيخه.. فالتقى الطريقان عند منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش عن علي رضي الله عنه: ومنصور ثقة لا يدلس وشيخه مخضرم ثقة عابد.

(٢) حديث أحمد الطويل الصحيح.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١).

(٤) سنده حسن رواه أحمد (٥٩٠/٢) حدثنا عبد الرزاق حدثنا عكرمة بن عمار أخبرنا أبو زميل أنه سمع ابن عباس يقول... وهذا السند حسن من أجل عكرمة بن عمار وهو حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم —التقريب (٣٠/٢) وشيخه لا بأس به (التقريب - ٣٣٢/١) والحديث عند أحمد في فضائل الصحابة.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: اكتب: باسمك اللهم.

ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك. ولكن اكتب: [اسمك واسم أبيك] «هذا ما اصطلح عليه» محمد بن عبد الله.

فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله)[1] (ثم قال لعلي: امح: رسول الله.

قال علي: لا. والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب)[2] (قال ﷺ: فأرنيه. فأراه إياه، فمحاه النبي ﷺ بيديه)[3] وبعد أن محا النبي ﷺ كلمة رسول الله.. رأى الجميع شيئاً لم يعرفوه من قبل عن النبي ﷺ فـ.

هل حدثت معجزة ثانية على أرض الحديبية

فالنبي ﷺ لا يعرف القراءة ولا الكتابة.. ولذلك قال ﷺ لعلي بن أبي طالب: (أرنيه) ولو كان يعرف ذلك لما سأله.. لكن الذي حدث أن النبي ﷺ محا الكلمة التي أشار إليها رسول الله ﷺ بيديه ثم (أخذ رسول

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣١) والزوائد لأحمد وما بين المعقوفين لمسلم – الجهاد (١٧٨٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٤) وما بين الأقواس لمسلم (١٧٨٣).

الله ﷺ الكتاب -وليس يحسن أن يكتب- فكتب «ابن عبد الله»)[1]: أي أن النبي ﷺ كتب فقط: (ابن عبد الله) وما حدث منه ﷺ قد يكون معجزة من الله.. وقد يكون رسمها.. فهي مجرد كلمة يجيد رسم مثلها أغلب الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.. ومع ذلك تجدهم يجيدون كتابة أسمائهم.. وهي ليست كتابة بالمعنى الصحيح.. بل هي مجرد رسم وتقليد.. ثم واصل علي رضي الله عنه كتابة شروط الصلح التي أثارت غضب عمر كما أثارت علياً من قبل.

لكن شيئاً حدث أثار الجميع إلا النبي ﷺ إنه ليس ما أملاه سهيل من شروط.. إنه أخطر من ذلك وأفدح.. جريمة كادت تفسد كل شيء.. ودناءة كادت تحول أرض الحديبية إلى ساحة حمراء.. تلك الجريمة كانت:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

يقول عبد الله بن مغفل رضي الله عنه:

(كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي ابن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه:

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فأخذ سهيل بن عمرو بيده فقال:

ما نعرف بسم الله الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

فكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة. فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال:

لقد ظلمناك إن كنت رسوله. اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله، فكتب..

فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله عز وجل بأبصارهم، فقدمنا إليهم، فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد، أو: هل جعل لكم أحد أماناً.

فقالوا: لا. فخلى سبيلهم)[1] وعفا عنهم.. وتركهم لضمائرهم علها تستيقظ ثم انصرف لإكمال ما بدأه من اتفاق.. وكتابة:

شروط صلح الحديبية

قال سهيل بن عمرو:

(اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو وعلي:

- وضع الحرب عشر سنين.

---

(١) سنده لا بأس به رواه أحمد (٨٦/٤) والحاكم (٦١/٢) من طريق زيد بن الحباب وعلي ابن الحسن بن شقيق وهما ثقتان، قالا: أنبأنا وحدثني الحسين بن واقد، حدثني ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل.. والحسين بن واقد ثقة (التقريب - ١٨٠/١) وشيخه تابعي ثقة عابد (التقريب - ١١٥/١) وقال الذهبي في تعليقه على سماع ثابت من عبد الله رضي الله عنه: لا يبعد سماع ثابت من ابن مغفل قد اتفقا -أي الشيخان- على إخراج معاوية بن قرة، وحميد بن هلال عن ابن مغفل، وثابت أسن منهما.

- يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.
- على أنه من أتى رسول الله ﷺ «رجل» من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم.
- ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليهم.
- وأن بيننا عيبة مكفوفة(١).
- وأنه لا إسلال(٢).
- ولا إغلال(٣).
- وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه:
- من أحب(٤) أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.
- ومن أحب(٥) أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.
- وانك ترجع عنا عامنا هذا، فلا تدخل علينا مكة.
- وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك.
- فتدخلها بأصحابك وأقمت فيهم ثلاثاً معك السلاح الراكب.

---

(١) أي لا غش فيها.

(٢) أي لا سرقة.

(٣) ولا خيانة.

(٤) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف محمداً.

(٥) أي من أحب من القبائل الأخرى أن يحالف قريشاً.

● لا تدخلها بغير السيوف في القرب)[1].

● (وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه.

● وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها)[2].

تعجب بعض الصحابة من تلك الشروط الجائرة (فقالوا: يا رسول الله: أنكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً)[3].

لم تنته المعاهدة حتى الآن.. وعلي رضي الله عنه يواصل كتابة الشروط.. والغضب يتطاير من عيني عمر بن الخطاب.. والصحابة رضي الله عنهم في حالة ذهول.. في تلك الأثناء حدثت حركة أججت لهيب الغضب في معسكر المسلمين.. مشهد فاجعة.. وظلم لا طاقة للرجال به.. لقد وصل الآن إلى مكان المباحثات رجل يرسف في قيوده.. يزحف.. ويمشي ويسقط ويجأر باحثاً عن ملجأ ومفر له مما هو به.. إنه ابن ذلك الرجل الذي يفاوض النبي ﷺ: سهيل بن عمرو وابنه ذلك اسمه: أبو جندل..

مأساة أبي جندل

قيده أبوه عندما علم بإسلامه.. وغل يديه وقدميه.. ومنعه من مغادرة مكة.. لكنه لم يستطع منعه من مغادرة الشرك.. ولما خرجت قريش لصد النبي ﷺ عن دخول مكة وجد فرصة فهرب.. وها هو الآن

(١) حديث صحيح رواه أحمد (٤/٣٢٥) والزوائد للبخاري (٢٧٣٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٥١).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٨٣).

بين يدي رسول الله ﷺ ووالده سهيل يشاهده.. ومداد المعاهدة لم يجف بعد.. والشروط لم تنته حتى الآن.. لكن النبي ﷺ قد وافق على ما مضى.. وصل أبو جندل بعد أن قال والده سهيل لرسول الله ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين أظهر المسلمين.

فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ.

فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً.

«فلما رأى سهيل أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال: صدقت.

فقام إليه فأخذ بتلبيبه[1]، وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني. فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم».

قال النبي ﷺ [2]-: فأجزه لي[3].

---

(١) أي بثوبه من جهة الصدر.

(٢) قال لسهيل بن عمرو.

(٣) أي اتركه لي.

قال: ما أنا بمجيز ذلك لك.

قال: بلى فافعل.

قال: ما أنا بفاعل.

قال مكرز: بل قد أجزنا لك.

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله)[1].

كان هذا المنظر المؤلم يطعن في أعماق عمر ويفقده صوابه وصبره.. (فوثب إليه عمر بن الخطاب مع أبي جندل، فجعل يمشي إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب – ويدني قائم السيف منه – ويقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن[2] الرجل بأبيه ونفذت القضية)[3] كان عمر يريد من أبي جندل أن يجهز على أبيه بالسيف وينطلق من إساره بنفسه دون مساعدة المسلمين.

وبذلك يكون قد حرر نفسه ولا لوم على النبي ﷺ ولا على أصحابه ولا على عهدهم وذمتهم.. لكن أبا جندل لم يفعل.. فطار صواب عمر وتوجه نحو نبي الله ﷺ بعد أن رأى وسمع ما لم يستطع عليه صبراً. يقول عمر للنبي ﷺ: (ألست نبي الله حقاً؟

قال: بلى.

---

(١) حديث البخاري الطويل السابق والزوائد لأحمد.

(٢) أي بخل بأبيه على الموت.

(٣) حديث البخاري السابق.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «وألسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى.

قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذن؟ «فعلام نعطي الذلة في ديننا؟».

قال ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني».

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: بلى.. فأخبرتك أنا نأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ «أولسنا بالمسلمين، أو ليسوا بالمشركين»؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟ فعلام نعطي الذلة في ديننا؟»

قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق.

قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوف به)[1].

ندم عمر على ما كان منه من احتجاج على ذلك الظلم الوثني.. ندم عمر وتوجه بالتوبة إلى الله وحاول تكفير ما كان منه بأعمال كثيرة يقول عنها: (مازلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت، مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ، حتى رجوت أن يكون خيراً)[2].. بالنسبة للنبي ﷺ كل شيء قد انتهى و لم يتبق سوى التحلل من الإحرام والعودة إلى المدينة.

لكن الصحابة لم يمتثلوا لأوامره ﷺ

الأمر عند الصحابة غير قابل للتصديق.. أين تلك الأحلام بالطواف بالبيت الحرام.. والصلاة فيه.. أين أحلام المهاجرين بمعانقة أجواء مكة الحبيبة..؟ هل انهار كل ذلك على صخور الحديبية.. حاول ﷺ أن يزيل تلك الدهشة وذلك الذهول.. لكنه لم يستطع.. وما حدث أنه (لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

قوموا فانحروا ثم احلقوا.

فوالله ما قام رجل)[3] فقال مرة ثانية: فانحروا ثم احلقوا.. فلم يقم منهم أحمد مما بهم من الهم والغم.. ثم قال الثالثة: قوموا فانحروا ثم احلقوا.. لكنه لم يلق إجابة فعليةً ولا حتى قولية.. (حتى قال ذلك ثلاث

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وهو الحديث الطويل السابق والزوائد لأحمد.

(٢) حديث صحيح وهو حديث أحمد الطويل السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).

مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة)[1] عله يجد لدى هذه المرأة العظيمة حلاً..

أم سلمة تشير على النبي ﷺ

إلى خبائها الكريم.. قام النبي ﷺ فـ(دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس. «فقال: يا أم سلمة ما شأن الناس» فقالت أم سلمة: «يا رسول الله.. قد دخلهم ما رأيت»، يا نبي الله.. أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم منهم كلمة حتى تنحر بُدنك[2]، وتدعو حالقك فيحلقك. «فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك».

فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه[3]، ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا فجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما)[4].

مما رأوه من ظلم وغبن من المشركين.. وكان النبي ﷺ قد بدأ بالنحر قبل الحلق.

حيث (حلق بالحديبية في عمرته، وأمر أصحابه بذلك، ونحر بالحديبية قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك)[5].

وحتى يغيظ أولئك المشركين المتغطرسين.. ساق ﷺ معه جملاً كان لأبي جهل في غزوة بدر.. غنمه المسلمون.. ثم نحره أمام أعين المشركين.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).

(٢) البدن؛ هي: الإبل والبقر التي ينحرها الحاج أو المعتمر لله.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) وأحمد (٣٢٦/٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢) والزوائد لأحمد (٣٢٦/٤).

(٥) حديث أحمد الصحيح السابق (٣٢٧/٤).

النبي ﷺ ينحر جمل أبي جهل

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم:

(أهدى رسول الله ﷺ جمل أبي جهل في هديه يوم الحديبية، وفي رأسه برة من فضة، كان أبو جهل أسلمه يوم بدر)[1] (ليغيظ المشركين بذلك)[2].

وإذا كان هذا الأمر قد أفزع المشركين.. فإنه أيقظ المؤمنين من همومهم.. فنهضوا لينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم.. وقد اشترك الصحابة بالهدي.. فالسبعة منهم يشتركون في الجمل أو البقرة.. أما الشاة فلا تكفي إلا عن واحد.. يقول جابر رضي الله عنه: (نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة)[3] (نحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا: كل سبعة في بدنة)[4].

نحر الصحابة سبعين بدنة.. ولا أدري هل نحروا من الغنم شيئاً.. ثم قاموا (وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد يقتل بعضهم بعضاً غماً)[5].. لكن بعض الصحابة -وهم قلة- لم يحلقوا بل اكتفوا بتقصير شعورهم - فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: يرحم الله المحلقين.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين.

---

(١) حديث صحيح رواه ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس وقد صرح ابن إسحاق بالسماع عند ابن خزيمة (٢٨٧/٤) وأحمد (٢٦١/١) وله طريق آخر عن ابن عباس عند أحمد (٢٦٩/١) وطريق آخر عند الطبراني (٢٣/٧) عن سلمة.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (١٣١٨) الحج.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟

قال: والمقصرين.

قالوا: فما بال المحلقين ظاهرت لهم الترحم؟

قال: لم يشكوا)[١].

وبعد الحلق هدأ عمر ومن معه من الصحابة.. لكن الذهول مازال يطوف برؤوسهم.. ومازالت صورة أبي جندل تلوح في دروبهم.. لم يكن أبو جندل وحده مأسوراً.. كان هناك الكثير غيره.. حتى حلفاء قريش كانوا قد أوثقوا من آمن منهم..

وكان من هؤلاء المأسورين:

أسد يقال له: أبو بصير

قيده قومه ومنعوه من الالتحاق بمحمد ﷺ وأصحابه.. واسمه: عتبة ابن أسيد بن جارية الثقفي.. ولم يكن الرجال وحدهم يعانون هذه المأساة.. ويتجرعون سموم الشرط الجائر.. النساء المستضعفات عانين الكثير.. تلك المؤمنة الطاهرة ابنة الطاغية الهالك: عقبة بن أبي معيط

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس. وعبد الله ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ١/٤٥٦) وابن إسحاق لم يدلس.

واسمها: أم كلثوم.. تخطط للهرب من مستنقع الشرك وأسلاكه الشائكة.. فتنجح.. وعندما تصل هي وغيرها إلى النبي ﷺ يطالب أهلها بإرجاعها حسب نصوص المعاهدة لكن النبي ﷺ يرفض إرجاع النساء المهاجرات.

ليس لأنه نقض عهده مع قريش.. إنه أكبر من ذلك.. لقد رد حذيفة ووالده يوم بدر.. ورد أبا جندل قبل قليل.. فلماذا لا يرد أم كلثوم ورفيقاتها من المؤمنات الهاربات من غابة الأصنام..؟

والإجابة هي أن النبي ﷺ وجد للمؤمنات ثغرة خلال النصوص.. ثغرة تتيح للمؤمنات التسلل من خلالها والهرب. فقد كان سهيل كغيره من المشركين لا يأبهون لشأن المرأة إلا حين تنتصب في أذهانهم رموز الغريزة.. ولذلك قال سهيل للنبي ﷺ: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا)[1] وهذا النص - الشرط ينصب على الرجال فقط.. فالنساء لا يدخلن تحت طائلته.. فكان الفرج لأم كلثوم (لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحدٌ «رجل» وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم.. فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن:

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٢).

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ[1] فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ﴾[2] تقول عائشة رضي الله عنها:

(إن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك -كلاماً يكلمها به- والله ما مست يده امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله)[3].

سمع عمر بن الخطاب تلك الآيات.. والقرآن يسري في عروق عمر لا يجد ما يعيق انسيابه.. والقرآن يتـوهج داخـل زوايـاه وأعماقـه.. فاستجاب على الفور حيث تقول عائشة رضي الله عنها:

(لما أنزل الله تعالى: أن يردوا إلى المشركين ما أنفقوا على من هـاجر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١١-٢٧١٢).

(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٠، وأكملت الآية للفائدة.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧١٣) سورة الممتحنة.

من أزواجهم، وحكم على المسلمين أن لا يمسكوا بعصم الكوافر، أن عمر طلق امرأتين:

«قريبة بنت أبي أمية» و«ابنة جرول الخزاعي».

فتزوج «قريبة»: معاوية بن أبي سفيان، وتزوج الأخرى أبو جهم، فلما أبى الكفار أن يقروا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم، أنزل الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ والعَقَبُ: ما يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار، فأمر أن يعطي من ذهب له زوج من المسلمين ما أنفق من صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن، وما نعلم أحداً من المهاجرات، ارتدت بعد إيمانها)[1] بالله ورسوله.

أما من هاجرن فلن يردهن ﷺ للمشركين.. لأنه لا شرط بينهم في ذلك.. اقتنعت قريش ورضيت على مضض بذلك.. فبين يديها يتلبط أبو جندل في قيوده.. لم يلن أبوه سهيل لمرآه.. ولم يتذكر تلك القيود التي كان مكبلاً بها في حجرة سودة رضي الله عنها بعد أسره في غزوة بدر.. لقد أعماه الشرك عن الشعور بالقيود.. بل أعماه عن الشعور بالأبوة تجاه ابنه أبي جندل..

سلم المسلمون والمشركون بالمعاهدة.. فتحولت أرض الحديبية إلى ساحة للسلام.. اختلط فيها الجميع: المؤمنون والكافرون.. ولا بد أن ذوي الأرحام والصداقات الماضية رأى بعضهم بعضاً.. ووصل بعضهم بعضاً.. لكن هناك من المشركين من لا ينفع معه عهد ولا ميثاق.. ولا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.. هناك من تجثم بين أضلعه أحقاد ومخالب.. فحاول إفساد كل شيء.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٣٣).

بعض المشركين ينقضون المعاهدة

يقول سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (ثم إن المشركين راسلونا الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا. وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله، أسقي فرسه، وأحسه[١]، وأخدمه، وآكـل مـن طعامـه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شـجرة فكسـحت شـوكها[٢]، فاضطجعت في أصلها، فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ، فأبغضتهم، فتحولت إلى شـجرة أخـرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا، فبينما هم كذلك، إذ نادى مناد مـن أسفل الوادي:

ياللمهاجرين.. قتل ابن زنيم.

فاخترطت سيفي[٣]، ثم شددت[٤] على أولئك الأربعة وهم رقـود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثاً[٥] في يدي.

ثم قلت: والذي كرم وجه محمد.. لا يرفع أحد مـنكم رأسـه إلا ضربت الذي فيه عيناه. ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ.

وجاء عمي عامر برجل من العبلات[٦] يقال له: مكرز، يقـوده إلى

---

(١) أحك ظهره بالمحسة.

(٢) كنست ما تحتها من الشوك.

(٣) سللته.

(٤) هجمت.

(٥) حزمة.

(٦) من قريش نسبة لأمهم التميمية (عبلة).

رسول الله ﷺ على فرس مجفف[1] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال:

دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه. فعفا عنهم رسول الله ﷺ)[2] كما عفا عن أولئك الغادرين أثناء كتابة العقد.. وكان عدد هؤلاء الغادرين أكثر من سبعين.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلماً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[4].

كان للنبي ﷺ رأيٌ لا يخيب في صاحبه سلمة بن الأكوع.. كان يدرك ما لدى هذا الرجل من بأس وشجاعة ولذلك بايعه ثلاث مرات..

ولذلك بايعه على الموت.. ومازال لدى سلمة الكثير.. الكثير لله ولرسوله ﷺ.. ومازال لدى سلمة الكثير ليقوله لنا عن الحديبية وما بعدها..

ها هو سلمة يستعد للرحيل فـ:

النبي ﷺ يعود بأصحابه إلى المدينة

نهض جيش المؤمنين مع نبيه ﷺ متوجهين نحو المدينة.. عادوا والهموم طريق.. ومرابع مكة وكعبتها تلوح في خيالهم.. عادوا منكسرين يلفهم

---

(١) مجلل بشيء يقيه الجراح في الحرب.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٨).

(٤) سورة الفتح: الآية ٢٤.

الوجوم والحزن.. حتى أقبل الليل عليهم.. صلى الجميع المغرب والعشاء وحان موعد النوم.. فحدثت القصة:

قصة النوم حتى طلوع الشمس

هل كان من أسباب ذلك النوم العميق ذلك الحزن الثقيل على بيت الله الحرام..؟ الله أعلم.. لكن ابن مسعود يقول رضي الله عنه:

(أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الحديبية، فذكروا أنهم نزلوا دهساً من الأرض -يعني الدهاس: الرمل- فقال:

من يكلؤنا؟ فقال بلال: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: «إذاً ننام، فناموا حتى طلعت الشمس، فاستيقظ ناس، منهم: فلان، وفلان، وفيهم عمر».

فقلنا: اهضبوا -يعني- تكلموا.

فاستيقظ النبي ﷺ، فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون.

ففعلنا. وقال: كذلك فافعلوا لمن نام أو نسي[1].

وضلت ناقة رسول الله ﷺ فطلبها فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة، فجئت بها إلى النبي ﷺ، فركب مسروراً)[2] وسار وسار معه أصحابه..

---

(١) يعنى صلوا بعد قيامكم من النوم.

(٢) صحيح إسناده الإمام الألباني في الإرواء (٢٩٣) وقد رواه الإمام أحمد (٤٦٤/١) واللفظ له ورواه الإمام أبو داود (٤٤٧) والبزار (زوائد - ٢٠٢/١)... كلهم من طريق الثقة: جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن أبي علقمة.. قال: سمعت عبد الله بن مسعود.. ولي ملاحظة بسيطة على هذا التصحيح للسند.. نظراً لأن الشيخ حفظه الله اكتفى بقوله في الإرواء (٢٩٣) إسناده صحيح دون أن يتحدث عن سنده ومتنه لا سيما وهو قد أورده =

يتوقفون للصلاة حيناً.. وللراحة حيناً.. ولما جن عليهم الليل كان ﷺ يسير وعمر بن الخطاب إلى جانبه يحدثه و:

النبي ﷺ لا يرد على عمر

كان ﷺ يسير (وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب: ثكلتك أمك يا عمر.. نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر: فحركت بعيري، ثم تقدمت أمام المسلمين وخشيت أن يترل فيّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، وجئت رسول الله ﷺ فسلمت، فقال:

لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾)(1).

ربما كان ﷺ في لحظات أسئلة عمر مشغولاً.. أو مهموماً.. أو يوحي

=

شاهداً لحديث عند البخاري.. وجعله موازياً لحديث عند مسلم يحمل قصة مماثلة.. لكن عند التدقيق في السند والمتن يتبين عذري في إبداء ملاحظة على تصحيح الشيخ حفظه الله.. فحديث مسلم يتحدث عن خيبر.. وهذا الحديث يتحدث عن الحديبية.. أما من ناحية السند.. ففي هذا السند إشكال حول الراوي عن ابن مسعود رضي الله عنه.. فالرجل مشكوك في صحبته وهو غير الصحابي الذي روى قصة وفد ثقيف.. بل صرح الإمام الدراقطني بأنه مجهول. فقال: لا تصح له صحبة ولا نعرفه.. وقال أبو حاتم: هو تابعي ليست له صحبة.. فإذا تجاوزنا وقلنا إنه تابعي كبير روى عنه ثقتان.. فهذا لا يسمح لنا بقبول مخالفته للحديث الصحيح عند مسلم وأن ذلك وقع بعد خيبر كما سيأتي.. وهو ما مال إليه ابن عبد البر وابن القيم في الزاد.

(1) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٧٧).

إليه.. لكنه كان حساساً تجاه صحابته.. لم يترك عمر لأفكاره تذهب به بعيداً.. لقد دعاه وبشره بـــ:

نزول سور الفتح

وطمأنه.. وقرأ عليه ما نزل.. فسأله عمر سؤالاً أعـــادت إجابتـــه الطمأنينة إلى نفسه.. لقد (نزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه «فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها».

فقال «عمر»:

يا رسول الله أو فتح هو؟ قال: نعم.

فطابت نفسه ورجع)[1] من حيث أتى.. ورجعت سكينته.. وهدأت ثائرته واستبشر خيراً وفتحاً مؤكداً..

أما الصحابي الجليل المدعو: (مجمع بن جارية الأنصاري - وكـــان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال:

شهدنا الحديبية مع رسول الله ﷺ، فلما انصرفنا عنـــها «إذ النـــاس يهزون الأباعر،

فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟

قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ.

فخرجنا مع الناس نوجف، فوجدنا النبي ﷺ واقفاً على راحلته عنـــد كراع الغميم فلما اجتمع عليه الناس» قرأ عليهم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣١٨٢) ومسلم الجهاد (١٧٨٥) واللفظ لـــه والزوائـــد للبخاري.

فقال رجل: يا رسول الله.. أفتح هو؟

قال ﷺ: نعم «والذي نفسي بيده إنه لفتح»[1].

ارتفعت المعنويات.. ونشط الجميع فالنصر في الطريق.. وليس النصر وحده في الطريق.. هناك أشياء وأشياء.. هناك الهبات والمعجزات والدهشة التي لا تنقضي.. سار الجميع نحو المدينة الحبيبة وكلهم شوق وعطش.. وفي الطريق نفد الماء.. ولم يبق أحد معه ماء سوى النبي ﷺ الذي احتفظ به بإناءٍ جلدي صغير يسمونه «الركوة».. حمل الصحابة عطشهم وشكواهم إلى الله ثم رسوله.. فـ:

تحولت الركوة إلى نهر عذب

شرب منها الجميع وتوضأوا وتنظفوا.. يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم؟ قالوا: يا رسول الله.. ليس عندنا ما نتوضأ به، ولا نشرب، إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، «فأدخل يده فيه وفرج أصابعه، ثم قال: [خذوا بسم الله] حي

(١) حكم الإمام الألباني حفظه الله بضعف هذا الحديث في ضعيف أبي داود (٢٦٨) وهو عند التدقيق أقوى من حديث أحمد السابق الذي صححه حفظه الله.. أو قل مثله وذلك لعدة أسباب.. منها: أن علة سند هذا الحديث هو التابعي يعقوب بن مجمع.. وقد قال الذهبي في المستدرك بعد تصحيح الحاكم (١٣١/٢): لم يرو مسلم لمجمع شيئاً ولا لأبيه -يعني يعقوب - وهما ثقتان. وإذا تجاوزنا هذا لأن الذهبي متأخر فالرجل تابعي روى عنه أربعة اثنان منهم ثقات وهما: ابنه مجمع وسفيان الثوري وضعيفان ووثقه ابن حبان.. لكن كل ذلك لا يكفي إلا أن للحديث شاهداً قوياً وهو ما قبله وهو به حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة.

على أهل الوضوء البركة من الله، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصـــابعه [كأنها عيون، فوسعنا وكفانا]، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جلعت في بطني منه، فعلمت أنه بركة)[١] ومعجزة لهذا النبي العظـــيم.. أهداها الله له ولأصحابه.. لخير أهل الأرض.. لأهل الحديبية.. وأهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم.. واصل النبي ﷺ وصحابته الكرام مســـيرهم ثم توقفوا للراحة.. وهذه المرة جاءوا يشكون جوعاً قارساً.. فهل ستحدث

معجزة في الطعام أيضاً

بل وفي الشراب مرة ثالثة.. وذلك (لما رجع رســـول الله ﷺ مـــن الحديبية كلمه بعض أصحابه، فقالوا:

جهدنا وفي الناس ظهر[٢] فانحره لنا فنأكل من لحومه ولندهن مـــن شحومه، ولنحتذي[٣] من جلوده..

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن معهم بقية ظهر أمثـــل[٤]، فقال رسول الله ﷺ:

ابسطوا أنطاعكم[٥] وعباءكم. ففعلوا. ثم قال:

من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره. ودعا لهم ثم قال:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٥٢) والزوائد له (٥٦٣٩).

(٢) ما يركب من الإبل والخيل والبغال والحمير.

(٣) أي يتخذ جلده حذاءً.

(٤) أحسن وأفضل.

(٥) النطع هو البساط من الجلد أو السفرة الجلدية.

قربوا أوعيتكم، [فأكلوا حتى تضلعوا[1] شبعاً ثم لففوا فضول ما فضل[2] من أزوادهم في جربهم] فأخذوا ما شاءوا)[3] وكان من بين الذين أخذوا.. سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي يقول:

(أصابنا جهد، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحزر كم هو؟ فحزرته كربضة العتر[4]، ونحن أربع عشرة مائة، فأكلنا حتى شبعنا جميعاً، ثم حشونا جربنا، فقال نبي الله ﷺ:

فهل من وضوء؟

فجاء رجل بإداوة له، فيها نطفة، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا: ندغفقه[5] دغفقة أربع عشرة مائة.

ثم جاء بعد ذلك ثمانية، فقالوا: هل من طهور، فقال رسول الله ﷺ: فرغ الوضوء)[6].

كانت تلك المعجزات تسلية لتلك النفوس.. وتثبيتاً لتلك القلوب التي

---

(١) امتلأوا شبعاً.

(٢) ما زاد.

(٣) حديث حسن رواه البيهقي (١١٩/٤) من طريقين الأولى من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال: قال ابن عباس. والأخرى: من طريق يحيى بن سليم الطائفي عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الطفيل عن ابن عباس.. والطريق الأولى رجالها ثقات لكن هناك احتمال انقطاع بين ابن عباس وابن شهاب لكن تشهد لها الطريق الأخرى وفيها ضعف يسير من أجل يحيى بن سليم وهو صدوق من رجال الشيخين إلا أنه سيء الحفظ - التقريب (٣٤٩/٢) ويشهد للحديث ما رواه مسلم وهو الحديث التالي.

(٤) أي مبرك العتر.

(٥) نصبه صباً شديداً.

(٦) حديث صحيح رواه مسلم - اللقطة (١٧٢٩).

أصابها ما أصابها بعد صد قريش ورفضها وشروطها الظالمة.. انتهت تلك المعجزات بالصحابة إلى شواطئ الأمن واليقين وانتهو جميعاً إلى مكان بين مكة والمدينة.. قريب من بني لحيان.. وفي ذلك الموقع الحرج.. أثـــار ﷺ حب الفداء والشهادة في أصحابه من جديد.. وكان لسلمة بن الأكـــوع تميز آخر في هذا الموقع.. وبالتحديد:

على جبل بين الحديبية والمدينة

يقول سلمة رضي الله عنه: (ثم خرجنا راجعين إلى المدينـــة، فترلنـــا مترلاً، بيننا وبين بني لحيان جبل وهم مشركون، فاستغفر رســـول الله ﷺ لمن رقى هذا الجبل الليلة —كأنه طليعة النبي ﷺ وأصحابه - قال ســـلمة: فرقيت تلك الليلة مرتين أو ثلاثاً، ثم قدمنا المدينة)[1] ولم يحدث قتال بين النبي ﷺ وبين بني لحيان.. لكن المدينة تعرضت لهجوم مباغت من عصابة من فزارة وغطفان بقيادة رجل يقال له: عبد الرحمن بن عيينة الفزاري.. وقد نهب في ذلك الهجوم كل إبل النبي ﷺ واستاقها غنيمة معه.. فهاجت من أجل ذلك معركة —غزوة كان بطلها فارس الإســـلام: ســـلمة بـــن الأكوع.. حدثت تلك الغزوة في مكان يقال له ذو قرد وبه سميت:

غزوة ذي قرد

يقول بطل هذه الغزوة: (كانت لقاح[2] رسول الله ﷺ ترعى بـــ: ذي قرد، فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخذت لقاح رسول الله ﷺ. فقلت: من أخذها؟

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) ذات الدر من الإبل.

قال: غطفان «وفزارة».

فصرخت ثلاث صرخات: يا صباحاه..

فأسمعت ما بين لابتي المدينة، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم بذي قرد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنبلي، وكنت رامياً، وأقول:

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع)[1]

وذلك بعد أن (قدمنا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ بظهره[2] مع رباح -غلام رسول الله ﷺ- وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة أنديه مع الظهر[3]، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه.

فقلت: يا رباح.. خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه.

ثم قمت على أكمة[4]، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً:

يا صباحاه..

ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز، أقول:

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٦) والزوائد للبخاري (٣٠٤١).

(٢) الدابة التي تركب أو تحمل المتاع والأثقال.

(٣) أي يورده الماء ثم المرعى والعكس.

(٤) أي تل كما جاء في بعض الألفاظ.

فألحق رجلاً منهم، فأصك سهماً في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه[1]، قلت:

خذها وأنا ابـن الأكـوع والـيـوم يـوم الرضـع

فوالله مازلت أرميهم وأعقر[2] بهم، فإذا رجع إلي فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به، حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه علوت الجبل، فجعلت أرديهم[3] بالحجارة، فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه[4]، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً،يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً[5] من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى أتوا متضايقاً من ثنية فإذا هم قد أتاهم فلان «عيينة» ابن بدر الفزاري، فجلسوا يتضحون -يعني يتغدون- وجلست على رأس قرن.

قال «عيينة» الفزاري: ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح[6]، والله ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء من أيدينا.

قال: فليقم إليه نفر منكم، أربعة.

فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، فلما أمكنوني من الكلام، قلت: أتعرفوني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم

---

(١) أي وصلت حديدة السهم إلى كتفه.

(٢) ربما يقصد أنه يجرحهم أو يصيبهم.

(٣) أرميهم.

(٤) تركوها لسلمة.

(٥) أعلام من الحجارة.

(٦) التعب والإجهاد الشديد.

وجه محمد ﷺ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظن.

فرجعوا، فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم: الأخرم الأسدي، على إثره أبو قتادة الأنصاري، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي.

فأخذت بعنان الأخرم.

فولوا مدبرين.

قلت: يا أخرم.. إحذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال: يا سلمة.. إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة.

فخليته، فالتقى هو وعبد الرحمن. فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن «فاختلفا طعنتين فعقر بأبي قتادة» فطعنه، فقتله «أبو قتادة وتحول أبو قتادة إلى فرس الأخرم ثم إني خرجت أعدو في أثر القوم» فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي، حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء، يقال له ذو قرد، ليشربوا منه وهم عطاش. فنظروا إليَّ أعدو وراءهم، فخليتهم عنه –يعني أجليتهم عنه – فما ذاقوا منه قطرة، «فعطفوا عنه وأسندوا في الثنية[1]، ثنية ذي شر وغربت

(١) الطريق في الجبل.

الشمس» ويخرجون فيشتدون[1] في ثنية، فأعدو فألحق رجلاً منهم، فأصكه بسهم في نغض[2] كتفه. قلت:

خذها وأنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرضع

قال: يا ثكلته أمه.. أي أكوعة بكرة[3].

قلت: نعم.. يا عدو نفسه.. أكوعك بكرة «وكان الذي رميته بكرة[4]، فاتبعته بسهم آخر، فعلق به سهمان» وأرادوا فرسين على ثنية، فجئت بها أسوقها إلى رسول الله ﷺ، ولحقني عامر بسطيحة[5] فيها مذقة من لبن، وسطيحة فيها ماء، فتوضأت وشربت، ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأهم[6] عنه، فإذا رسول الله ﷺ «في خمسمائة» قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين، وكل رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها. قلت: يا رسول الله.. خلني فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته.

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النهار، فقال:

يا سلمة.. أتراك كنت فاعلاً؟ قلت: نعم والذي أكرمك.

فقال: إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان. فجاء رجل من غطفان

---

(١) يركضون.

(٢) أعلى غضروف الكتف.

(٣) أي هو الذي جاءنا في الصباح الباكر مازال يلاحقنا.

(٤) مبكراً.

(٥) قربة جلد.

(٦) منعهم عنه.

فقال: «مروا على فلان الغطفاني فـ» نحر لهم فلان جزوراً «فلما أخذوا يكشطون جلدها» فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً، فقالوا: أتاكم القوم، فخرجوا هاربين.

فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة. ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس، وسهم الراجل، فجمعها لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء، راجعين إلى المدينة)[1].

كان سلمة أسطورة من الشجاعة والإقدام.. كان جسداً مفتولاً لله.. يعرق في دروب الشهادة ويترف.. كان قلباً ينبض بالفداء والجسارة.. فلا عجب أن بايعه ﷺ ثلاث مرات.. ولا عجب أن بايعه على الموت.. تمتع سلمة بمرادفة النبي ﷺ على العضباء.. تمتع بلمس جسده الكريم.. وفي ساعات الجد تلك كان لسلمة رغبة في اللهو والتحدي.. في طريق المدينة وأمام عينيه ﷺ وبين يديه مارس سلمة ورجل من الأنصار لهواً وتحدياً ومرحاً.

سلمة يسابق رجلاً من الأنصار يتحدى الجميع

يواصل سلمة رضي الله عنه بقية حديثه فيقول:

(ثم أردفني رسول الله ﷺ وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة، «فلما كان بيننا وبينها قريب من ضمرة» فبينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً، فجعل يقول:

(١) حديث صحيح رواه مسلم - الجهاد (١٨٠٧) والزوائد للبيهقي (١٨٢/٤) وهي صحيحة.. وقد رواه البيهقي من طريقين عن هاشم بن القاسم وهو أحد رواة مسلم لهذا الحديث به.

ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟

فجعل يعيد ذلك، فلما سمعت كلامه «وأنـــا وراء رســـول الله ﷺ مردفي» قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكـــون رسول الله ﷺ. قلت: يا رسول الله.. بأبي وأمي، ذرني فلأسابق الرجـــل. قال: إن شئت.

قلت: أذهب إليك «فطفر عن راحلته» وثنيت رجلـــي، فطفـــرت فعدوت، فربطت عليه شرفاً أو شرفين أستبقي نفسي، ثم عدوت في إثره، فربطت شرفاً أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقه، فأصكه بين كتفيـــه. قلت: قد سبقت.. والله «فضحك و» قـــال: أنـــا أظـــن. فســـبقته إلى المدينة)[1] مشهد بريء ومفرح..

ومرح متاح يمارسه هؤلاء الفرسان العظماء.. بعيداً عـــن التنطـــع والتطرف.. لأنهم بين يديه ﷺ.. ويداه كانتا ربيعاً.. ينثال ذلك الربيـــع للجميع..

والجميع الآن في المدينة.. يرتاحون من عناء الحديبية، وذي قـــرد.. ويغتسلون من غبار السفر.. كانت المدينة بانتظارهم.. لكنـــها لم تكـــن بانتظار هذا الفارس الذي تعشقه مثلهم.. لكنها لا تستطيع احتضـــانه.. هذا الفارس الذي أتعبه الشوق إلى رسول الله ﷺ وأصـــحابه و لم يتعبـــه الأسر ولا السفر و لم تستطع أغلال قومه تحطيمه.. هو الذي حطمها وفر كالريح نحو مدينة الحرية والإيمان.

وصل هذا المشتاق إلى المدينة فإذا هو:

---

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث مسلم السابق.

والمعاهدة بين النبي ﷺ وقريش لا تزال سارية المفعول والبنود.. فماذا سيكون مصيره وهو الهارب من قومه.. المهاجر إلى الله ورسوله ﷺ.. هل سيرده كما رد أبا جندل من قبل.. لقد (رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاء أبو بصير -رجل من قريش- وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين.

فقالوا: العهد الذي جعلت لنا. فدفعه ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل.. والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد[1] وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً.

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله.. قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم.

قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر)[2] في هذه الأثناء التي لجأ فيها أبو بصير إلى جوار البحر.. فر أبو جندل من أسره وانطلق يحمل حريته بيديه.. وترامى إلى سمعه أن أبا بصير هناك على ساحل البحر الأحمر.. فانطلق إليه واتحد معه في تشكيل مساحة

(١) أي ضعف وفتر والمقصود أنه مات.

(٢) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

من الرعب والخوف ليس لها حدود سوى الموت.. فبعد أن (قال النبي ﷺ ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم)[1] وتركوا لقريش النواح على قتلاها والندم على صدها لمحمد وأصحابه.. والندم على تلك الشروط التي زرعت في طريقها أولئك الأسود.. أولئك الشباب الذين ضيقت عليهم طواغيت الشرك كل طرق الحياة الهانئة.. وأشرعت لهم طريقاً واحداً.. طريق العنف المضاد.. فحول أولئك الشباب ذلك الطريق إلى نهر تهدر فيه دماء قريش وكرامتها..

أما محمد ﷺ فهو في حل مما يحدث.. ولا مسؤولية عليه مادام هذا العنف المضاد لا يمارس داخل حدود دولته.. فقد رفض استقبال أولئك المظلومين تنفيذاً لشروط قريش وإرادتها الظالمة.. فلتتحمل قريش مسؤولية طغيانها.. أما النبي ﷺ.. فبعد أن رد صاحبه أبا بصير الذي جعلته المعاهدة طريداً شريداً.. لا يملك مساحة يعيش عليها سوى مساحة سيفه.. توجه ﷺ إلى أصحابه المتعبين من طول السفر وأمرهم بالاستعداد من جديد.. لسفر جديد.. فقد أمن شر قريش.. وأشغلها أبو بصير وأبو جندل ومن معهما بالرعب المشروع والسيوف الملتهبة.. وقد حان تأديب أحد أطراف معركة الخندق.. وهم اليهود القابعون في حصون خيبر.. فلا يكفي قتل قائدهم الخائن أبي رافع (سلاَّم بن أبي

(١) هو حديث المسور ومروان الطويل الصحيح.

الحقيق) وهو داخل حصنه في خيبر.. ففي داخل ذلك الحصن أكثر من سلاّم.. وأكثر من خيانة.. لذلك قرر ﷺ

غزو خيبر

وذلك بعد ثلاثة أيام فقط من عودته من غزوة ذي قرد.. يقول سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه في نهاية حديثه عن سباقه مع ذلك الأنصاري: (فسبقته إلى المدينة. فوالله، ما لبثنا إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ﷺ)[1].

وقبل أن يخرج النبي ﷺ دعا صحابياً جليلاً يدعى سباع بن عرفطة فأمره بالبقاء في المدينة، ثم توجه إلى (خيبر وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة)[2] وجعله أميراً عليها ثم سار إلى خيبر.. وفي الطريق خيم الليل وانتشرت نجومه.. فأيقظ ذلك المناخ المخملي شجون أحد الصحابة.. وحرك مشاعره.. فالتفت إلى عم سلمة بن الأكوع واسمه: عامر.. وكان داخل عامر رضي الله عنه من الأجواء ما يوازي ذلك المناخ.. وما يشبع حاجة ذلك الصحابي ويطربه.. فقد كان عامر شاعراً.. وكان عذب الصوت أيضاً.. فطلب منه أن يتغنى بأبيات ومشاعر.. يقول سلمة رضي الله عنه:

(خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر.. فتسيرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع:

ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فترل يحدو بالقوم «فجعل عمي عامر يرتجز» بالقوم يقول:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق عند مسلم (١٨٠٧).

(٢) سنده قوي وسيأتي بعد الحديث التالي.

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أتينا
«والمشركون قد بغوا علينا» ... وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر.

قال: يرحمه الله «غفر لك ربك.. قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد. فنادى عمر بن الخطاب، وهو على جمل: يا نبي الله.. لولا ما متعتنا بعامر» فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله.. لولا أمتعتنا به)[1].

يا لها من ليلة.. تغنى فيها عامر وحرك مشاعر الصحابة.. وشد حداؤه النبي ﷺ حتى سأل عنه.. فدعا له بالمغفرة والرحمة.. وبشره بالشهادة.. فتمنى عمر بقاءه بينهم..

مشهد عذب يقدمه ﷺ للمتنطعين.. لم يكن الشعر حميماً في طريق خيبر فحسب.. فالشعر في كل مكان تتحرك فيه المشاعر.. ولئن تحركت مشاعر عامر وهو في طريقه إلى خيبر.. فلقد تحركت مشاعر عبقري الإسلام وذاكرته وهو في طريقه إلى المدينة.. إلى النبي ﷺ.. العلم يمان.. وهذا اليماني العظيم.. المتعطش للنبي ﷺ.. المتعطش للعلم.. في طريقه للمدينة.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٠٢) والزوائد للبخاري.. والشطر الزائد لمسلم.

أبو هريرة في الطريق

قادم من دوس.. من اليمن.. ذاكرة تحلم بأحاديث الحبيب ﷺ ليس بين سطورها مكان للدينار والدرهم.. أبو هريرة قادم لا يملك من الدنيا سوى غلام.. وحتى هذا الغلام ضاع.. خيم الليل والفقر على أبي هريرة.. وخيم الشعر كذلك.. لـ (أنه لما أقبل يريد الإسلام ومعه غلام ضل كل واحد منهما من صاحبه)[1] يقول رضي الله عنه عن تلك الليلة: (لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق:

يا ليلة من طولها وعنائها　　　على أنها من دارة الكفر

وأبق مني غلام في الطريق)[2]

واصل أبو هريرة معاناته ومسيره حتى وضعته أقدامه على أرض المدينة.. وربما كانت أمه بصحبته فقد كان من أعظم الناس براً.. رغم كفرها ورفضها للإسلام.. وصل أبو هريرة ليلاً فلم يجد النبي ﷺ.. سأل عنه فقالوا له إنه قد توجه إلى خيبر.. سأل عن نائبه في المدينة.. فقيل له إنه يدعى سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله عنه.. لم يكن أبو هريرة وحيداً في رحلته.. لـ: (أن أبا هريرة قدم المدينة في نفر من قومه وافدين وقد خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر، واستخلف على المدينة رجلاً من بني غفار يقال له: سباع بن عرفطة، فأتيناه وهو في صلاة الصبح، فقرأ في الركعة الأولى: كهيعص، وقرأ في الركعة الثانية: ويل للمطففين. قال أبو هريرة: فأقول في الصلاة: ويل لأبي فلان له مكيالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال.. كال بالناقص، فلما فرغنا من صلاتنا أتينا سباعاً،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣٠).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٥٣١)

فزودنا شيئاً حتى قدمنا على رسول الله ﷺ)[1] لم يتحرك أبو هريرة ومن معه فقط نحو أرض خيبر.. كان هناك من يشق عباب البحر نحو خيبر.. سفينة تحمل المؤمنين.. تحمل الغرباء المعذبين.. جعفر بن أبي طالب وزوجته ومن معهما من المهاجرين الأولين.. أبو موسى الأشعري ومن معه من مهاجري اليمن.. اجتمعوا في الحبشة.. ولما وصلهم خبر الحديبية واستقرار الأمر على الصلح.. ركبوا أمواج البحر والفرح حتى قذفتهم على سواحل البحر الشرقية.. رياح المشاعر كلها نحو خيبر.. هبَّ الجميع نحوها إلا:

علي بن أبي طالب يتخلف في المدينة

لم يأمره النبي ﷺ بالبقاء.. ولم يعينه بديلاً لسباع بن عرفطة فما الذي يجعلك يا أبا الحسن بعيداً عن حبيبك؟

سلمة بن الأكوع يجيب عن علي رضي الله عنهما فيقول:

(كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان رمداً، فقال: أنا أتخلف عن النبي ﷺ، فلحق به)[2].

إذا فهو الرمد.. وكيف يقاتل المرء وعينه مصابة بالرمد.. لكن علي رضي الله عنه قرر ذلك.. وطار نحو حبيبه ﷺ متناسياً معاناته ومرضه وعينه.. حتى وصل إلى النبي ﷺ.. الرجال على الخيل والإبل والأقدام من كل مكان يتجهون نحو مهوى الفؤاد وقرة العين محمد ﷺ.. ونحو خيبر..

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم (٣٨/٢) والبيهقي (٣٩٠/٢) وأحمد (٣٤٥/٢) وابن سعد (٣٢٧/٤) من طرق عن خثيم بن عراك بن مالك.. وعراك ثقة فاضل وابنه صحيح الحديث انظر التقريب (١٧/٢) (٢٢٢/١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٩).

لكن هناك من سبقهم.. وتغلغل في حصن اليهود قبلهم.. القمر.. يهوي من السماء فيقع في حصن خيبر.. فيصيب أحدهم الفزع..

ما هي قصة ذلك

القمر الذي هوى في حصن خيبر

في ذلك الحصن.. حيث الظلام في كل مكان.. حيث اليهود نيام ورسول الله ﷺ في طريقه إلى خيبر.. كانت هناك فتاة من اليهود من بني النضير قدمت خيبر مع أبيها.. وقد قتل أبوها بعد خيانته لله ورسوله بعد معركة الخندق..

وقد تزوجت هذه الفتاة من يهودي يقال له «كنانة بن أبي الحقيق» إنها في لياليها الأولى..

وهي الآن تغط في نوم العرائس.. لكنها ترى شيئاً عجيباً.. لقد رأت في منامها القمر يهوي من السماء ليستقر في أحضانها.. نهضت الفتاة من نومها.. فأخبرت عريسها.. ربما كانت تظن أن هذه الرؤيا ستسعده كما سعدت بها.. لكن هذا العريس فسر هذه الرؤيا بطريقة فريدة من نوعها.. لقد كان تفسيره لهذه الرؤيا لكمة بقبضته القاسية إلى ذلك الوجه الجميل.. لكمة اخضرت منها عيناها..

من هذه الفتاة؟

ومن هو زوجها الملاكم هذا؟

وما تفسير هذه الرؤيا؟

على أرض خيبر..

وفي إحدى حصوها.. تزف الآن أميرة إلى أمير.. يحتفل اليهود بذلك الزفاف على طريقتهم الخاصة.. توجه العروسان إلى مخدعهما بعد أن حل الظلام على تلك الأرض وتلك الحصون..

وبعد أن نامت العروس ونام الأمير ونام الجميع ساد السكون والظلام على أرض خيبر وسمائها..

وفجأة ظهر البدر في السماء.. لم يشاهده أحد سوى الأميرة.. وعندما رمته بطرفها هوى بين يديها واستقر برفق في أحضاها..

انتبهت الأميرة فإذا هو حلم لكنها لا تعرف تفسيره..

وعندما استيقظ أميرها توجهت إليه بود علها تجد لديه تفسيراً لذلك الحلم..

لكن ذلك الأمير كان أرعناً عديم التهذيب.. فقبل أن ينطلق لسانه بالتفسير.. انطلقت قبضته القاسية نحو ذلك الوجه الجميل بلكمة شديدة اخضرت منها عيناها..

ثم بصق بكلمات هي أشد من تلك اللكمة على مشاعر تلك الفتاة.. لقد اقم هذا الجلف المدعو: (كنانة بن أبي الحقيق)[1] هذه الفتاة بأها تحلم بالزواج من ملك المدينة يعني النبي محمد عليه السلام..

(١) هو ابن زعيم خيبر الذي قتله الصحابي عبد الله بن عتيك داخل حصنه في خيبر .. واسمه سلام بن أبي الحقيق وقد مرت معنا قصة اغتياله لأنه كان أحد المتآمرين في غزوة الخندق، وهو الذي آوى زعيم بني النضير حيي بن الأخطب والد هذه الفتاة. وقد قتل حيي في المدينة بعد قدومه من أرض خيبر لتأجيجه الخيانة والغدر بالمسلمين من خلال تحريضه بني قريظة.

بينما تقول تلك الأميرة واسمها صفية بن حيي بن أخطب:

«كان رأسي في حجر ابن أبي حقيق وأنا نائمة فرأيت كأن قمراً وقع في حجري فأخبرته بذلك [قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم قمراً وقع في حجري] فلطمني وقال: تمني ملك يثرب»(١) آلمتها تلك اللكمة.. وأحزنها ذلك التفسير لأنها تقول: «وما كان أبغض إلي من رسول الله.. قتل أبي» حيي بن أخطب. إذاً فهذان العروسان يحملان بغضاً شديداً لهذا النبي القادم من ديار صفية.. من المدينة.. وهما يشتركان في حمل ثأر ثقيل ومرير.. أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو في طريقه إلى خيبر.. وقبل خروجه من المدينة توجه بحديثه إلى صاحبه الكريم أبي طلحة زوج أم سليم فـ «قال لأبي طلحة: التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج من خيبر»(٢).

لم يجد أبو طلحة أنسب من أنس بن مالك ابن زوجته أم سليم رضي الله عنهم جميعاً.. استبشر أنس بهذه الوظيفة - الشرف.. وحدث من حوله فقال: «فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل»(٣).

كان ذلك المسير يهدف إلى تجفيف منابع الغدر المنحدر من أرض

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان واللفظ له (٦٠٧/١١) والطبراني والزيادة له (٦٧/٢٤): من طريق الإمام الثقة حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر.. وعبيد الله ابن عمر بن حفص ثقة ثبت، من أوثق الناس رواية عن التابعي الإمام الثقة نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب.. انظر التقريب (٥٣٧/١) ورواه أيضاً البيهقي في الكبرى (١٣٧/٩) والشيباني في الآحاد والمثاني (٤٤١/٥) (٤١٤).

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٩٣.

خيبر.. أما تاريخ المسير فكان في شهر محرم.. وفي الطريق كان النبي ﷺ يقرأ كل احتمالات الخطر.. وعندما وصل ﷺ إلى وادٍ بين غطفان وخيبر يقال له الرجيع.. توقف لقطع أي إمداد عسكري قد تقوم به غطفان لأصدقائها اليهود.. يقول أحد الصحابة إن النبي ﷺ: «سار إلى خيبر في المحرم.. فنزل رسول الله بالرجيع -واد بين خيبر وغطفان- فتخوف أن تمدهم غطفان.. فبات به حتى أصبح فغدا إليهم» [1].

كان مسير ذلك النبي ﷺ وجيشه حالة من التماهي والود تثير المشاعر والدهشة.. كان ﷺ في مسيره ذلك يفتح لهم قلبه.. يفتح لهم الكنوز ليأخذوا منها ما شاءوا فـ «لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد.. فرفعوا أصواتهم بالتكبير:

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال رسول الله ﷺ:

أربعوا على أنفسكم.. إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً.. إنكم تدعون سميعاً قريباً.. وهو معكم» [2] يقول ذلك الصحابي:

«وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ.. فسمعني وأنا أقول:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-١٩٧ حدثني الزهري عن عروة عن مروان بن الحكم والمسور.. وهذا السند هو سند صلح الحديبية والسابق وهو صحيح.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

فقال لي: يا عبد الله بن قيس.. قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: ألا أدلك على كلمة من كتر من كنوز الجنة؟

قلت: بلى يا رسول الله.. فداك أبي وأمي.

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

ورآه مولاه شقران رضي الله عنه في فسحة جديدة لهذه الأمة.. وسياحة مع الله دون مشقة أو تعب.. يقول شقران: «رأيته يعني النبي ﷺ متوجهاً يوم خيبر على حمار، يصلي يومئ إيماء»[٢].

دون الحاجة إلى مس ظهر الحمار أو مس وجه الأرض.. أو القيام عليها.. بل دون التوجه إلى القبلة.. وكان ﷺ لا يبالي أين اتجه به الحمار. يقول ابن عمر رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي على حمار وهو موجه إلى خيبر»[٣] وخيبر في جهة الشمال والطريق متعرج والنبي يحتاج إلى التعرج معه.. ويقول ابن عمر «إن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته حيث توجهت به»[٤].

وكان ﷺ يتفقد أصحابه في كل جهة.. فلم يكن بمعزل عنهم مكتفياً بإصدار الأوامر والنواهي.. كان يشملهم برعايته ويحتضنهم بقلبه.. «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم»[٥].

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٢) حديث حسن رواه أحمد ٣-٤٩٥ والطبراني في المعجم الأوسط ٣-١٤٩ من طريق مسلم ابن خالد الزنجي عن عمرو بن يحيى عن شقران. ومسلم صدوق له أوهام كثيرة لكن يشهد للحديث ما بعده.

(٣) صحيح مسلم ١-٤٨٧.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨٦.

(٥) سنده صحيح رواه أبو داود ٣-٤٤ وغيره من طريق إسماعيل بن علية، ثنا الحجاج بن أبي

وكانوا كلهم يخدمونه.. ويتسابقون من أجل ذلك رغم أن النبي ﷺ قد حدد من يخدمه..

هذا أحدهم أنس بن مالك يقول رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ قال لأبي طلحة التمس غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خيبر، فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل فكنت أسمعه كثيراً يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»[1] سمع أنس ذلك الدعاء، لكن غيره: سمع دعاء جديداً وذلك بعد صلاة الفجر.. خلال تلك الأجواء الساحرة.. وليس هناك أجمل من فجر الصحاري.. وليس هناك ألذ من النهوض فيها.. كان ﷺ «يحرك شفتيه بشيء بعد صلاة الفجر، فقيل له: يا رسول الله.. إنك تحرك شفتيك بشيء ما كنت تفعله.. فما هذا الذي تقول؟ قال ﷺ: أقول: اللهم بك أحاول وبك أقاتل وبك أصاول»[2]. فجر جديد معطر بالنشاط والتوحيد.. حمل الصحابة رضي الله عنهم مع نبيهم حتى وصلوا إلى مكان يقال له: الصهباء.. وذلك قبل العصر.. وكان: الوصول إلى الصهباء يعني الاقتراب جداً من خيبر.. فالصهباء هي أول منطقة خيبر.. يقول أحد

=

عثمان عن أبي الزبير أن جابر بن عبد الله حدثهم قال أبو الزبير لم يدلس والحجاج ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-١٥٣ وكذلك إسماعيل: ١-٦٥.

(١) صحيح البخاري ج: ٣ : ١٠٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن حبان ٥-٣٧٤ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب.. وعبد الرحمن تابعي كبير وثقة من رجال الشيخين. التقريب ١-٤٩٦ وكذلك ثابت، أما حماد فإمام ثقة لكنه من رجال مسلم فقط.

الصحابة واسمه: سويد بن نعمان: «إنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر.. حتى إذا كانوا بالصهباء -وهي أدنى خيبر- فصلى العصر.. ثم دعا بالأزواد.. فلم يؤت إلا بالسويق.. فأمر به.. فثري.. فأكل رسول الله وأكلنا.. ثم قام إلى المغرب.. فمضمض.. ومضمضنا.. ثم صلى ولم يتوضأ»(١).

ثم سار ﷺ حتى وصل إلى مشارف حصون خيبر..

هنا توقف ﷺ ليتأكد من أن يهود خيبر مازالوا على غدرهم وكفرهم وأن أرضهم خالية من الإسلام .. سينتظر حتى بزوغ الفجر.. فإذا لم يرفع الأذان من داخل الحصون.. فإنه سيشن غارته عليهم..

لا أذان في حصون خيبر

ويقول أنس رضي الله عنه: «كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر وقدمي تمس قدم رسول الله ﷺ.. فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشيهم وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم»(٢).

(وكان إذا غزا بنا قوماً لم يغزُ بنا حتى يصبح وينظر.. فإن سمع أذاناً كف عنهم.. وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم.

فخرجنا إلى خيبر.. فانتهينا إليهم ليلاً.. فلما أصبح و لم يسمع أذاناً ركب.. وركبت خلف أبي طلحة.. وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ.

فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم [خرجوا بالمساحي على أعناقهم] فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد.. والله محمد والخميس [فلجأوا إلى الحصن]

---

(١) صحيح البخاري ١-٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٤٥.

فلما رآهم رسول الله ﷺ [رفع النبي يديه] قال: «الله أكبر.. الله أكبر خربت خيبر.. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1].

سمع اليهود التكبير.. ورأوا خيل الله تزحف نحوهم فلجأوا إلى حصونهم.. وتركوا الرعب والجيش يتجولان في أزقة خيبر وشوارعها.. أما الحصون فقد اكتظت بالجبن واليهود.. فاحتل جيش الإسلام ما أمامه من مساحات دون الحصون «فغلب على النخل والأرض»وأرجأ فتح الحصون إلى الغد لصعوبة اقتحامها.. ولما جاء الغد نادى ﷺ صاحبه الصديق..

أبو بكر يقود أول حملة على حصون خيبر

ناداه النبي ﷺ وأعطاه الراية.. فامتثل رضي الله عنه دون تردد .. يقول بريدة «حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر ولم يفتح له»[2] أي لم يتمكن من فتح حصن خيبر.. وكانت تلك السرية تضم ثلة من شجعان الصحابة إلا واحداً.. هو علي بن أبي طالب الذي كان يشكو من رمد في عينيه.. وفي اليوم الثاني كرر النبي ﷺ المحاولة.. لكنه أعطى اللواء هذه المرة لـ :

عمر بن الخطاب يقود الحملة الثانية

يقول بريدة وهو أحد الذين شاركوا في تلك الحملات: «وأخذ من الغد عمر فانصرف ولم يفتح له.. وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد» فقد حاولوا وحاولوا ولكن شدة التحصين كانت حائلاً دون الفتح.. لكن

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٢١ والزوائد له ٣-١٠٩٠ و٣-١٣٣٣.

(٢) تخريجه في نهاية الحديث.

النبي ﷺ -رغم ذلك- يبشر بفتح خيبر.. فبعد أن استعصت تلك الحصون على السرية الأولى والثانية «قال رسول الله ﷺ: إني دافع لوائي غداً إلى رجل يحب الله ورسوله.. ويحبه الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له»[1] «يفتح الله على يديه ليس بفرّار»[2].

كانت المشاعر تحاصر حصون خيبر.. وتدفع بالشمس نحو الشروق.. هبت أنسام الفجر فنهض الصحابة للصلاة.. وعندما أشرقت الشمس خرج أشجع رجل في اليهود.

ملك خيبر يبحث عن مبارز

رجل جمع الملك والفروسية.. فمن سيتصدى له..؟ أتذكرون ذلك الشاعر الذي كان يطرب الصحابة في الطريق إلى خيبر.. إنه عم سلمة بن الأكوع.. واسمه عامر بن الأكوع.. عامر هذا جمع الفروسية والشعر والحداء والتحدي أيضاً..

يقول ابن أخيه سلمة: «خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب.. شاكي السلاح بطل مجرب.. إذا الحروب أقبلت تلهب وبرز له عمي عامر فقال:

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٥-١٠٩ وأحمد ٥-٣٥٣ وغيرهما من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة قال سمعت أبي؛ بريدة.. وعبد الله تابعي ثقة والحسين بن واقد ثقة من رجال مسلم.. التقريب ١-١٨٠.

(٢) حديث صحيح بطرقه رواه مسند أحمد ١-١٣٣ المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال كان أبي يسمر مع علي ورواه ابن أبي شيبة ٧-٣٩٦ من طريق عبيد الله قال حدثنا نعيم بن حكيم عن أبي مريم عن علي والنسائي في الكبرى ٥-١٤٤ عمران بن بكار بن راشد قال حدثنا أحمد بن خالد قال حدثنا محمد عن عبد الله بن أبي نجيح عن أبيه أن معاوية ذكر علي بن أبي طالب فقال سعد..

قد علمت خيبر أني عامر ... شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر.. وذهب عامر يسفل له.. فرجع سيفه على نفسه.. فقطع أكحله فكانت فيها نفسه..

فخرجت فإذا أصحاب النبي ﷺ يقولون بطل عمل عامر.. قتل نفسه..

فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي.. فقلت: يا رسول الله بطل عمل عامر؟

قال رسول الله ﷺ: من قال ذلك؟ قلت: أناس من أصحابك.

قال: كذب من قال ذلك.. بل له أجره مرتين ثم أرسلني إلى»[١].. فارس خيبر لهذا اليوم.. لكن تفاصيلاً حدثت قبل إرساله نحتاج إلى معرفتها.. فالصحابة ينتظرون اسم الفارس الذي سيفتح خيبر.. يقول سهل بن سعد عن تشوق الصحابة وتجمعهم لذلك:

«فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها»[٢] كل الصحابة يرجوها.. كلهم مرشحون إلا واحداً.. عمر بن الخطاب يحدثنا عن مشاعر ذلك الصباح فيقول:

«فما أحببت الأمارة قبل يومئذ.. فتطاولت لها.. واستشرفت رجاء أن يدفعها إلي»[٣] وبريدة رضي الله عنه يقول: «وأنا فيمن تطاول لها»[٤].

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

(٣) مر تخريجه وهو صحيح.

(٤) سنده صحيح رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وغيره من طريق إسرائيل عن عبد الله بن عصمة قال سمعت أبا سعيد الخدري. وعبد الله بن عصمة أبو علوان تابعي صدوق قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥-١٢٦ سألت أبا زرعة عن عبد الله بن عصمة أبي علوان فقال كوفي ليس به بأس.

أما النبي ﷺ فقد كرر بث الحماس في أصحابه كما فعل في غـزوة أحد فقال: من يأخذ الراية بحقها؟

«أخذ رسول الله ﷺ الراية فهزها ثم قال: من يأخذها بحقها؟

فجاء الزبير فقال: أنا

فقال: أمط ثم قام رجل آخر فقال: أنا فقال: أمط ثم قـام آخـر.. فقال: أنا فقال: أمط فقال رسول الله ﷺ: والذي أكرم محمد لأعطينـها رجلاً لا يفر بها»(١).

صرح النبي ﷺ بفارس هذا اليوم ونطق باسمه.. كان اسماً غير مطروح ولا متوقع.. نظراً لظروف هذا الفارس والحالة التي يمر بها.. فهو لم يشارك في أي سرية من السرايا.. وما أخرجه من المدينة سوى الشوق لنبيـه ﷺ وإلا فهو في حالة عذر عن القيام بأعباء الجهاد.. بل إنه عاجز تماماً عـن الجهاد.. رغم ذلك كله:

النبي ﷺ ينادي علياً

غدا الصحابة «على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله.. فأرسـلوا إليـه فأتوني به»(٢).

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حنبل في فضائل الصحابة ٢-٦١٧ وغيره من طريق إسرائيل عن عبد الله بن عصمة قال سمعت أبا سعيد الخدري. وعبد الله بن عصمة أبو علوان تـابعي صدوق قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥-١٢٦ سألت أبا زرعة عن عبد الله بـن عصمة أبي علوان فقال كوفي ليس به بأس.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٧.

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه خارج قوائم الترشيح عند الصحابة.. حتى لقد قال سلمة بن الأكوع: «فإذا نحن بعلي وما نرجوه»[1].

وذلك لشدة الرمد الذي أصاب عينيه.. بل إن علياً نفسه لا يتوقع ذلك.. وإلا لجاء مع الصحابة المتلهفين إلى الإمساك بالراية.. لقد كان علياً مشغولاً بعينيه ومرضه.. لكن قوة إيمانه وعزمه حملاه على المشاركة المعنوية بعد أن تعذرت عليه المشاركة البدنية.. إن كرامة الله لعلي رضي الله عنه تشابه كرامته لعمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام.. شيخان انتزعا نفسيهما من ظروف قاهرة وصعبة.. عمرو بن الجموح كان شديد العرج.. وعبد الله بن حرام لديه تسع بنات.. أما علي رضي الله عنه فقد قال لنفسه بعد أن غادر النبي ﷺ أصحابه نحو خيبر «أنا أتخلف عن النبي ﷺ فلحق به»[2].

غداً موعد لفتح جديد.. وغداً ستشرق الشمس على أرض جديدة بالإسلام.. وأرض جديدة للإسلام.. لكن ماذا عن فاتحها وهل هذه الصفات لا تنطبق إلا على رجل واحد فقط..؟ الصفات والأحداث تقول: لا.. فالنبي ﷺ قال: يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.. وهذا الجيش ينعم كله بهاتين الصفتين.. لأنه جيش الحديبية الذي قال الله عنه: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾.

أما قول النبي ﷺ: ليس بفرار.. فهذه الصفة يتزين بها أبو بكر وعمر

---

(١) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٠٨٦.

(٢) مر معنا في أول الغزوة وهو صحيح.

وعلي وأبو عبيدة والزبير وابن عوف وابن عبادة والمقداد وأبـو دجانة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم.. وغيرهم.

إذاً فهو تكريم من الله للفاتح غداً.. كتكريمه لوالد جابر بن عبد الله في غزوة أحد.. ولا شيء يؤكد هذا مثل الشعور الذي انتاب الصحابة وهم ينتظرون ذلك الغد على أحر من الشوق.. هذا بريدة رضي الله عنه يتحدث عن مشاعر الصحابة فيقول: «فما منا إنسان له مترلة عند رسول الله ﷺ إلا هو يرجو أن يكون صاحب اللواء»(١) ثم يتحدث رضـي الله عنه عن مشاعره الخاصة فيقول: (وأنا فيمن تطاول لها)(٢) ويقول سهل بن سعد: «فبات الناس يدكون ليلتهم أيهم يعطاها»(٣) أما عمر بن الخطاب فيصف شوقه قائلاً: «ما أحببت الأمارة إلا يومئذ فتساورت لها رجاء أن أدعى لها»(٤).

امتثل الصحابة فبعثوا سلمة بن الأكوع إلى علي.. فوجده على حال يرثى لها.. وصل «إلى علي وهو في الرحى يطحن»(٥) لإخوانه المجاهدين.. فاكتفى علي بأن يكون خادماً لنبيه وإخوانه. يقول سلمة رضي الله عنه: «فبعثني إلى علي وهو أرمد.. فجئت به أقوده»(٦).

---

(١) حديث الحسين بن واقد السابق.

(٢)حديث الحسين بن واقد السابق.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٧٢.

(٤) صحيح مسلم ٤-١٨٧١.

(٥) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطـبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة قال حدثنا يحيى وهو ابن أبي سليم أبو بلج قال حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ.. عمرو بن ميمـون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ ومن هو الذي لا يخطئ؟ التقريب: ٢-٤٠١.

(٦) صحيح مسلم ٣-١٤٤٠.

«فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر»[١] «فقال: يا نبي الله ما أكاد أبصر فنفث في عينه»[٢] «ودعا له.. فبرأ كأن لم يكن به وجع»[٣] «وهز الراية ثلاثاً ثم دفعها إليه»[٤] وبعد أن أعطاه الراية أمره بأمر ينضح بالانتصارات.. أمر كالسيف:

لا تلتفت

أخذ فارس خيبر راية الإسلام منطلقاً إلى حصون خيبر.. لكنه تذكر رسالته التي يحملها في صدره.. رسالته التي أخرجته من داره بمكة.. فهو لا يحتاج إلى دماء هؤلاء اليهود الخونة.. فهل سيلتفت والنبي ﷺ قد قال: («امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

فسار علي شيئاً ثم وقف ولم يلتفت [للعزمة] فصرخ: يا رسول الله.. على ماذا أقاتل الناس؟ [أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟].

---

(١) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة قال حدثنا يحيى وهو ابن أبي سليم أبو بلج قال حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ.. عمرو بن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ ومن هو الذي لا يخطئ؟ التقريب: ٢-٤٠١.

(٢) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة قال حدثنا يحيى وهو ابن أبي سليم أبو بلج قال حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ.. عمرو بن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ ومن هو الذي لا يخطئ؟ التقريب: ٢-٤٠١.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

(٤) سنده حسن رواه النسائي في الكبرى ٥-١٧٩ والحاكم ٣-١٤٣ والطبراني ١٢-٩٨ وغيرهم من طريق الوضاح وهو أبو عوانة قال حدثنا يحيى وهو ابن أبي سليم أبو بلج قال حدثنا عمرو بن ميمون أن بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ.. عمرو بن ميمون ثقة مخضرم ويحيى صدوق ربما أخطأ ومن هو الذي لا يخطئ؟ التقريب: ٢-٤٠١.

قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فإذا فعلوا فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[1].

كل هذا التجاوز.. وكل هذه الأجواء الرحبة مفتوحة لليهود.. سيتم التغاضي عن خياناتهم وغدرهم يوم الأحزاب وقبله مقابل ماذا؟

مقابل الدخول في دين الله وعبادته وحده.. فالهدف ليس تطهير حصون خيبر وأرضها.. بل تطهير قلوب ساكنيها من الكفر الذي حول حياتهم وسلوكياتهم إلى خيوط وعقد من المؤامرات السوداء التي تخنق الأمن والأنفاس.. لم يعرض النبي ﷺ عليهم دفع فدية.. هو الإسلام أو عقوبة الخيانة.. وبالإسلام يحتفظون بأموالهم ودمائهم وديارهم.. لكنهم يهود.

أما علي المتوجه كالصاعقة نحوهم فقد قدم له النبي ﷺ ولأتباعه كلمات كالمطر.. قال ﷺ لعلي: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم.. ثم ادعهم إلى الإسلام.. وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه.. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[2].

قدَّم ﷺ تلك النصائح لأنه لا يأس مع الدعوة إلى الله.. ولو كنت تخاطب خائناً حاقداً متطوياً داخل حصون خيبر..

انطلق علي حاملاً رايته.. وحاملاً أملاً بدخول هؤلاء القوم في دين الله.. ولما نزل بساحتهم.. دعاهم إلى الإسلام كما أمر.. لكنه جوبه

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٧١ والزيادة صحيحة وهي في ابن حبان ١٥-٣٧٩ إبراهيم بن الحجاج السامي حدثنا حماد بن سلمة عن بقية سند مسلم وهذا السند صحيح. إبراهيم وحماد ثقتان.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٩٦.

برفض قاطع.. وظن القوم أن هذا الجيش سيعود كما عــاد في اليــومين السابقين.. بل لقد فتح باب الحصن.. فخرج منه حتف عنيد.. وفــارس مرعب.. اسمه مرحب.. وهو يتحدى الجميع مرحب .. مرحب يــدعو للمبارزة

خرج مرحب فقال:

قد علمت خيبر أني مرحـــب
شاكي السلاح بطل مجـــرب
إذا الحروب أقبـــلت تلهـــب

فقال علي:

أنا الذي ســـمتني أمي حيدرة
كَلَيثِ غابات كريـــه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحب فقتله[1].

وقتل معه ما تبقى من معنويات اليهود الذين أغلقوا حصونهم بعــد هلاك ملكهم فقام علي رضي الله عنه باقتحام حصنهم الأول ثم الـــذي يليه.. وأثناء ذلك سقط بعض الشهداء من المؤمنين والتحقوا بعامر بـــن الأكوع رضي الله عنه.

واشتد القتال والاقتحام.. وبدأت أرض خيبر تتحول إلى جديد يكتبه الصحابة بدمائهم.. سلمة بن الأكوع.. فارس بحجم جيش لكنه أصيب.. فأنقذته معجزة ساقها الله على يد رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح مسلك ٣-١٤٤٠.

معجزة لجراح سلمة

سأل رجل سلمة بعد أن: «رأى أثر ضربة في ساق سلمة..: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر فقال الناس: أصيب سلمة فأتيت النبي ﷺ.. فنفث ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة»[1].

عاد سلمة إلى بقية الفرسان.. عاد إلى ساحة تختنق فيها الخيانة واليهود.. وانضم النبي ﷺ إلى جنوده يوجههم.. ويؤازرهم.. بل ويبتسم أحياناً في وجوههم.. حدث ذلك عندما بدأ اليهود يتخلصون من بعض الأشياء التي قد يستفيد منها المسلمون القادمون لا محالة.

ابتسامة النبي ﷺ في وجه عبد الله بن مغفل

يقول رضي الله عنه: «كنا محاصرين قصر خيبر فرمى إنسان بجراب فيه شحم فنزوت لآخذه فالتفت فإذا النبي ﷺ [متبسماً] فاستحييت»[2].

كان اليهود يحاربون دون مواجهة.. خلف الحصون.. إلا من كان في مثل شجاعة وبأس ملكهم الهالك (مرحب) أما البقية فمن خلف تجاويف الأسوار ينفثون سهاماً كالموت.. فبينما كان أحد فرسان المسلمين يطارد خلالها شجعان اليهود.. وتطارده كلمات الإعجاب من المحاربين.. تطارده كل عبارات الثناء إلا عبارات تصدر أسفاً عليه.. كلمات أسف من النبي ﷺ على:

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٤١.

(٢) صحيح البخاري ٣-١١٤٩ والزيادة لمسلم ٣-١٣٩٣.

بطل آخر إلى النار

فبعد أن وصل أبو هريرة إلى أرض خيبر قال: «شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام، هذا من أهل النار فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة فقيل يا رسول الله الذي قلت إنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات فقال النبي ﷺ: إلى النار. قال فكاد بعض الناس أن يرتاب»(1).

أخذ هذا الرجل إلى مكان آخر لمداواته، لذلك سنتركه لنتابع أحداث المعركة على أن نعود إليه لاحقاً.. فقصته مثيرة ومؤثرة لكن الساحة الآن تشهد انحسار اليهود وتساقط أسوارهم.. قتل منهم من قتل ولاذ من بقي منهم بآخر حصونهم وأمنعها.. يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى مقرهم.. فغلب على الأرض والنخل والزرع»(2) ولم يبق لليهود سوى المقاومة أو الاستسلام.. فحول هذا السور فرسان كالموت الأحمر أحدهم:

بريدة والموت الأحمر

بريدة رضي الله عنه توهج ذلك اليوم.. لكنه يرى أن توهجه ذلك كان أعظم ذنب ارتكبه في حياته منذ أسلم.. أما لماذا فالسؤال لا يعرف الإجابة عليه سوى بريدة حيث يقول:

«شهدت مع رسول الله ﷺ فتح خيبر.. فكنت فيمن صعد الثلمة..

---

(1) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

(2) سنده صحيح رواه أبو داود في السنن ٣-١٥٧ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر قال أحسبه عن نافع عن ابن عمر أن النبي.. وهذا سند كله أئمة ثقات وهو على شرط مسلم.

فقاتلت حتى رئي مكاني.. وأبليت وعلي ثوب أحمر.. فما علمت أني ركبت في الإسلام أعظم منه.. قال: للشهرة»[1] فمهما كانت إنجازات المسلم عظيمة.. ومشاريعه عملاقة في تكريس هذا الدين إلا أنها تتوقف على بوابة القبول حتى تحصل على بطاقة يقال لها.. النقاء والإخلاص.. كما أن هذا النقاء لا يكفي إلا إذا كان العمل المصاحب له سليماً من التحريف - بدعة أو نقصاً.. يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهذا الأخير هو ما جعل بريدة قلقاً على جهاده يوم خيبر.. لقد خشي أن يكون شيئاً من الرياء قد تسرب إلى صفاء نيته فأفسده.. وأحبط عمله.. رقابة وضعها الإسلام داخل أعماق أتباعه المخلصين وداخل أعمالهم لتبقى نقية بالتوحيد.. وكما خشي بريدة من انهيار عمله بسبب شعوره بالتفوق على الآخرين فإن رجلاً آخر لم تسعفه نيته عندما لوثها بتصرف لا يليق بمسلم.. ذلك هو الجريح الذي يعاني آلاماً شديدة من جراحه في المعركة.. فعندما جن عليه الليل جن جنونه من جرحه وآلامه فأراد أن يطلق رصاصة العذاب على تلك الآلام.. أراد أن يضع حداً لمعاناته.. لكنه أساء العمل فحطم في الليل ما أنجزه في النهار.. يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

«شهدنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر.. فقال -يعني لرجل يدعي الإسلام-: هذا من أهل النار.. فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة فقيل: يا رسول الله الرجل الذي قلت له: إنه من

---

(١) سنده قوي رواه الروياني ١-٧٩ وابن عدي في الكامل ٢-٣٤ من طريق محمد بن مزاحم حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه قال ومقاتل صدوق من رجال مسلم: التقريب ٢-٢٧٢ وتلميذه بكير صدوق وجرحه غير مفسر. انظر ترجمته في التهذيب.. وابن مزاحم أبو وهب صدوق من رجال التقريب ٢-٢٠٦.

أهل النار.. فإنه قتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات.. فقال النبي ﷺ: إلى النار.. فكاد بعض الناس أن يرتاب.. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت ولكن به جراح شديدة.. فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: الله أكبر.. أشهد أني عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً.. فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله عز وجل يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1]. هذا الرجل قتل نفسه بسهم.. وذلك قتل نفسه بسيفه على أرض المعركة يوم أحد وأثناء المعركة.. مع أن كلاً منهما أبلى وتألق وحاز كلمات الإعجاب.. لكن النهاية واحدة.. هي النار.. لأن من أخرجه الله عليه أن ينفذ تعاليم من أخرجه وإلا فليبحث له عن تبرير آخر لجهاده سوى سبيل الله.. ومن قتل نفسه فهو كمن قتل بريئاً دون ذنب فلا مكان في الإسلام لرصاصة الرحمة المزعومة.. لأن المعاناة جزء من الجهاد وهي سبب للتطهير والتكفير والخلاص من الذنوب.. وما خرج المجاهد في سبيل الله إلا لذلك.. لا بد أن شعوراً بالمرارة خالج من رأى بداية هذا الرجل ونهايته.. لكنها ليست كالمرارة التي يشعر بها اليهود الآن والحصار يخنق أنفاسهم..

قد يشعر اليهود بالمرارة.. لكن من المستبعد أن يشعروا بالندم على خياناتهم.. لأن الخيانة جزء من عقيدتهم التي كتبوها وأدرجوها ضمن كتابهم المقدس.. حتى الاستسلام الذي يطل من حصونهم الآن ما هو إلا استسلام يغلف خيانة جديدة..

الاستسلام والخيانة

قرر اليهود أن يستسلموا.. بعد أن فقدوا كل شيء لـ «أن رسول

(١) صحيح البخاري ٣-١١١٤.

الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الأرض والزرع والنخل.. فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم.. ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء.. ويخرجون منها.. فاشترط عليهم أن:

لا يكتموا شيئاً..

لا يغيبوا شيئاً..

فإن فعلوا ذلك فلا ذمة لهم ولا عصمة..

فغيبوا مسكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعم حيي ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير فقال أذهبته النفقات والحروب فقال ﷺ العهد قريب والمال أكثر من ذلك فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك قد دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في خربة فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي حقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم للنكث الذي نكثوه، وأراد أن يجليهم منها فقالوا يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها فكانوا لا يتفرغون أن يقوموا فأعطاهم خيبر»[1] لكن:

كيف يعطي النبي ﷺ خيبر لليهود

لقد قدم اليهود التماساً للنبي ﷺ لم يستعجل برفضه.. بل وجده يعود

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان (١١-٦٠٧) وأبو داود (٣٠٠٦) والبيهقي (٦-١١٤ و٩-١٣٧) قد مر معنا قبل قليل.

على دولته بالفائدة لاسيما وأن هناك ما يبرر قبوله.. فأرجأ عليه السلام قرار الإجلاء إلى مدة مفتوحة على مصالح الدولة المسلمة.. قال عبد الله ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها وكانت الأرض لما ظهر عليها لليهود وللرسول وللمسلمين، فسأل اليهود رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر، فقال رسول الله ﷺ نقركم على ذلك ما شئنا»[1].

يقول ابن عمر: إن ذلك حدث بعد أن نظر عليه السلام إلى رئيسهم المتحدث باسمهم.. نظرة تقرأ خارطة الخيانة في عالم اليهود.. وألقى إليه بكلمات لا يصدق فيها إلا نبي.. قال له: «رسول الله ﷺ: كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟ فقال: كانت هذه هزيلة من أبي القاسم. قال: كذبت يا عدو الله»[2] تلك الكلمات الوقحة التي تلفظ بها ذلك اليهودي ما هي إلا بعض أنفاس اليهود متى ما أمنوا العقوبة.. أما المؤمنون فبعد أن تم لهم النصر.. ذهبوا يلقون عنهم عناء التعب.. والبعض أنهكه الجوع فذهب ليبحث عن لقمة لجوفه الخالي.. لكن هؤلاء لم يجدوا سوى بعض الحمير التي وجدوها خارج المدينة.. فقاموا بذبح بعضها وألقوا لحمها في قدورهم.. أحد هؤلاء اسمه: عبد الله يتحدث عن:

أكل لحوم الحمر الأهلية

يقول رضي الله عنه: «أصابتنا مجاعة يوم خيبر ونحن مع رسول الله ﷺ وقد أصبنا للقوم حمراً خارجة من المدينة فنحرناها فإن قدورنا لتغلي إذ

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٩.

(٢) صحيح البخاري ٢-٩٧٣ والقلوص هي الناقة.

نادى منادي رسول الله ﷺ»[1] بشيء أبقى البطون خاوية.. فقد جاء فقال: «يا رسول الله أكلت الحمر ثم جاء آخر فقال يا رسول الله أفنيت الحمر فأمر رسول الله ﷺ أبا طلحة فنادى إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر فإنها رجس أو نجس.. فأكفئت القدور بما فيها»[2].

امتثل الصحابة لرسول الله ﷺ فقلبوا قدورهم.. واتجهوا إلى الخيل والبغال -وهي قليلة- علها تسد ما بهم من مجاعة.. يقول جابر بن عبد الله: «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل»[3] ولم يقتصر التحريم على هذين النوعين من الحيوانات فقط.. لقد حرم ﷺ لحوم حيوانات أخرى.. وحرم ممارسات أخرى..

فبعد أن قال عليه السلام إثر غزوة الخندق..: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».. وبعد صلح الحديبية.. ونزول سورة الفتح.. وبعد فتح خيبر..

بدأ عملياً توجه الإسلام نحو العالمية

بعد أن ظهر من رحم مكة ونهض من مهد المدينة.. ها هو الإسلام يتهادى نحو العالم.. نحو جهات الدنيا الفسيحة كلها.. لم يعد الإسلام مقتصراً على المهاجرين والأنصار ولا على المدينة فقط.. ولا حتى على القرن الهجري الأول.. إنه للعالم.. للدنيا بأسرها.. ولكل القرون.. وما دام

(١) حديث صحيح رواه مسلم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) حديث حسن رواه أبو داود ٣-٣٥١ وغيره من طريق أبي الزبير عن جابر. وأبو الزبير تابعي ثقة لكنه مدلس وهو هنا لم يصرح بالسماع من شيخه جابر، لكنه لم ينفرد فقد توبع، تابعه التابعي الثقة أبو سلمة بن عبد الرحمن.

الإسلام بهذه المقاييس.. فلا بد أن يقدم مشروعاً يتضمن حلول الحاضر والمستقبل مهما بلغت البشرية من المدينة أو التحضر والرقي.. خيبر اليوم هي إحدى نقاط الانطلاق نحو العالم.. نحو مشاكل العالم والإنسانية..

في خيبر لم يعد الإسلام مأخوذاً بالتطهير الفكري والعقائدي فقط.. في خيبر أبحر الإسلام إلى جزر عذراء وأراض جديدة.. يقدم للبشرية مشروعه الجميل.. ليكون للحياة طعم جميل ونظيف.. ليكون للإنسان غذاء نقي ونظيف.

في خيبر قدم ﷺ قائمة ببعض الممنوعات من الأطعمة والممارسات.. ممنوعات تجعل صحة المسلم وحياته أكثر إشراقاً ونظافة.. يقول جابر رضي الله عنه:

«لما كان يوم خيبر أصاب الناس مجاعة فأخذوا الحمر الإنسية فذبحوها وملؤوا منها القدور فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فأمرنا رسول الله ﷺ فكفأنا القدور فقال: إن الله عز وجل سيأتيكم برزق هو أحل لكم من ذا وأطيب من ذا، فكفأنا يومئذ القدور وهي تغلي فحرم رسول الله ﷺ يومئذ الحمر الإنسية ولحوم البغال وكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطيور وحرم المجثمة والخلسة والنهبة»[1]. وقال أبو ثعلبة

---

(١) حديث حسن ورجاله ثقات وسنده ضعيف: رواه الإمام أحمد (٣-٣٢٣) حدثنا عبد الله حدثني أبي، ثنا هاشم بن القاسم ثنا عكرمة يعني ابن عمار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله.. وسنده ضعيف نظراً لاضطراب رواية عكرمة عن يحيى - التقريب (٣٠/١) لكن للحديث طرق أخرى عند أحمد (١٩٤/٤) والطبراني في الكبير (٢١٦/٢٢) ومسند الشاميين (١٨٣/٢) وهو الحديث التالي: عن بقية عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه وهو ما بعده ولألفاظ الحديث شواهد صحيحة متفرقة.

الخشني رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله ﷺ خيبر والناس جياع فوجدنا منها حمراً من حمر الأنس فذبح الناس منها فحدث رسول الله ﷺ فأمر عبد الرحمن بن عوف فأذن في الناس: إن لحوم الحمر الإنسية لا تحل لمن شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فكفأوا القدور بما فيها ووجدوا في جوانبها بصلاً وثوماً فقال رسول الله ﷺ من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا وقال رسول الله ﷺ لا تحل النهبة ولا كل ذي ناب من السباع ولا تحل المجثمة»(١). من تأمل قائمة الممنوعات تلك يجدها بوابة لكثير من المتاعب الصحية.. لا سيما مع تمدن البشرية القادم وتكاثرها السريع.. مما يجعل التأكيد على نقاء الطعام وسلامته أمراً لا يقبل التهاون.. بل إن الطب ينصح بالاستغناء عن قائمة طويلة من الأطعمة الطيبة إرضاءً للصحة.. فكيف إذا كانت هذه الأطعمة تشتمل على الحمار والبغل اللذين لا يباليان بما يدخل أجوافهما من المزابل وغيرها.. أو الحيوانات المفترسة التي لا تفرق عندما تجوع بين الجيفة وغيرها.. مما يجعلها جميعاً مستودعاً للأوبئة المجهولة والخطيرة.. أما المجثمة ففي تحريم أكلها احترام لحقوق الحيوان في وقت كان العالم لا يرى للحيوان حقوقاً.. حرم الإسلام المجثمة التي يتسلى الجهلة بربطها وجعلها هدفاً للتدريب على الرماية حتى الموت ولو كانوا يدعون أنهم سيأكلونها في النهاية.. ويدخل في المجثمة تلك الثيران التي يتسلى النصارى بتعذيبها ومصارعتها وتمزيق جسدها بالرماح والسيوف.. فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام.. أما النهب والسلب فمن الجرائم الكبيرة التي تنتهك خصوصيات الناس وأموالهم.. وهي أشياء لا يجوز المساس بها مهما كانت الأسباب..

---

(١) انظر ما قبله.

امتثل الصحابة لأن الذي يتحدث نبي مرسل.. ولأنه لا ينطق عن هوى أو رؤية شخصية.. ثم قاموا بالبحث عن أي شيء يطفئ لهب الجوع وسعيره.. فلم يجدوا سوى الأرض..

قال أبو سعيد رضي الله عنه: « فتحت خيبر فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة الثوم والناس جياع فأكلنا منها أكلاً شديداً ثم رحنا إلى المسجد فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد فقال الناس حرمت.. حرمت.. فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي ولكنها شجرة أكره ريحها»(١) «فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»(٢) فالزينة في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾(٣) ليست في اللباس فقط.. فالرائحة الزكية من أجمل الأشياء التي يفضل اصطحابها إلى المسجد.. ومن أسرار عظمة الإسلام تسليطه الأضواء على الجمال مهما كانت الأجواء معتمة والعقول مشغولة والنفوس مشحونة.. فالإنسان في ظرف كظرف الحرب والاجتلاد أو الحماس تمنحه نفسه ويمنحه حماسه مسوغات عديدة للقيام بممارسات قد تؤلم غيره فيتجاوز أهداف خروجه.. هنا يتميز الإسلام عن غيره من الأديان.. فلا مذابح جماعية.. لا انتقام.. لا تهور.. لا سلب ولا نهب.. بل انضباط والتزام وإلا فإنه ليس بجهاد.. والموت فيه ليس بشهادة.

هاهو الجوع مرة أخرى يرغم بعض الصحابة على البحث المرير بعد نفاذ الصلح.. لكن النتيجة كانت أكثر مرارة. صحابي اسمه: ثعلبة بن

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥ – ٨٢٨.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١/٣٩٥– ٨٢٨.

(٣) الأعراف: ٣١.

الحكم قال: «أصبنا يوم خيبر غنماً فانتهبها الناس فجاء النبي ﷺ وقدورهم تغلي فقال ما هذا.. فقالوا نهبة يا رسول الله قال اكفؤوها فإن النهبة لا تحل فكفؤوا ما بقي»[1] لأنها ليست لهم ولا يبرر الجوع أموال الغير.. ترى لو كان هؤلاء القوم من غير المسلمين.. هل يمكن السيطرة عليهم..

كان اليهود غير بعيدين عن تلك المشاهد.. فتحركت النخوة داخل نفوسهم.. كان كرماً.. لكنه:

كرم بنكهة يهودية

تحركت عواطفهم.. ورشَّحوا لإثبات تلك العواطف امرأة قامت بشوي شاة ثم قدمتها للنبي ﷺ.. الغريب في الأمر والمحير كذلك هو حرص المرأة على أن تلك الشاة هي مجرد هدية.. لا صدقة.. حتى تتأكد من عدم رفض النبي ﷺ لها.. لأن الله قد حرم عليه الصدقة.. يقول كعب ابن مالك رضي الله عنه:

«إن امرأة يهودية أهدت إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية بخيبر فقال لها ما هذه؟ قالت هدية وحذرت أن تقول من الصدقة، فأكل وأكل أصحابه ثم قال لهم أمسكوا»[2] أما لماذا أمرهم بالتوقف عن الأكل.. فتلك معجزة إلهية.. فبعد أن «أكل رسول الله ﷺ منها وأكل القوم فقال ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[3] خيانتان لليهود في اليوم

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ١٠-٢٠٥ وغيره من طريق سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال: وسماك تابعي صدوق من رجال مسلم انظر التقريب ١-٣٣٣.

(٢) المعجم الكبير ١٩/٧٠-١٣٧ ومعمر بن راشد في الجامع ١١-٢٨ طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه والزهري تابعي ثقة وإمام معروف.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود٤-١٧٣ الدارمي ١-٤٦ وغيرهما من طريق يونس وشعيب =

نفسه الذي عاهدوا فيه النبي ﷺ.. في الأيام نفسها التي ناشدوا فيها هذا النبي أن يبقي على أرواحهم.. وأن يقبل شراكتهم الاقتصادية تلك.. ويبدو من سلسلة الغدر اليهودي التي حدثت بعد وصول النبي عليه السلام إلى المدينة أن الخيانة تشكل نسبة مرتفعة من دمائهم.. ومع هذا فقد حاول ﷺ استثمار حالة التوجس والخوف من انكشاف جريمتهم.. حاول استثمارها لصالحهم هم.. فهم وإن صدئ معدنهم إلا أنهم لا يزالون بشراً أحياء.. وهاتان الصفتان تفتحان للمسلم فرصاً للدعوة.. حاول من خلالها أن يثبت لعنادهم أنه نبي مرسل.. وأنه لا عذر لهم في رفض الإسلام سوى العناد والمكابرة.. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيه سم، فقال رسول الله ﷺ اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود، فجمعوا له فقال لهم رسول الله ﷺ إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ فقالوا نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ

من أبوكم؟ قالوا أبونا فلان.

فقال رسول الله ﷺ كذبتم بل أبوكم فلان.

فقالوا صدقت وبررت.

فقال هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟

فقالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

=

ابن أبي حمزة وغيرهما عن الزهري قال كان جابر بن عبد الله يحدث.. والزهري إمام ثقة وتابعي معروف والزهري عن جابر على شرط البخاري.

قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهل النار؟

فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم: فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟

قالوا: نعم.

فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟

فقالوا: نعم.

فقال: ما حملكم على ذلك؟

فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضرك»[1].

ها قد تبين أنه نبي وأنه ليس بكذاب.. ثم ماذا؟ لا شيء.. لم يسلم أولئك اليهود.. لم يتركوا عنادهم ودينهم.. لكن النبي ﷺ لم يتركهم.. هناك جريمة وهناك مجرمون.. وهناك صحابة تغلغل السم في أحشائهم وهم الآن على فراش المرض.. وهناك تشريع جنائي عادل.. طلب ﷺ إحضار الجاني.. فأحضرت المرأة المجرمة وتمت مساءلتها علنياً من قبل النبي ﷺ.

«فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك. قال: ما كان الله ليسلطك على ذاك أو قال عليَّ. قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا»[2].

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.

لأنه لم يمت أحد من الصحابة حتى الآن من ذلك السم وإن كان له أثر على لهوات النبي ﷺ لدرجة أن أنس رضي الله عنه كان يقول:

«فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ»[1].

لكن وبعد أيام تمكن السم من أحد الصحابة واسمه: بشر بن البراء.. «فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية:

ما حملك على الذي صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك. فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت»[2] بعد أن عفا عنها رغم شروعها في قتل رأس الدولة الإسلامية.. لكن وبعد موت بشر رضي الله عنه أصبحت قاتلة متعمدة للقتل.. فاستحقت عقابها في القرآن.. بل وفي كتاب التوراة التي تؤمن به.. ولم يشمل العقاب أولئك المتآمرين معها.. علَّ العفو يجدي في محو ثقافة الحقد اليهودية.. ومن أجل ذلك قام ﷺ بعمل حاول به جمع قلوب اليهود من حوله.. حينما استقر قمراً وعزاءً بين يدي إحدى فتياتهم الحزينات.

القمر يستقر في حجر الفتاة

تلك الفتاة التي رأت تلك الرؤيا فلكمها زوجها الغبي بعدما أخبرته بما رأت.. هي اليوم حزينة جداً.. فقد قتل زوجها قبل الصلح لأنه عاهد

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٤-١٧٢١).

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود -٤٥١٢ وأحمد (٣-٢٤٢) والدارمي (١-٦٤) والطبراني (٢-٣٤) والبيهقي (٨-٤٦) من طريق حماد بن سلمة وجعفر بن عون وغيرهما من الثقات عن محمد بن عمرو بن علقمة الليثي وهو حسن الحديث من رجال الشيخين.. التقريب (٢-١٩٦) وشيخه هو التابعي الثقة.. أبو سلمة بن عبد الرحمن الزهري وهو إمام مكثر التقريب (٢-٤٣٠) وقد صحح الإمام الألباني رحمه الله هذا الحديث.

النبي عليه السلام على قول الحقيقة أو الموت والسلب.. كانت الفرصة أمامه لينجو بنفسه لكن الخيانة داخله كانت أكبر من أن يخفيها.. كذب على رسول الله ﷺ.. فأطلعه الوحي على ذلك فقتله ﷺ.. هذه الفتاة تشعر بحزن شديد وذل أشد فهي الآن سبية وهبها النبي عليه السلام لصاحبه دحية الكلبي.. وهي تشعر ببغض شديد لهذا النبي.. فهو لم يقتل زوجها فقط.. بل إنها تقول لمن يسمعها:

«كان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي»[1] هذه الفتاة هي تلك الطفلة المدللة التي كانت تحدثنا عن وصول النبي عليه السلام إلى المدينة.. وكيف خسرت ذلك الدلال من أبيها وعمها في ذلك اليوم.. عندما شاهدا النبي ﷺ.. فعادا كسلانين ثقيلين من الهم على ضياع النبوة من بني إسرائيل.. وانتقالها إلى بني إسماعيل.. وهاهي اليوم تحصد أحقاد والدها وعمها وزوجها وخياناتهم المتكررة.. فقد «جاء دحية فقال يا نبي الله أعطني جارية من السبي، قال اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير! لا تصلح إلا لك قال ادعوه بها فجاء بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال خذ جارية من السبي غيرها[2] أراد ﷺ مصاهرة اليهود في آخر محاولة لاستمالتهم إلى الإسلام.. لكن يبدو أن دحية يشعر بأنها ليست كأي فتاة من السبي.. فقد جمعت المجد من

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤-٦٧) والبيهقي (٩-١٣٧) وابن حبان (١١-٦٠٧) من طريق أبي الزرقاء وابن غياث وعفان قالوا حدثنا حماد بن سلمة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن بن عمر قال وهذا سند صحيح مر معنا في أول هذا الجزء..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-٤٥).

أطرافه.. فهي سيدة بني النضير.. وهي سيدة قريظة أيضاً.. وهي قبل ذلك ابنة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام.. وقد حظيت إلى ذلك بجمال أخاذ.. فأراد ﷺ إرضاء صاحبه دحية.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «صارت صفية لدحية في مقسمه وجعلوا يمدحونها عند رسول الله ﷺ ويقولون ما رأينا في السبي مثلها، فبعث إلى دحية فأعطاه بها ما أراد»[1] لقد «اشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس»[2].

فقد عرف عليه الصلاة والسلام لهذه المرأة الشريفة قدرها.. وقدر حزنها وشعورها بالمرارة.. توجه إليها كالمواساة.. يسليها.. يقنعها بنبوته.. يعتذر إليها ويكشف عن عقليتها ذلك الضباب اليهودي الأسود حتى تلاشى وتلاشى معه حزنها وكراهيتها.. فإذا الدنيا صباح بالإسلام.. وربيع بمحمد عليه السلام.. فباحت صفية بذلك النور الذي انبجس في أعماقها وقالت: «وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي وأخي فما زال يعتذر إلي ويقول إن أباك ألَّبَ علي العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي»[3] «واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي فاتخذها لنفسه وخيَّرها أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته»[4] دون أن يكرهها.. بل لقد

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٤٧).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) سنده على شرط مسلم رواه الإمام أحمد (٣-١٣٨) وابن حبان (٦-١٩٤) ثنا عبد الرزاق ثنا معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس عبد الرزاق. ومعمر من الثقات المعروفين من رجال الشيخين التقريب (١-٥٠٥) (٢-٢٦٦) وثابت البناني تابعي ثقة. انظر التقريب (١-١١٥).

(٤) سنده على شرط مسلم رواه الإمام أحمد (٣-١٣٨) وابن حبان (٦-١٩٤) ثنا عبد الرزاق ثنا معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس.عبد الرزاق ومعمر من الثقات المعروفين =

رفضت العودة إلى أهلها وديارها رغم حبها لهم.. لأنها أفاقت في عالم هذا النبي على شيء أذهلها عن أهلها.. فتوجهت معه مأخوذة بهذا الاعتذار النبوي الجميل.. الذي لم يصادر مشاعرها.. لم يصادر إحساسها نحو من أحبتهم وعاشت معهم.. ولم يجبرها باسم النبوة على التنكر لآلامها.. فهو الذي يذيب الحرقة والآلام.. لكن النبي ﷺ لم يزف إليها لأن لها عدة لا بد أن تمضيها.. حتى يتم التأكد من خلوها من حمل من زوجها السابق.. احتراماً لحق ذلك الزوج مهما كان دينه وحفظاً لنسب الطفل البريء..

لكن أحد الصحابة رضي الله عنهم لم يعبأ في علاقته بإحدى النساء بهذه العدة..

فارتكب أمراً أغضب النبي ﷺ غضباً شديداً..

احترام السبايا

يقول أبو الدرداء «إن النبي ﷺ مر على امرأة مجح وهي على باب خباء أو فسطاط فقال لمن هذه فقالوا لفلان قال أيلم بها قالوا نعم قال لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره فكيف يستخدمه وهو يعدوه في بصره وسمعه كيف يرثه وهو لا يحل له»[1].

أما عن العلاقة مع المرأة فقد حدث تطور في أحكامها.. لتتناسب مع القادم والجديد من حياة البشر.. مما يجعل من هذا التشريع منهجاً يضمن

=

من رجال الشيخين التقريب (١-٥٠٥) (٢-٢٦٦) وثابت البناني تابعي ثقة. انظر التقريب (١-١١٥).

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢-١٠٦٥) وابن أبي شيبة (٤-٢٩) واللفظ له.

للأسرة استقراراً أفضل.. ها هو علي بن أبي طالب.. فارس خيبر والذي قدم قبل قليل من قرية قريبة تدعى فدك.. بعد أن فتحها وصالح أهلها.. هاهو يخبرنا عن

حكم جديد لزواج المتعة

يقول علي رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر»[1] وهو زواج مؤقت يختلف عن الزواج المعروف لأنه زواج محدد بمدة يتفق عليها الزوج والزوجة.. بعكس الزواج الطبيعي والذي لا يجوز فيه تحديد المدة.. وقد نهى ﷺ عنه.. فهو زواج لا يرصد حساباً للأولاد ولا للتربية وليس له أي هدف اجتماعي سوى إشباع الغريزة.. مما قد يمسخ المرأة مستقبلاً إلى جهاز استمتاع للرجل.. يستعمله ثم يبحث عن أقرب سلة مهملات ليقذفه بها.. والمرأة أَجَلُّ وأكرم من ذلك في الإسلام.. لذلك جاء النهي عن المتعة.. وقد نهى عليه السلام عنها على أرض خيبر بشكل غير حاسم نظراً لحاجة الأنفس إلى التدرج.. ومادام الأمر قد امتد إلى الحديث عن الزواج فيبدو أن الأمور قد استقرت والنفوس قد اطمأنت على أرض خيبر.. وهذا ما يتضح في بعض الممارسات المالية التي يقوم بها بعض الصحابة الآن مع بعض اليهود.. حيث يمارسون:

البيع والشراء على أرض خيبر

هاهو الصحابي فضالة بن عبيد يشتري قلادة من خرز وذهب فيقوم بفصل الذهب عن الخرز ليعلم مقدار الذهب فيها.. وبعد فصلها توجه

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

إلى النبي ﷺ وسأله.. وقال: «اشتريت يوم خيبر قلادة باثني عشر ديناراً فيها ذهب وخرز ففصلتها فوجدت فيها أكثر من اثني عشر ديناراً فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال لا تباع حتى تفصل»(١) فشراء الذهب بالذهب لا يجوز إلا وزناً بوزن ويداً بيد وإلا تحول البيع إلى ربا يسحق الفقراء والاقتصاد ويجر للفقر والرذيلة والانحطاط والاستغلال في المجتمع.. وأرض خيبر قلعة من قلاع الربا.. فاليهود زعماء الربا مستغلي الفقراء على وجه الأرض.. وحتى لا يتلوث المتوضئون بأخلاق اليهود المرابين.. وحتى يبقى للجهاد مشروعه النقي..يكمل فضالة بن عبيد ويقول: «كنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر نبايع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة فقال رسول الله ﷺ لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزناً بوزن»(٢).. وأثناء فترة الاسترخاء تلك قسم ﷺ الغنائم على المجاهدين.. يقول أحد الصحابة: «افتتحنا خيبر و لم نغنم ذهباً ولا فضة إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط»(٣) عدا ما أخرجه النبي ﷺ من كتر حيي بن أخطب المدفون.. وأثناء توزيع الغنائم وصلت سرية من المجاهدين كانت تقوم بمهمة عسكرية على أرض نجد.. حددها ﷺ لأصحابه.. وكان قائد تلك السرية يدعى: أبان بن سعيد بن العاص.. وقد هدى الله أبان بعد أن خاض معركة ضد المؤمنين استشهد في تلك المعركة صحابي كريم يدعى: ابن قوقل.. لكن ما علاقة ابن قوقل رضي الله عنه بغنائم خيبر..

أبو هريرة كان هناك.. يطلب من النبي ﷺ شيئاً من الغنائم لحظة وصول أبان.. وقد وصف وصول تلك السرية بقوله: «بعث رسول الله ﷺ

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٢١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٢١٤.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

أبان على سرية من المدينة قِبَلَ نجد فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعد ما افتتحها وإن حزم خيلهم لليف»[1] وكان لأبي هريرة مع أبان حديث طغت فيه العاطفة على العقل قليلاً.. لكن الأمر حسم لأنه بحضرة النبي ﷺ.. يتحدث أبو هريرة فيقول: إنه «أتى النبي ﷺ فسأله.. قال له بعض بني سعيد بن العاص لا تعطه فقال أبو هريرة هذا قاتل ابن قوقل فقال واعجباه لوبر تدلى من قدوم الضأن»[2] وكان لأبان رد يفيض بالاعتذار الجميل عن أخطاء الماضي المؤسف.. يقول أبان: إنه «أقبل إلى النبي ﷺ فسلم عليه فقال أبو هريرة يا رسول الله هذا قاتل بن قوقل فقال أبان لأبي هريرة واعجباً لك وبر تدأدأ من قدوم ضأن.. ينعى على امرئ أكرمه الله بيدي ومنعه أن يهينني بيده»[3] «فقال النبي ﷺ يا أبان اجلس فلم يقسم لهم»[4].

ثم بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم بنسبة واحد إلى ثلاثة.. يعطى صاحب الفرس ثلاثة دراهم.. والذي لا يملك فرساً درهماً واحداً.. نظراً لما بذله صاحب الفرس من جهد ومال..

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً»[5].

أما الأرقاء فهذا أحدهم واسمه عمير.. يحدثنا عن ذلك فيقول: «قال شهدت مع سادتي خيبر فأمر بي رسول الله ﷺ فقلدت سيفاً فإذا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٩.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٨.

أنا أجره.. فقيل له إنه عبد مملوك فأمر لي بشيء من خرثى المتاع.. وعرضت عليه رقية كنت أرقى بها المجانين في الجاهلية قال: اطرح منها كذا وكذا وارق بما بقي»[1] فالرقية علاج.. والعلاج لا يجوز إلا بأشياء مباحة.. فقد حرم الإسلام أي علاج يؤدي إلى ضرر في العقيدة أو في الصحة.. وفي حالة كون الرقية أدعية وتعاويذ فقط.. يكون الأمر أخطر على العقيدة التي من أجلها بعث كل الرسل.. لأن تأثير تلك الرقية غير منظور ولا يخضع لتجارب المعامل.. ولا يتكون نتيجة تفاعل كيميائي مدروس.. في هذه الحالة يكون الشفاء أشبه بالمعجزة.. عندها يتعلق المريض الجاهل بصاحب الرقية مثل تعلق الغريق بأي شيء مهما كان ضعيفاً.. وعندما تصل الأمور إلى هذه المسافة.. تنفتح بوابات الجهل للخيال المريض.. ويبدأ التعلق بالأسباب لا بخالق الأسباب سبحانه.. ويجد الساحر والمشعوذ ألف طريق للتعشيش في مخيلة السذج والبسطاء.. فتنصب خيام الشرك من جديد باسم الرقية والعلاج.. ذلك الرقيق الجميل لم يمنعه رقه أن يحتاط لدينه وأن يسأل عن كل درهم يدخل جيبه.. وكل كلمة يتفوه بها.. رقيق آخر غفل عن هذا المنهج للحظات فماذا كانت النتيجة.. حدث ذلك أثناء توزيع الغنائم حيث امتدت يد خادم جديد لرسول الله ﷺ يدعى: مدعم إلى قطعة قماش من الغنائم.. فاستلها ثم أخفاها مع أمتعته الشخصية.. أي أنه غلها دون إذن من قائده النبي ﷺ..

أما نتيجة هذا العمل البسيط في نظر أناس فسنعرفها بعد قليل..

---

(١) أحمد ٥-٢٢٣ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن محمد بن زيد بن المهاجر عن عمير مولى أبي اللحم.

ماذا عن النساء..

النساء لم يكنَّ بعيدات عن الرجال تكريماً وتقديراً.. فقد «قسم رسول الله ﷺ يوم خيبر لسهلة بنت عاصم بن عدي ولابنة لها ولدت»(١).

تم الانتهاء قبل قليل من توزيع الغنائم وبدأ التجهيز لأمور عديدة منها تعيين أمير يتولى إدارة شؤون خيبر.. يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة: «إن رسول الله ﷺ بعث أخا بني عدي الأنصاري واستعمله على خيبر»(٢) ومنها التوجه نحو وادي القرى.. لكن وقبل أن يغادر ﷺ أرض خيبر نوى أحد الصحابة مفارقته والعودة إلى مكة.. ولم يكتف بذلك بل قرر أن ينتقص من النبي ﷺ.. ولم يكتف بذلك أيضاً بل ذهب إلى النبي نفسه واستأذنه.. فما هو رده ﷺ على ذلك:

صحابي يعود إلى قريش

وشروط صلح الحديبية تمنحه هذا الحق.. أما النبي ﷺ فيشجعه على ذلك ويؤيده.. أنس بن مالك يتحدث عن ذلك ويقول:

«لما فتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله..

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢-٨٢ حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا الحسن ابن الربيع الكوفي ثنا بن المبارك عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال وهذا السند صحيح رغم وجود العالم الجليل الضعيف عبد الله بن لهيعة رحمه الله.. فقد حدد النقاد رجالاً احتفظوا بوثائقه الصحيحة قبل اختلاطه منهم هذا الإمام الفذ عبد الله بن المبارك.. أما شيخه الحارث بن يزيد فهو تابعي ثقة ثبت عابد.. التقريب ١-١٤٥ وشيخ الطبراني وشيخ شيخه ثقتان انظر التقريب ١-١٦٦ والبلغة ٢٢٨.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٥.

إن لي بمكة مالاً وإن لي بها أهلاً.. وإني أريد أن آتيهم فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً.. فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء فأتى امرأته حين قدم فقال اجمعي لي ما كان عندك فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد ﷺ وأصحابه فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم.. قال ففشا ذلك في مكة وانقمع المسلمون وأظهر المشركون فرحاً وسروراً.. وبلغ الخبر العباس فعقر وجعل لا يستطيع أن يقوم»[1] «ثم أرسل غلاماً إلى الحجاج بن علاط: ويلك ما جئت به وما تقول فما وعد الله خير مما جئت به. قال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له فليخل لي في بعض بيوته لآتيه فإن الخبر على ما يسره فجاء غلامه فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل فوثب العباس فرحاً حتى قبل بين عينيه.. فأخبره ما قال الحجاج فأعتقه ثم جاءه الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر وغنم أموالهم وجرت سهام الله عز وجل في أموالهم.. واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي فاتخذها لنفسه وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها.. فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به.. فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ما شئت فأخف عني ثلاثاً ثم اذكر ما بدا لك.. فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعته فدفعته إليه ثم استمر به.. فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل لقد شق علينا الذي بلغك.. قال: أجل لا يخزني الله ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي

(١) وضعت القوس لوجود فاصل مرسل.

به.. قالت أظنك والله صادقاً.. قال: فإني صادق الأمر على ما أخبرتك فذهب حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل.. قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله.. قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسوله وجرت فيها سهام الله واصطفى صفية لنفسه وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً.. وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب. قال فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتى أتوا العباس فأخبرهم الخبر فسر المسلمون ورد الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين»[1] بعدما علموا بانتصارات جيش الإسلام على أرض خيبر وفدك.. وهاهو ذلك الجيش المؤمن يستعد لـ:

الرحيل.. وقصة النوم عن الصلاة

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال: أكلأ لنا الليل فصلى بلال ما قدر له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه.. فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند

---

(١) على شرط مسلم رواه عبد الرزاق ٥-٤٦٦ ومن طريقه أحمد ٣-١٣٨ وابن حبان ١٠-٣٩١ والطبراني ٣-٢٢٠ وأبو يعلى ١٣-٣٨٣ وعبد بن حميد ١-٣٨٥ من طريق معمر قال سمعت ثابتاً يحدث عن أنس.

يقول ابن كثير رحمه الله عن هذا السند في البداية والنهاية ٤-٢١٧: هذا الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي. ولي ملاحظة على هذا القول: صحيح أن رجاله رجال الشيخين، لكن من خلال الاستقراء يبدو أنه على شرط مسلم فقط، ويبدو كذلك أن الإسناد ليس بصحيح وإن كان على شرط مسلم، لأن رواية معمر عن ثابت فيها شيء، وللتفصيل راجع الموسوعة.

إلى راحلته.. فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس.. فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً ففزع رسول الله ﷺ فقال أي بلال فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله بنفسك قال: اقتادوا فاقتادوا رواحلهم شيئاً ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة.. فصلى بهم الصبح.. فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال أقم الصلاة لذكري»[1] وقد ذكر أبو قتادة تفاصيلاً أخرى ربما كانت أثناء تلك الرحلة في

قصة النوم والعطش والمعجزات

يقول أبو قتادة:

«خطبنا رسول الله ﷺ فقال إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غداً فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد.

قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه.. فنعس رسول الله ﷺ فمال على راحلته فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته.. ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته.. فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته.. ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين حتى كاد ينجفل.. فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة.

قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: مازال هذا مسيري منذ الليلة.

قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه.. ثم قال: هل ترانا نخفى على

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧١.

الناس؟ ثم قال: هل ترى من أحد؟ قلت: هذا راكب.. ثم قلت: هذا راكب آخر حتى اجتمعنا فكنا سبعة ركب.. فمال رسول الله ﷺ عن الطريق فوضع رأسه ثم قال احفظوا علينا صلاتنا.. فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره.. فقمنا فزعين ثم قال: اركبوا فركبنا فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل.. ثم دعا بميضأة كانت معي، فيها شيء من ماء فتوضأ منها وضوءاً دون وضوء قال وبقي فيها شيء من ماء ثم قال لأبي قتادة:

احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ.. ثم أذن بلال بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم صلى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم.. وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه.. فجعل بعضنا يهمس إلى بعض ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ ثم قال: أما لكم فيَّ أسوة؟ ثم قال: أما إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى.. فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها.. فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها، ثم قال:

ما ترون الناس صنعوا؟ ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم

فقال أبو بكر وعمر: رسول الله ﷺ بعدكم لم يكن ليخلفكم. وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا.. فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشنا، فقال:

لا هلك عليكم ثم قال: أطلقوا لي غمري.. ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم.. فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضأة تكابوا عليها فقال رسول الله ﷺ أحسنوا الملأ كلكم سيروى..

ففعلوا.. فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ.. ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي: اشرب.. فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله قال: إن ساقي القوم آخرهم شرباً.. فشربت وشرب رسول الله ﷺ.. فأتى الناس الماء جامين رواء»[1] ثم ارتحلوا متوجهين:

نحو وادي القرى

وهو مكان قريب من مدائن صالح.. وله اسم آخر هو: (قرح).. ويبدو أن هذا الوادي مليء بالحدائق والنخيل واليهود.. وصل النبي ﷺ وأصحابه.. ووصل معه صاحبه سلمان الفارسي وذكرياته المريرة على أرض هذا الوادي.. فقد وصل إليها منذ سنين مكبلاً بالرق والمرارة.. بعد أن غدر به تجار من بني كلب.. سرقوا بقراته وباعوه إلى أحد اليهود الذين يسكنون هذا الوادي المليء بالنخل انتظاراً لنبي تبشر به التوراة.. يقول سلمان رضي الله عنه وهو يتحدث عن مغادرته لأرض عمورية بعد موت كاهنها الصالح:

«لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبري فقال أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم قال واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة.. ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال أي بني والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه.. ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام.. يخرج

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٧٣

بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل.. به علامات لا تخفى: يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات وغيب ومكثت.. بعمورية ما شاء الله أن أمكث.. ثم مر بي نفر من كلب تجار فقلت لهم احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه.. قالوا: نعم فأعطيتهموها وحملوني معهم.. حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي، فكنت عنده عبداً، ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ولم يحق في نفسي فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه فاحتملني إلى المدينة»[1] حيث النخل هناك أيضاً.. فالنخل في جزيرة العرب.. والنخل في التوراة.. تبشر اليهود بالنبي.. وهاهو النبي.. وهاهي النخيل.. وتحت كل نخلة في جزيرة العرب تجد يهودياً.. كان ذلك في الماضي قبل أن يعرف اليهود أن هذا النبي من سلالة إسماعيل لا من سلالة إسحاق.. أما اليوم فتحت كل نخلة خيانة.. ووادي القرى ممتلئ باليهود.. توقف فيه النبي ﷺ.. ولم يجد مقاومة تذكر.. إلا سهماً طائشاً أصاب خادمه مدعم.. فكان موت مدعم درساً لهذا الجيش المؤمن.. رغم أنه سهم طائش لا يعرف من أرسله.. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ومعه عبد له يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضباب.. فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد.. فقال الناس: هنيئاً له الشهادة.. فقال رسول الله ﷺ: بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل:

---

(١) السيرة النبوية ٢-٤٤ بسند صحيح وقد مر تخريجه عند الحديث عن إسلام سلمان.

عليه ناراً.. فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين فقال هذا شيء كنت أصبته.. فقال رسول الله ﷺ: شراك أو شراكان من نار»[1] يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد فلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا فلان شهيد فقال رسول الله ﷺ: كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة، ثم قال رسول الله ﷺ: يابن الخطاب اذهب فناد في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون قال فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[2] هذا هو الغلول.. أخذ شيء من مال الدولة المسلمة دون إذن.. وتحت أي مبرر.. حتى هذا الرجل الفقير المجاهد لم يسلم من ناره.. فكيف بمن يأخذ شيئاً وقت السلم.. وكيف بمن يأخذ شيئاً لا لحاجة بل لمجرد زيادة ثروته.. سواء كان بالسرقة أو النهبة أو السلطة أو القوة أو حتى على شكل هدايا يتلقاها بصفته موظفاً في الدولة؟! يقول ﷺ «هدايا العمال غلول»[3] الإسلام جاء لإنصاف الفقراء لكنه لم يأت للمزايدة بقضاياهم وأزماتهم.. فعلى الفقراء كغيرهم مسؤولية وعليهم النهوض بها.. فالجنة مفتوحة للجميع وكذلك جهنم.. جهنم ترحب بمن يريدها.. وبهذا المنهج يتحول الفقير إلى طاقة فاعلة ومنضبطة.. لا طاقة هائجة ثائرة تحطم كل شيء.. وتحرق اليابس والأخضر باسم الفقر والفقراء.. هذا هو جيش محمد ﷺ معظمه من الفقراء والمحتاجين وأهل الصفة.. ومع ذلك فهو قمة في الانضباط وتحمل المسؤولية.. ولا أدل على ذلك من قول إحدى أمهات المؤمنين وزوجة قائد هذه الأمة.. الطاهرة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٧.

(٢) صحيح مسلم ١-١٠٧.

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد ٥-٤٢٤.

«عائشة رضي الله عنها قالت: لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر»[1] تصور.. إنها لم تقل: اللحم ولا الفاكهة ولا العسل.. قالت: التمر..

بل إنها تحدث ابن أختها عن موائد رئيس الدولة الإسلامية فتقول يا «ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار فقلت يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا»[2].

وما دمنا نتحدث عن أمهات المؤمنين والموائد.. يتهادى سؤال لطيف.. ماذا عن أم المؤمنين الجديدة.. وماذا عن عرسها ومائدة ذلك العرس.. فـ:

زفاف صفية

لم يكن على أرض خيبر.. ولا على أرض واد القرى المفتوح.. والذي جرى عليه من الأحكام ما جرى على أرض خيبر دون سفك دماء.. صفية مازالت في عدتها.. والنبي ﷺ يهم بمغادرة الوادي.. وفي الطريق انتهت عدة صفية وحلت للنبي عليه السلام.. فأوصى أم أنس بن مالك بصفية للعناية بها.. وعندما وصل الركب إلى مكان يقال له: سد الصهباء زفت صفية للنبي ﷺ.. وأقيمت مائدة بسيطة كبساطة الصحابة.. كسماحة الإسلام.. حيث لم تغل القدور ولم يتوفر فيها لحم ولا خبز.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لقد رأيت لرسول الله ﷺ وليمة ما

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح البخاري ج٢ ص: ٩٠٧.

فيها خبز ولا لحم»(١) وحتى القدور لم تستخدم.. كانت وليمة متواضعة جداً.. فقد حفر الصحابة حفراً في الأرض ثم ألقوا عليها الجلود المدبوغة النظيفة.. ثم سكب فيها السمن ووضع الإقط والتمر.. هذا ما ذكره أنس ابن مالك في حديثه حيث يقول إن النبي ﷺ «دفعها إلى أم سليم تصنعها له وتهيئها وتعتد في بيتها وهي صفية بنت حيي [ثم خرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى إذا جعلها في ظهره نزل ثم ضرب عليها القبة فلما أصبح قال رسول الله ﷺ: من كان عنده فضل زاد فليأتنا به.. فجعل الرجل يجيء بفضل التمر وفضل السويق حتى جعلوا من ذلك سواداً حيساً، فجعلوا يأكلون من ذلك الحيس ويشربون من حياض إلى جنبهم من ماء السماء.. فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ].. وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقط والسمن.. فحصت الأرض أفاحيص وجيء بالأنطاع فوضعت فيها.. وجيء بالأقط والسمن فشبع الناس وقال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ قالوا: إن حجبها فهي امرأته وإن لم يحجبها فهي أم ولد.. فلما أراد أن يركب حجبها فقعدت على عجز البعير فعرفوا أنه قد تزوجها»(٢) وكانت طريقة إركاب رسول الله ﷺ لصفية على البعير تنم عن منتهى الذوق والرقة يقول أنس: «.. ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت رسول الله ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب»(٣) كانت تشعر بعاطفة غامرة.. تشعر بعزاء يهطل مطراً على قيظ حزنها.. فتحول البغض

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٣٨٣/٠ حدثنا هاشم بن القاسم ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥ والزوائد له أيضاً ٢-١٠٤٧.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٧٧٨.

إلى عشق.. وعاد الحزن من حيث أتى.. أما النبي ﷺ فقد تحول إلى غمامة حب تظللها.. وقدم اعتذارات أذابت كل كلس اليهود في فؤادها.. حتى أصبح مرتعاً لمحمد ورب محمد.. تذكر صفية تلك الأيام وأمواجها الغريبة المتلاطمة.. تتذكر حبيبها ﷺ وهو:

يسأل عن كدمة حول عين حبيبته

وذلك عندما «رأى رسول الله ﷺ بعيني صفية خضرة فقال يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت كان رأسي في حجر ابن أبي حقيق وأنا نائمة فرأيت كأن قمراً وقع في حجري.. فأخبرته بذلك فلطمني وقال تمنين ملك يثرب؟ قالت: وكان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي قتل زوجي وأبي وأخي فما زال يعتذر إلي ويقول: إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي»[1] تلك الاعتذارات والمشاعر بينت لها مدى الفارق بين هذا النبي الكريم وبين زوجها السابق العنيف الذي كان يقودها إلى جهنم وقد «أقام النبي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية»[2].

ثم واصل ﷺ مسيره عائداً إلى المدينة محاطاً بجيش كالمشاعر.. سلمة ابن الأكوع يتذكر في طريق العودة أخاه الشهيد على أرض خيبر عامر بن الأكوع ويتذكر حداءه الجميل على هذا الطريق وهيج مشاعره فلا يجد ألطف من النبي ﷺ كي يشاركه تلك المشاعر. فبم رد عليه وماذا فعل سلمة..؟ يقول رضي الله عنه «لما كان يوم خيبر قاتل أخي قتالاً شديداً مع رسول الله ﷺ فارتد عليه سيفه فقتله فقال أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك وشكوا فيه رجل مات في سلاحه وشكوا في بعض أمره قال سلمة

---

(١) حديث صحيح مر معنا في بداية الكتاب.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٣.

فقفل رسول الله ﷺ من خيبر فقلت يا رسول الله ائذن لي أن أرجز لك فأذن له رسول الله ﷺ فقال عمر ابن الخطاب: أعلم ما تقول فقلت:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله ﷺ: صدقت

وأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا

فلما قضيت رجزي قال رسول الله ﷺ: من قال هذا؟ قلت: قاله أخي.. فقال رسول الله ﷺ: يرحمه الله.. قال: فقلت: يا رسول الله.. إن ناساً ليهابون الصلاة عليه يقولون رجل مات بسلاحه.. فقال رسول الله ﷺ: مات جاهداً مجاهداً فله أجره مرتين وأشار بإصبعيه»[1]. وفي طريق العودة أيضاً لم يكن التعبير عن المشاعر شعراً فقط.. بل سلوكاً يفيض بالعطف والرحمة.

يقول أبو أمامة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ أقبل من خيبر ومعه غلامان فقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله.. أخدمنا.. فقال: خذ أيهما شئت فقال: خر لي.. قال: خذ هذا ولا تضربه فإني قد رأيته يصلي مقبلنا من خيبر.. وإني قد نهيت عن ضرب أهل الصلاة وأعطى أبا ذر الغلام الآخر.. فقال: استوص به خيراً.. ثم قال: يا أبا ذر.. ما فعل الغلام الذي أعطيتك؟ قال: أمرتني أن أستوصي به خيراً فأعتقته»[2] وعندما اقترب الركب من المدينة تدفقت العواطف في كل اتجاه ولما لاح للنبي ﷺ جبل أحد باح بحبه لمن حوله.. أنس كان ممن حوله يقول رضي

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٢٩.

(٢) سنده حسن رواه الإمام أحمد ٥-٢٥٨ حدثنا عبد الله حدثنا أبي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنا أبو غالب عن أبي أمامة وهذا السند حسن من أجل أبي غالب صاحب أبي أمامة وهو حسن الحديث إذا لم يخالف أنظر التقريب ٢/٤٦٠ وبقية الرواة أئمة ثقات.

الله عنه: «فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أحد فقال هذا جبل يحبنا ونحبه»[1].

لكن القلوب والمطايا تحركت عندما أشرقت بيوتات المدينة كالعاشقات.. في تلك اللحظات أسرع كل شيء نحوها وأسرع أنس وقال: «فلما دنوا من المدينة دفع رسول الله ﷺ ودفعنا»[2] «فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة هششنا إليها فرفعنا مطينا ورفع رسول الله ﷺ مطيته قال وصفية خلفه وقد أردفها رسول الله ﷺ»[3] لكن يبدو أن بعض القلوب المؤمنة لم تكن مشتاقة جداً لمقدم صفية خلف رسول الله ﷺ.. أقصد قلوب حبيباته إمهات المؤمنين المشتاقات إلى كل شيء تحمله الناقة إلا إلى هذه الجميلة التي تزاحمهن على بعيره وقلبه.. لكن شيئاً حدث لصفية شفى بعض غليلهن وغليل خدمهن فـ:

ما الذي حدث لصفية على أبواب المدينة

يقول أنس رضي الله عنه: «أقبلنا من خيبر أنا وأبو طلحة ورسول الله ﷺ وصفية رديفته قال: فعثرت ناقة رسول الله ﷺ [العضباء وندر رسول الله ﷺ وندرت.. فقام فسترها وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية قلت: يا أبا حمزة أوقع رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله لقد وقع].. فصرع رسول الله ﷺ وصرعت صفية.. فاقتحم أبو طلحة فقال: يا رسول الله جعلني الله فداك أضررت. قال: لا عليك المرأة [إنها أمكم].. فألقى أبو طلحة على وجهه الثوب فانطلق إليها فمد ثوبها عليها ثم أصلح لها

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٥.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.

رحلها [فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها.. قال: فأتيناه.. فقال: لم نضر].. فركبنا ثم اكتنفناه أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فلما أشرفنا على المدينة أو كنا بظهر الحرة قال رسول الله ﷺ: آيبون عابدون تائبون لربنا حامدون فلم يزل يقولهن حتى دخلنا المدينة»(١) «فدخلنا المدينة فخرج جواري نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها»(٢) «ثم نظر إلى المدينة فقال اللهم إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم»(٣).

كان الجميع بانتظار هؤلاء الفرسان وفتوحاتهم المجيدة.. وكان ﷺ يبادلهم ويبادل مدينتهم الجميلة شوقاً وعاطفة.. وكانت:

المدينة تعد مفاجأة للنبي ﷺ

فقد فتح النبي ﷺ عينيه على فرحة كفرحة خيبر.. فالذي يقف أمامه الآن حبيب طالما انتظر قدومه.. إنه ابن عمه جعفر بن أبي طالب شقيق علي ومعه من تبقى من المهاجرين.. قدموا من الحبشة قبل أيام.. ومعهم من هاجر من اليمن إلى الحبشة أبو موسى الأشعري كان أحدهم.. كانت مفاجأة سارة جداً للنبي ﷺ عبر عنها بكلمات من مشاعر «جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ: ما أدري بأيهما أنا أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»(٤).

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٥-٢٢٢٤ والإمام أحمد بن حنبل ٣/١٨٧ حدثنا عبد الله حدثني أبي عن يحيى بن أبي إسحاق سمعت أنس وهو طريق البخاري واللفظ لأحمد والزيادة الأولى لمسلم ٢-١٠٤٥ والثانية للبخاري والثالثة لمسلم ٢-١٠٤٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-١٠٤٧.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٥٩.

(٤) حديث حسن رواه الحاكم ٢-٦٨١ و٣-٢٣٣ من طريق أجلح عن الشعبي عن جابر =

الصحابة كلهم فرحوا بمقدم إخوانهم من بلاد الغربة والمعاناة.. وقد قدر عليه السلام تلك المعاناة وأحب أن يرحب بهم بطريقة تخفف شيئاً من فقرهم ومعاناتهم فميزهم عن غيرهم بعطاء كريم.. يقول أحدهم وهو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه «بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم، إما قال بضعاً وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي.. فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده.. فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً.. فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال: أعطانا منها.. وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم فكان ناس من الناس يقولون لنا يعني لأهل السفينة نحن سبقناكم بالهجرة»[1] إلى المدينة.. وكأنهم يعنون أنهم أولى بالنبي ﷺ من هؤلاء المبحرين من أرض إفريقيا السخية.. وكان أبرز من قال ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. قالها مُرحِّباً ومُمازحاً زوجة جعفر بن أبي طالب المهاجرة العظيمة: أسماء بنت عميس التي تزور الآن ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها.. لكن تلك المداعبة حركت داخل أسماء آمالاً بتثمين مرارة الغربة ومعاناة التشرد في سبيل الله.. فليس هناك من تشكو إليه عمر سوى النبي عليه السلام..

=

وقد جاء من مرسل الشعبي عند غيره بسند صحيح إلى الشعبي وله شواهد لا تخلو من ضعف وعند الطبراني بسند لا بأس به ٢٢-١٠٠ عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه وروي بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها في الإخوان ١٧٩ وقد فصلت تخريجه في الموسوعة وصحيح الموسوعة.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٤-١٩٤٦.

وليس هناك من يشفي غليلاً بداخلها سوى النبي ﷺ.. توجهت إليه فكانت هذه القصة المنسوجة بالشكوى والسفر

مهاجرة تشكو عمر

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «دخلت أسماء بنت عميس -وهي ممن قدم معنا- على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر.. فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها.. فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس.. قال عمر: آلحبشية هذه آلبحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم.. وكنا في دار -أو في أرض- البعداء البغضاء بالحبشة.. وذلك في الله وفي رسوله ﷺ.. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ.. ونحن كنا نؤذى ونخاف.. وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله.. والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله.. إن عمر قال كذا وكذا قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان. قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ.. قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني»(1) والبشرى تملأ قلبه وروحه.. فالإسلام لا يغفل دور مسلم مهما كان هذا المسلم ضعيفاً مغلوباً على أمره مادامت معاناته في الله.. فقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٤٦.

«رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبي ﷺ هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[1] وعمر رضي الله عنه لم يكن يتحدث عن نفسه فقط.. كان يتحدث عن أبي بكر وعثمان وعلي وطلحة وغيرهم من المهاجرين الذين كابدوا ما كابدوا في سبيل الله وبذلوا ما بذلوا في بدر وأحد والخندق وخيبر.. كان عمر يتحدث عن أهل بيعة الرضوان أما سعد رضي الله عنه فقد رأى في قتاله وهجرته تفوقاً على ذلك الصحابي الضعيف.. فكان للإسلام ميزان أدق لا يغفل فيه أي شيء ولاسيما تلك الأشياء التي يفضل البعض أن يحولها إلى أسرار حميمة فيما بينهم وبين الله فقط.. ويرفضون أن يفسد أحد تمتعهم بتلك الأجواء الحميمة مع الله.. ذات يوم «مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع...

فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[2].

لكن النبي عليه السلام يقدم درساً مجانياً لمن كلف نفسه توجيه النقد للناس محاولاً التسلل بينهم وبين الله.. جاعلاً من البغض في الله نوافذ يخرج من خلالها نشازاً داخل نفسه.. أحد الصحابة يتحدث عن ذلك فيقول:

«إن رجلاً مر على قوم فسلم عليهم فردوا عليه السلام.. فلما جاوزهم قال رجل منهم: والله إني لأبغض هذا في الله.. فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت.. أما والله لتنبئنه.. قم يا فلان -رجلاً منهم- فخبره.. قال: فأدركه رسولهم.. فأخبره بما قال.. فانصرف الرجل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٦١.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٥-١٩٥٨.

رسول الله.. مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان فسلمت عليهم فردوا السلام فلما جاوزهم أدركني رجل منهم فأخبرني أن فلاناً قال: والله أني لأبغض هذا الرجل في الله فادعه فسله على ما يبغضني. فدعاه رسول الله ﷺ فسأله عما أخبره الرجل.. فاعترف بذلك وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: فلم تبغضه.. قال: أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر.. قال الرجل: سله يا رسول الله هل رآني قط أخرها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو أسأت الركوع والسجود فيها.. فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا.. ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو انتقصت من حقه شيئاً.. فسأله رسول الله ﷺ فقال: لا.. ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلاً قط ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في شيء من سبيل الله بخير إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله هل كتمت من تلك الزكاة شيئاً قط أو ماكست فيها طالبها.. فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا.. فقال له رسول الله ﷺ: قم إن أدري لعله خير منك»[1] لأن الشعور بالتفوق على الآخرين مهما كان رصيده من الظاهر والباطن.. لا يجيز لصاحبه التطاول على الآخرين وانتقاصهم تحت أي مبرر.. فالحكم على الآخرين من خلال ظواهرهم غير دقيق إلا في حالة فساد الظاهر فساداً ينم عن عفن الباطن.. وهناك فرقٌ بين الحكم على الشخص والحكم على سلوك صادر عنه.. الشعور بالتفوق قد يدخل في الكبر.. والكبر شيء خطير..

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحم ج٥/٤٥٥ عن شيخه أبي كامل مظفر بن مدرك ثنا إبراهيم ابن سعد ثنا بن شهاب عن أبي الطفيل وهذا السند صحيح: أبو كامل ثقة من رجال التقريب ٢-٢٥٥ وشيخه ثقة حجة من رجال الشيخين التقريب ١-٣٥.

كان النبي ﷺ يحاول المحافظة على ما أنجزه الإسلام من مساواة وتلاحم.. وكان المهاجرون والأنصار هم النموذج البشري الصرف الذي قدمه النبي ﷺ للعالم.. لقد قدم الأنصار الكثير فماذا فعل أخوهم المهاجرون بعد غزوة خيبر؟

المهاجرون يردون الجميل بالوفاء

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما قدم المهاجرون من مكة المدينة؛ قدموا وليس بأيديهم شيء وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفوهم العمل والمؤونة وكانت أم أنس بن مالك وهي تدعى أم سليم أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً لها فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته أم أسامة بن زيد). قال أنس ابن مالك (أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه) [1] وقد حسن فتح خيبر من مستوى التغذية لدى المسلمين فأصبحوا كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[2] أي ما شبعنا من التمر فقط.. ومع هذه الحاجة والفقر كان الإسلام يقدم ثقافة متحضرة لأتباعه حتى لا تزعزع المادة توازن الإنسان.. فالفتوح قادمة والوعود كشمس الغد مشرقة لا محالة.. وإذا لم يتهيأ المسلم بثقافة التوازن فسوق يجد نفسه مجرد رقم على سطح الأرض.. يقول أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما: «إن

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله ﷺ: أكل تمر خيبر هكذا فقال: لا والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة فقال: لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً»[1] لأن التمر من الأموال التي يحدث فيها الربا وقد «قال رسول الله ﷺ الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»[2] فالربا ممر يعبر من خلاله الاستغلال والفقر وانهيار الأخلاق والاقتصاد.. وهو جشع قديم يتجدد كلما غفت الأخلاق ونهضت الغرائز العمياء داخل الإنسان.. والنبي عليه السلام يريد ردم هذا الممر الخطير على دولته وشعبه.. كما يريد ردم أي ممر يعبر منه خطر إلى دولته الجديدة بالتوحيد.. لذلك عاد ﷺ إلى

بث السرايا من جديد

فأمام النبي ﷺ قائمة طويلة بالمهمات الملحة والمخاطر والأزمات التي يتحتم عليه علاجها والقضاء عليها بعد كسر شوكة الخيانة اليهودية وتحييد قريش وحلفائها.. ففي الجزيرة العربية بؤر للإرهاب لا تخضع لدولة ولا لنظام قائم ولا لمفاوضات أو شروط ولا حتى لعرف أو شرف.. هناك جماعات إرهابية تعيش خارج التاريخ الذي بدأ ﷺ يكتبه بالتوحيد والإسلام.. وقد حان الوقت لتأديبها والقضاء عليها.. وهي وإن كانت صغيرة إلا أنها مزعجة ومؤلمة ومعيقة للمد الإسلامي.. وهي تلوث الجزيرة والدنيا بالشرك وقطع الطريق ووأد البنات والنهب والسلب والقتل والفوضى

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٠.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢١١.

وإرعاب القوافل والمدن.. وهذا هو أنسب وقت للتخلص منها أو من معظمها.. لذلك يتحتم عدم إهدار فرصة السلام مع قريش لتأمين ممرات المسافرين والتجار والحجاج.. وتأمين حدود المدينة وفرض هيبتها ووجودها في ظل هذه الأوضاع المتدهورة في الجزيرة العربية.. لذلك نظم النبي ﷺ سرايا للقيام بتلك المهمات.. وقد لخص ﷺ مطالبه من أولئك الأعراب برسالة حملها أعرابي إلى من تسول له نفسه إعادة الجزيرة إلى همجية الجاهلية.. وقد بقيت تلك الرسالة في خرج ذلك الأعرابي زمناً طويلاً.. رجل اسمه: يزيد بن الشخير يتحدث عن تلك الرسالة فيقول: «كنا جلوساً بهذا المربد بالبصرة فجاء أعرابي معه قطعة أديم أو قطعة من جراب فقال هذا كتاب كتبه لي النبي ﷺ فأخذته فقرأته على القوم فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش إنكم إن أقمتم الصلاة.. وآتيتم الزكاة.. وأعطيتم من المغانم الخمس وسهم النبي والصفي.. فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»[1].

ولعل من أهم تلك السرايا سرية مهمتها تأديب فزارة الذين أغاروا على المدينة وسرقوا ما سرقوا مستغلين تواجد النبي ﷺ على أرض الحديبية لكن وصول سلمة بن الأكوع ساهم في إفشال ذلك السطو المسلح على المدينة.. وقد أرجأ ﷺ تأديبهم إلى حين عودته من خيبر ثم كلف صاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة وتنفيذ:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٤٩ وغيره من طريق عن قرة بن خالد السدوسي عن يزيد بن عبد الله بن الشخير وقرة ثقة ضابط - التقريب ٢-١٢٥ ويزيد تابعي ثقة ولد في عهد عمر رضي الله عنه.

غزوة فزارة

وقد شارك في هذه الغزوة سلمة بن الأكوع فارس تلـــك الغـــزوة السابقة المسماة (ذات قرد أو الغابة).. وهو فارس بمقاييس جيش.. وهو الآن يتحدث عن تأديب قطاع الطرق للمرة الثانية بعد أن أدب طلائعهم في الغابة.. يقول رضي الله عنه: «غزونا فزارة وعلينا أبو بكر أَمَّرَهُ رسول الله ﷺ علينا فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه وسبى وأنظر إلى عنق من الناس فـــيهم الذراري فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبـــل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بـــني فـــزارة عليها قشع من آدم -القشع النطع- معها ابنة لها مـــن أحســـن العـــرب فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنفلني أبو بكر ابنتها فقدمنا المدينة ومـــا كشفت لها ثوباً فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال يا سلمة هـــب لي المرأة فقلت يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً ثم لقـــيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال لي يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك فقلت هي لك يا رسول الله فوالله ما كشفت لها ثوباً فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة»[1] وهو لا يعني بكلمة أسروا أن أسرهم كان عن طريق الحرب.. إنمـــا يقصـــد أولئك المسلمين المستضعفين الذين منعوا قهراً من الهجرة إلى نبيهم ﷺ.. وقد استحقت فزارة ما أصابها من جيش أبي بكر فقد شاركوا قريشـــاً في معركة الخندق كجزء من غطفان.. ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بالإغـــارة على المدينة وسرقوا وقتلوا.. وهذا النوع من الإرهاب وقطـــع الطريـــق

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٧٥.

خارج عن نطاق العقل.. ولا تجدي مع هذه الهمجية أساليب الحوار ولا تنقاد لحق إلا بعد كسر شوكتها.. أما من لم يتعرض لدولة الإسلام بشر فلن يتعرض له أحد.. بل سيجد من دولة التوحيد وجيشها صدوراً مفتوحة وأخلاقاً رفيعة آسرة كما حدث في هذه السرية التي قادها عليه السلام بنفسه.. وكانت:

سرية من أربعين رجلاً وامرأة تقود قومها إلى الإسلام

سرية مثيرة كلها دعوة ومعجزات.. أحد فرسانها صحابي جليل اسمه عمران بن حصين وهو يقول: «كنت مع نبي الله ﷺ في مسير له فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان في وجه الصبح عرسنا فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس.. فكان أول من استيقظ منا أبو بكر وكنا لا نوقظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يستيقظ ثم استيقظ عمر فقام عند نبي الله ﷺ [فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس وكان رجلاً جليداً فكبر ورفع صوته بالتكبير فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير] حتى استيقظ رسول الله ﷺ فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا. [فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله.. فاتتنا الصلاة فقال: لم تفتكم، ثم أمرهم رسول الله ﷺ فركبوا] فسار بنا حتى إذا ابيضت الشمس نزل [ونزلوا معه وكأنه كره أن يصلي في المكان الذي نام فيه عن الصلاة ثم قال رسول الله ﷺ ائتوني بماء، فأتوه بجريعة من ماء في مطهرة فصبها رسول الله ﷺ في إناء ثم وضع يده في الماء ثم قال لأصحابه: توضؤوا] [ثم أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بالصلاة، فنودي بها ثم قام] فصلى بنا الغداة فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا.. فلما انصرف قال له رسول الله ﷺ يا فلان ما منعك أن تصلي معنا؟ قال: يا نبي الله أصابتني جنابة فأمره رسول الله ﷺ فتيمم

بالصعيد فصلى. ثم عجلني في ركب بين يديه نطلب الماء وقد عطشنا عطشاً شديداً [فأقبل رجلان من أصحابه أحسبه علياً والزبير أو غيرهما قال إنكما ستجدان بمكان كذا وكذا امرأة معها بعير عليه مزادتان فأتياني بها] فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين فقلنا لها أين الماء قالت: أيهاه.. أيهاه لا ماء لكم قلنا: فكم بين أهلك وبين الماء قالت مسيرة يوم وليلة قلنا انطلقي إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله [ومن رسول الله هذا الصابئ؟ قالا هو الذي تعنين وهو رسول الله ﷺ] فلم نملكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ.. فسألها فأخبرته مثل الذي أخبرتنا وأخبرته أنها موتمة لها صبيان أيتام [فقال علي: يا رسول الله بأبي وأمي إنا وجدنا هذه بمكان كذا وكذا.. فسألتها عن الماء فزعمت أن بينها وبين الماء مسيرة ليلة أو زيادة فظننا أن لم نبلغه حتى يهلك منا من هلك.. فقال رسول الله ﷺ: أنيخوا لها بعيرها.. فأناخوا لها بعيرها. فأقبلت عليهم. فقالت: استقيت لأيتام.. وقد احتبست عليهم جداً.. فقال رسول الله ﷺ: ائتوني بإناء فجاؤوا بإناء] فأمر براويتها فأنيخت [فقال: افتحوا عزلاء هذه فخذوا منها ماءً يسيراً ثم افتحوا عزلاء هذه فخذوا منها ماءً يسيراً أيضاً.. ففعلوا ثم إن الرسول ﷺ دعا فيه وغمس يده فيه فقال افتحوا لي أفواه المزادتين ففتحوا فحثا في هذه قليلاً وفي هذه قليلاً] فمج في العزلاوين العلياوين ثم بعث براويتها فشربنا ونحن أربعون رجلاً عطاشاً حتى روينا وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا غير أنا لم نسق بعيراً وهي تكاد تنضرج من الماء يعني المزادتين [ثم قال أسقوا ظهركم فسقوا الظهر حتى روي ثم قال رسول الله ﷺ: هاتوا ما كان لكم من قربة أو مطهرة فاملؤوها فجاؤوا بقربهم ومطاهرهم فملؤوها ثم قال رسول الله ﷺ: شدوا عزلاء هذه وعزلاء هذه ثم قال:

ابعثوا البعير فبعثوها فنهضت وإن المزادتين لتكادان تفطان من ملئهما ثم اتخذ رسول الله ﷺ كساء المرأة] ثم قال هاتوا ما كان عندكم فجمعنا لها من كسر وتمر وصر لها صرة فقال لها اذهبي فأطعمي هذا عيالك واعلمي أنا لم نرزأ من مائك [قال خذي هذا لأيتامك وهذا ماءك وافراً فجعلت تعجب مما رأت ثم انطلقت حتى أتت أهلها فقالوا: قد احتبست علينا فما حبسك] فلما أتت أهلها قالت لقد لقيت أسحر البشر أو إنه لنبي كما زعم كان من أمره ذيت وذيت [أرأيتم مزادتي هاتين فوالله لقد شرب منهما] [وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي ثم إنهما الآن أوفر منهما يومئذ فلبثت شهراً أو نحواً من ذلك] فهدى الله ذاك الصرم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا [ثم أقبلت في ثلاثين راكباً إلى رسول الله ﷺ]»[1] فاستقبلها بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب مهاجر إلى مدينة التوحيد.. وقدم لأصحابه طرازاً نسوياً رفيع المستوى.. امرأة تتسلل إبداعاً في عقول قومها وتمحو ذاكرة وثنية متخثرة موغلة في القدم.. ثم تقنعهم بالمسير معها في رحلة ممتعة نحو مدينة الوعي الجديد بعد شهر من نشر التوحيد في بيوتات قومها..

إنجاز غير مسبوق للمرأة في زمن قياسي مدهش لم ينجزه سوى النبي ﷺ.. والمرأة قادرة على أكثر من ذلك لكن ذلك مشروط بقدرتها على التخلص من عقد القصور والاضطهاد والأنوثة التي تتذرع بها للتفلت

---

(١) صحيح مسلم ١-٤٧٤ والزيادة الأولى عند البخاري ١-١٣١ والزيادة الثانية والثالثة والسادسة وما بعدها عند البيهقي في الدلائل ٤-٢٧٩ وهي زيادة قوية الإسناد والزيادة الرابعة والخامسة في سنن البيهقي الكبرى ١-٣٢ وقد رواها من طريقين قويين عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن عوف عن أبي رجاء عن عمران وعبد الرزاق عن معمر سند صحيح وباقي السند: سند الشيخين.

من مسؤولياتها.. حيث يأتي الوعي والتحرر بالإسلام في مقدمة تلك المسؤليات.. في تلك الغزوة لم تؤخذ تلك المرأة سبية.. ولم تجد من ذلك الجيش إلا ما يسرها ويفرح أيتامها لأنها لم تمارس أي شيء ضد الدولة الإسلامية.. حتى ذلك الماء الذي كانت تحمله لم يؤخذ منه قطرة واحدة.. بل لقد كان النبي ﷺ غيمة كرم ظللتها عندما أمر صحابته بتزويدها بالطعام وهم في أمس الحاجة إليه تعبيراً عن مواساته لها ولظروفها العائلية وما تعول من أيتام..

وإذا كانت تلك السرية عادت محملة بالمشاعر والعطايا والإيمان.. فإن هناك سرايا عادت ببعض الكدر رغم تنفيذها لمهماتها المناطة بها.. وتلك طبيعة البشر التي يفترض فيها الصواب والخطأ.. لكن تلك الأخطاء قدمت دروساً في العقيدة والفكر.

درس في حدود طاعة الأمراء

سرية بعثها ﷺ وعيَّن أحد الأنصار أميراً عليها: يقول «علي رضي الله عنه بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى.. قال: فاجمعوا لي حطباً.. فجمعوا.. فقال: أوقدوا ناراً.. فأوقدوها.. فقال: ادخلوها فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار.. فما زالوا حتى خمدت النار.. فسكن غضبه.. فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف»[1].

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٧.

وقد كرر هذه الأوامر أحد المهاجرين ممازحاً فرقته.. هذا المهاجر يدعى عبد الله بن حذافة السهمي وهو الآن في سرية تحت إمرة صحابي اسمه: علقمة ابن مجزز يقول «أبو سعيد الخدري إن رسول الله ﷺ بعث علقمة بن مجزز على بعث أنا فيهم فلما انتهى إلى رأس عرانة أو كان ببعض الطريق استأذنته طائفة من الجيش.. فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله ابن حذافة بن قيس السهمي.. فكنت فيمن غزا معه فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم ناراً ليصطلوا أو ليصنعوا عليها صنيعاً.. وقال عبدالله كانت فيه دعابة: أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى.. قال: فما أنا آمركم بشيء إلا صنعتموه.. قالوا: نعم.. قال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار.. فقام ناس فتحجزوا.. فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم فإنما أمزح معكم.. فلما قدمنا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»[1]. فليس الحاكم أو الأمير أو القائد نائباً عن الله ولا متحدثاً باسمه وليس له من صلاحيات التشريع والتحليل والتحريم ما يحلل به حراماً أو يحرم حلالاً.. حتى في بيت المال المنثور بين يديه يقول ﷺ لعلي بن أبي طالب شيئاً خطيراً.. ها هو علي يحدث به رجلاً يطالبه بشيء من الرفاهية في المائدة على الأقل.. اسم هذا الرجل: عبد الله بن زرير وهو يقول: «دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الأضحى فقرب إلينا خزيزة[2] فقلت أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط يعني الوز فإن الله عز وجل قد أكثر الخير فقال يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-٥٤٤ وغيره من طريق محمد بن عمرو عن عمر بن الحكم بن ثوبان عن أبي سعيد الخدري وعمر بن الحكم تابعي صدوق.. التقريب ٢-٥٣ وتلميذه حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال الشيخين.. التقريب ٢-١٩٦.

(٢) الخزير طعام متواضع كالعصيدة.

لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس»[1] وإذا كانت هذه السرية قد بينت حدود نفوذ القائد فإن هناك:

سرايا تحدد صلاحيات المجاهد المسلم

فهو لم يخرج من بيته وبلاده ليملأ بطنه أو جيبه ولم يخرج ليرضي غروراً تراقص في رأسه.. هو محارب مميز بين كل المحاربين.. لم يخرجه من بيته سوى شيء واحد: أن تكون كلمة الله هي العليا.. ولكي يكون هذا الهدف نقياً بين جوانحه عليه -قبل أن يخرج- أن يدفن تحت بوابة مدينته أشياء كثيرة منها: المال والشهرة والهوى والرغبة في الانتقام للنفس و.. و.. لكي يتفرغ لشيء واحد هو إعلاء التوحيد لا فرضه بالقوة.. فإذا لم يتمكن من دفن تلك الأشياء فإنها ستنغص عليه جهده وجهاده إن لم تحوله إلى رماد لا قيمة له.. أخطاء كثيرة وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم.. لكن فعلهم ذلك لا يحسب على الإسلام إنما يحسب عليهم أنفسهم لأن النبي ﷺ كان حياً آنذاك وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء التي قد يبرر من بعدهم لنفسه ممارستها متجاهلاً حكم الإسلام فيها ممثلاً بالنبي ﷺ.. من هذه الأخطاء معجزة حدثت بعد إحدى السرايا معجزة مزلزلة..

الأرض تلفظ جسد أحد المجاهدين

قصة تعيد الصواب للمتهورين الوالغين بدماء الأبرياء.. قصة يرويها «جندب بن سفيان رجل من بجيلة قال إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه

(١) صحيح الجامع الصغير وقد ذكر لفظ النبي ﷺ فقط وهو عند أحمد ١-٧٨.

بشير من سرية بعثها.. فأخبره بنصر الله الذي نصر سريته وبفتح الله الذي فتح لهم.. قال: يا رسول الله.. بينما نحن بطلب العدو وقد هزمهم الله إذ لحقت رجلاً بالسيف فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى.. فقال: إني مسلم إني مسلم.. فقتلته.. وإنما كان يا نبي الله متعوذاً. قال: فهلاّ شققت عن قلبه فنظرت صادق هو أو كاذب. قال: لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال: فأنت قتلته، لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت. قال: يا رسول الله.. استغفر لي.. قال: لا أستغفر لك.. فدفنوه فأصبح على وجه الأرض ثلاث مرات.. فلما رأى ذلك قومه استحيوا وخزوا مما لقي فحملوه فألقوه في شعب من تلك الشعاب»(١). لكن النبي ﷺ علم فيما بعد.. أخبره أحدهم بما حدث فكان في تفسير النبي ﷺ وتوجيهه شيئاً يستعيد الأمل لذلك الفارس الذي رفضته أحضان الأرض..

يقول عمران بن حصين رضي الله عنه وقد كان شاهداً على ما حدث: «بعث رسول الله ﷺ سرية فحمل رجل على رجل من المشركين فلما غشيه بالرمح قال إني مسلم فقتله ثم أتى النبي ﷺ فقال: إني أذنبت فاستغفر لي.. قال: وما ذاك؟ قال: حملت على رجل من المشركين فلما

---

(١) حديث صحيح رواه أبو يعلى ٣-١ حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب حدثني جندب.. وهذا السند صحيح لولا كثرة أوهام شهر بن حوشب لكن الحديث صحيح فقد رواه عبد الرزاق ١٠-١٧٣ عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن موهب عن قبيصة ..عبد الله تابعي ثقة -التقريب- ١-٤٥٥ والزهري ومعمر ثقتان معروفان مرا معنا كثيراً وقبيصة من أولاد الصحابة وله رؤية وهو من رجال الشيخين.. وللحديث شاهد صحيح عند الطبراني وهو ما بعده.

غشيته بالرمح قال: إني مسلم فظننت أنه متعوذ.. فقتلته.. فقال: هلا شققت عن قلبه حتى يستبين لك؟ قال ويستبين لي يا رسول الله؟ قال: قد قال لك بلسانه فلم تصدقه على ما في قلبه.

فمات الرجل فدفناه فأصبح على وجه الأرض فأمرنا غلماننا فحرسوه فأصبح على وجه الأرض.. فقلنا: غفلوا.. فحرسناه.. فأصبح على وجه الأرض.. فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه فقال: أما إنها تقبل من هو شر منه.. ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم.. ثم قال: اذهبوا به إلى سفح هذا الجبل فانضدوا عليه من الحجارة ففعلنا»[1].

وهذه سرية أخرى يأذن ﷺ لحبه أسامة بن زيد بالانضمام إليها بعد بلوغه.. لكن حماس أسامة والشباب المتقد تحت ثيابه جعله يتمادى في إعطاء فروسيته ما ليس لها.. فكانت زلة عمره التي لم يستطع نسيانها طوال حياته.. وندمه الذي لم يقو على الهروب منه.

في سرية الحرقات أسامة يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله

ولما عاد إلى المدينة أحس بتأنيب الضمير وزاحم أنفاسه شعور بالذنب.. ولم يكن له ملاذ سوى النبي ﷺ يبوح له بما في نفسه ويصحح به سلوكه ذلك إن كان مخطئاً.. يقول رضي الله عنه:

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير ١٨-٢٢٦ حدثنا بشر بن موسى ثنا محمد ابن سعيد الأصبهاني ثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن السميط بن سمير عن عمران بن حصين.. السميط تابعي صدوق من رجال مسلم.. التقريب ١-٣٣٤ وتلميذه تابعي ثقة.. التقريب ١-٣٨٤ وحفص ثقة فقيه من رجال الشيخين.. التقريب ١-١٨٩ ومحمد بن سعيد الملقب بـ (حمدان) ثقة ثبت من رجال البخاري.. التقريب ٢-١٦٤ أما شيخ الطبراني فهو ثقة نبيل انظر البلغة (١١١) والحديث شاهد لما سبق.

«بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك.. فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح.. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[1] لهول ما ارتكبه على نفسه..

أسامة هو حبيب النبي ﷺ الذي كان يحمله بين يديه إلى المسجد

..أسامة الذي كان ﷺ يطهر جرحه بفمه العطر.. ويوصي به عائشة رضي الله عنها قائلاً «يا عائشة أحبيه فإني أحبه»[2] أسامة الذي يتحدث بنفسه عن مساحته داخل النبي ﷺ فيقول «كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الآخر ثم يضمهما ثم يقول اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[3].. كل هذا الحب لا يبرر لأسامة ذلك الخطأ ولا يمنحه حق التحدث عن أسرار القلوب والنوايا.. فالمتحدث الرسمي لجميع القلوب هو الوحي والوحي فقط.. فإذا لم يكن ثم وحي فالقلب هو ما أمامك لا ما تسافر بك الظنون إليه.. هاهو أحد الصحابة واسمه عتبان بن مالك يعاني من أمرين.. الأول مرض يكبل جسده عن الوصول إلى المسجد.. والأمر الآخر: رجل كثرت مضايقته للصحابة لدرجة جزم بها بعضهم أنه من المنافقين.. فكان لا بد من تسليم هذه الحيرة الغامضة بثقلها إلى النبي ﷺ فماذا فعل عتبان وماذا فعل أصحابه الذين يتمنون؟

---

(١) صحيح مسلم ١-٩٦.

(٢) حديث حسن مر معنا انظر صحيح الترمذي للإمام الألباني رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ٤٠٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٢٣٦.

(يقول رضي الله عنه: أصابني في بصري بعض الشـــيء فبعثـــت إلى رسول الله ﷺ أني أحب أن تأتيني فتصلي في متزلي فأتخذه مصلى.. فـــأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه فدخل وهو يصلي في متزلي وأصحابه يتحدثون بينهم ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى مالك بن دخشم قـــالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك وودوا أنه أصابه شر فقضى رسول الله الصـــلاة وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه.. قال ﷺ: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه)[1] وإذا كان هناك من الصحابة من ألجمه الحلـــم عن التهور فاكتفى بطلب الدعاء على مالك بن دخشم.. فإن هناك مـــن الحماس ما جعل أحد الصحابة يحمل سيفه نحو النبي ﷺ كي يـــأذن لـــه بالقضاء على رجل يجزم بنفاقه..:

شاهده صحابي اسمه عبيد الله بن عدي وتحدث عنه فقال: «إن رجلاً سارَّ رسول الله ﷺ فلم ندر ما ساره به حتى جهر رسول الله ﷺ فإذا هو يستأمر في قتل رجل من المنافقين فقال رسول الله ﷺ: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولا شهادة له.. قال: أليس يصلي؟ قال: بلـــى ولا صلاة له.. فقال النبي ﷺ: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[2] وماذا بعد أولئك الذين تتفوه أعمالهم بأشياء فظيعة.. لا شيء سوى أن المسلم غير معني باقتفاء مواطئ القلوب ولا مراميها.

.. هو معني بتجديد الحياة بالإسلام.. بالبحث عن الخصوبة وإثـــراء

(١) صحيح مسلم ١-٦١.

(٢) صحيح مسلم ١-٦١.

سهوها بالجديد.. لا بالوقوف أمام العقم وإهدار العمر في التحسر عليه.. أما النتائج فهو أكبر من أن يصر على أن تمثل بين عينيه قبل أن يمثل أجله.. إن جاءت فيا لها من نتائج وإن تأخرت فقد سبقها إلى ما هو أبهى وأبقى كما سبق هؤلاء الفرسان غيرهم من الأحياء.. فرسان:

سرية الاثني عشر شهيداً

ففي المدينة وبينما كانت إحدى النساء مسافرة في منامها شاهدت في طريق الأحلام رحلة هؤلاء الشهداء إلى الجنة.. يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا الحسنة فربما قال هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فإذا رأى الرجل رؤيا سأل عنه فإن كان ليس به بأس كان أعجب لرؤياه إليه فجاءت امرأة فقالت: يا رسول الله.. رأيت كأني دخلت الجنة فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة فنظرت فإذا قد جيء بفلان بن فلان وفلان بن فلان حتى عدَّتْ اثنى عشر رجلاً -وقد بعث رسول الله ﷺ سرية قبل ذلك- فجيء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر السدخ أو قال: إلى نهر البيدج.. فغمسوا فيه فخرجوا منه وجوههم كالقمر ليلة البدر.. ثم أتوا بكراسي من ذهب فقعدوا عليها وأتى بصحفة أو كلمة نحوها فيها بسرة فأكلوا منها فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا وأكلت معهم.. فجاء البشير من تلك السرية فقال: يا رسول الله.. كان من أمرنا كذا وكذا وأصيب فلان وفلان حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة قال رسول الله ﷺ: عليَّ بالمرأة فجاءت قال قُصِّي على هذا رؤياك فقصت قال هو كما قالت لرسول الله ﷺ»[1].

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-١٣٥ ثنا بهز ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس =

وهذا هو الهدف والنتيجة الأسمى والأهم في حركة المؤمن حتى الموت..

سافر أولئك الشهداء إلى النعيم وبقي من بقي من رفاقهم ينتظرون الحصول على مقعد في تلك الرحلة الحلم.. ولعل من أكثرهم شوقاً أولئك الذين عبروا الصحاري والبحار مهاجرين من الحبشة واليمن.. حيث كانت إحدى السرايا تنتظرهم في رحلة لا تقل عن معاناتهم السابقة.. سرية لدى أبي موسى سر تسميتها بـ:

غزوة ذات الرقاع الثانية

يقول رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه قال فنقبت أقدامنا فنقبت قدماي وسقطت أظفاري فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق»[1] لكن أبا موسى ندم على ذكر معاناته خشية أن يعكر ذلك الحديث صفاء نيته.. حيث يقول ابنه «أبو بردة فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك قال كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[2] وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع.. ومن سياق تلك الغزوة يتبين أن العدد كان أكثر من ستة بكثير كما أن الجمال هناك كانت متوفرة لأن جابراً كان طوال الرحلة يركب جمله الهزيل الذي

=

وحدثنا أبو النضر ثنا سليمان المعني وهذا السند صحيح سليمان ثقة انظر التقريب ١-٣٣٠ وشيخه هو ابن أسلم البناني تابعي ثقة سمع من أنس.. التهذيب والتقريب ١-١١٥.

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٤٩ والبخاري ٤-١٥١٣.

اشتراه منه النبي ﷺ.. كما أن جابراً رضي الله عنه كان قد تزوج حديثاً أي بعيد وفاة والده رضي الله عنه.. ولم يعلم ﷺ بذلك إلا بعد أن أخبره جابر.. أما هذا الغزوة فسماها أبو موسى والستة الذين معه رضـــي الله عنهم بهذا الاسم لقلة الأحذية وهي سرية صغيرة ولم يحدد أبـــو موســـى وجهتها.. لكن أبا هريرة رضي الله عنه يحدد وجهة جيش شارك فيها.. بل لقد سماها بـــ:

غزوة نجد

وقد جرت في هذه الغزوة أحداث أثارت تساؤل أحد الرجال الذين سألوا أبا هريرة فقالوا له: «هل صليت مع النبي ﷺ صلاة الخوف؟ فقال أبو هريرة نعم. قال متى؟ قال كان عام غزوة نجد فقـــام رســـول الله ﷺ لصلاة العصر وقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو ظهورهم إلى القبلة فكبر رسول الله ﷺ وكبروا معه جميعاً الذين معه والذين يقـــابلون العدو ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة وركع معه الطائفة التي تليه ثم سجد وسجدت الطائفة التي تليه والآخرون قيام مما يلي العـــدو ثم قـــام رسول الله ﷺ وقامت الطائفة التي تليه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قـــائم كما هو ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى فركعوا معه وسجدوا معه ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورســـول الله ﷺ قاعد ومن معه ثم كان السلام فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل رجـــل مـــن الطـــائفتين ركعتـــان ركعتان»(١) كانت تلك الغزوات تأديباً للمعتدين وتأميناً لطرق التجـــار

(١) سنده قوي رواه النسائي ٣-١٧٣ وابن خزيمة ٢-٣٠١ من طريق عبد الله بن يزيد المقري

والحجاج وحدود دولة الإسلام التي تريد فرض هيبتها على من لا يؤمنون بأخلاقيات الجوار ولا رصيد عندهم لمفهوم العهود والمواثيق.. وبدأ الجميع ينعمون بأمن الطرق بعد تلك السرايا الناجحة إلا قوافل قريش... فأبو جندل وأبو بصير ورفاقهما المشردون في البراري الممنوعون من حق العيش بأمان في دولتهم وبين أحبتهم في المدينة.. والذين مارست قريش أقصى حالات التطرف في مصادرة حرياتهم.. كان هؤلاء يمارسون عنفاً مضاداً لكنه كان منضبطاً وموجهاً بدقة نحو سبب معاناتهم فقط دون غيره.. هذا الهدف المحدد هو قريش وقوافلها.. فقد أغلقت قريش أبواب الأرض دونهم حتى منعتهم من دخول المدنية.. وهذا العنف يبرأ منه النبي ﷺ وتبرأ منه دولته لكنها لا تمنعه لأنه صراع من أجل البقاء والكرامة.. هو دفاع عن النفس وجزاء من جنس العمل لا أكثر ولا أقل.. مرت هذه الأحداث وغيرها ومرت الأيام والشهور فإذا عام كامل يكاد ينصرم.. وهذا يعني اقتراب نهاية عام على تاريخ عمرة الحديبية التي لم يتمكن المؤمنون من أدائها بعد أن منعتهم قريش وطلبت منهم العودة بعد عام.. وهاهو الموعد يقترب والنبي ﷺ يأمر أصحابه بالتهيئ للتوجه لأداء:

عمرة القضاء

أي العمرة البديلة لعمرة الحديبية حسب اتفاق الطرفين.. ولها استعد المسلمون وسط ظروف معنوية مرتفعة بفتح خيبر وعودة المهاجرين من

=

قال حدثنا حيوة وذكر آخر قالا حدثنا أبو الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن مروان بن الحكم أنه سأل أبا هريرة وهذا إسناد صحيح عبد الله ثقة فاضل التقريب ١-٤٦٢ وحيوة ثقة التقريب ١-٢٠٨ وأبو الأسود هو الشهير بيتيم عروة محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ثقة التقريب ٢-١٨٥.

الحبشة.. أما المشركون فيعانون من الإحباط الشديد فمحمد يستولي على خيبر ودولته تتعاظم كل ثانية وسمعته سحابة عطر تطوف الجزيرة.. وأبو جندل ومن معه يقضون مضاجع قريش وقوافلها.. وقوائم ضحايا أبي بصير وأبي جندل تصل إلى قريش محملة بالنواح والعويل والندم على ذلك الشرط المكتوب بالغطرسة الوثنية.. وتسير قافلة المؤمنين ملتزمة بشروط قريش التي تقول:

«لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها»(١)

تسير قافلة المؤمنين ملتزمة بالسكينة والهدوء حسب الشروط والاتفاقية الموقعة بين الطرفين.. وتقترب من مكة الحبيبة فتشرع نوافذ الأرواح وأبوابها للذكريات وأيام الطفولة والمعاناة.. آه ما أجمل مكة وأطيب ريحها.. لكن أصدقاء الفشل وأعداء النجاح يمارسون دوماً السخرية من المتفوقين عليهم ردماً لهوة الإحباط التي يعانون منها.. وهو ما تتلفظ به قريش الآن بعد رؤيتها لمحمد وأصحابه في طرقات مكة ودروبها.. لكن النبي ﷺ يجيد وأد السخرية في مهدها.. يحشو جوفها بجمر التفوق.. عبد الله بن عباس طفل يعيش في مكة مع والده العباس بن عبد المطلب كان هناك.. شاهد ما حدث وتحدث فقال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب قال المشركون إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة فجلسوا مما يلي الحجر وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط ويمشوا ما بين الركنين ليرى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

المشركون جلدهم فقال المشركون هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا قال ابن عباس و لم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[١] و«إنما سعى رسول الله ﷺ ورمل بالبيت ليري المشركين قوته»[٢] والرمل هو الإسراع في المشي وهي حالة وسط بين الركض والمشي..

وإذا كان الرمل يغيض المشركين فإن الشعر كان يطوف حول الكعبة.. عبد الله بن رواحة أحد شعراء العصر والإسلام كان لساناً من اللهب يطوف حول الكعبة.. ويحرق ما تبقى من معنويات لقريش.. أغمدت السيوف لكن عبد الله بن رواحة لم يغمد شعره.. يقول «أنس: إن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تتريله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر فقال له النبي ﷺ خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل»[٣] وتحسباً لأي مكروه يقول أحد الصحابة وهو ابن أبي أوفى «لما اعتمر رسول ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٩٢٣.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٢٩٣.

(٣) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-١٣٩ وغيره من طريق عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس، وجعفر بن سليمان صدوق زاهد من رجال مسلم التقريب ١-١٣١ وثابت تابعي ثقة سمع من أنس انظر أيضاً النسائي ٥-٢٠٢ وفي السنن الكبرى أيضاً ٢-٣٨٣.

الله ﷺ»[1] أتم ﷺ وأصحابه عمرتهم وعطروا أرواحهم بـأجواء مكـة الحلم.. ومكثوا حسب الاتفاق المبرم ثلاثة أيام.. تمتعوا بقرب بيـت الله الحرام.. وخلال هذه الأيام طلب ﷺ يد امرأة اسمها ميمونة بنت الحارث.

الزواج بميمونة

وميمونة هي أخت زوجة العباس عم النبي ﷺ.. وابن أختها عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يتحدث عن زواج خالته فيقول:

«تزوج النبي ﷺ ميمونة في عمرة القضاء»[2] ويقول ابـن عبـاس «تزوج النبي ﷺ ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال»[3] لكن يبدو أن ابن عباس قد أخطأ لصغر سنة فقد كان طفلاً آنذاك لذلك توجهنـا إلى ميمونة رضي الله عنها وسألناها فقالت: «رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ تزوجها حلالاً وبنى بها حلالاً بنى بها بسرف»[4] وهو مكان قريب مـن مكة:

وقال ابن أختها الآخر يزيد الأصم: «حدثتني ميمونة بنت الحارث أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال قال وكانت خالتي وخالة بن عباس»[5]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٤) حديث صحيح السند رواه الحاكم ٤-٣٣ حدثنا بصحة ما ذكرته أبو العباس محمد بـن يعقوب ثنا محمد بن إسحاق الصغاني ثنا وهب بن جرير بن حازم ثنا أبي قال سمعت أبـا فزارة يحدث عن يزيد بن الأصم عن ميمونة يزيد تابعي ثقة وهو ابن أخت ميمونـة - التقريب ٢-٣٦٢ وتلميذه اسمه راشد بن كيسان وهو تابعي صفير ثقة التقريب ١-٢٤٠ ووهب ووالده ثقتان التقريب ٢-٣٣٨ و١-١٢٧.

(٥) صحيح رواه مسلم ٢-١٠٣٢.

وكان العباس رضي الله عنه هو الذي زوجها النبي ﷺ يقول ابنه عبد الله: كان الذي زوجه إياها العباس بن عبد المطلب فأقام رسول الله ﷺ بمكة»[1] وقد بقي ﷺ في مكة ثلاثة أيام هو وأصحابه يستمتعون بأجواء مكة الطيبة.. بمراتع الطفولة وذكريات الشباب.. بطرقاتها وبيوتاتها التي أرغمهم الكفر على مغادرتها. وبعد اليوم الثالث اضطروا إلى مغادرتها.. كان فراقاً مؤلماً يتحدث عنه البراء بن عازب فيقول: «أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في عمرة القضاء فلما كان يوم الثالث قالوا لعلي إن هذا آخر يوم من شرط صاحبك فمره فليخرج، فحدثه بذلك قال: نعم فلنخرج»[2].

فالنبي ﷺ خير من يفي بالعهود.. لكن:

النبي ﷺ يقدم عرضاً لقريش

يلتمس منهم السماح له بتمديد فترة بقائه وأصحابه في مكة أياماً كما طلب منهم مشاركته أفراح عرسه ووليمته.. عن هذا الالتماس وعن رد قريش يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها وأقام بمكة ثلاثاً فأتاه حويطب بن

---

(١) درجته سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ١١-١٧٣ والطبري في التاريخ ٢-١٤٣ ثنا أبان بن صالح وعبد الله بن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن مجاهد أبي الحجاج عن ابن عباس وهذا سند صحيح. عطاء ومجاهد تابعيان إمامان ثقتان معروفان وأبان وعبد الله بن أبي نجيح ثقتان التقريب ١-٣٠، ٤٥٦.

(٢) حديث حسن رواه أبو عوانة ٤-٢٩٥ حدثنا الربيع بن سليمان قال ثنا أسد بن موسى ثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال حدثني أبي عن أبي إسحاق عن البراء.. أسد السنة صدوق وشيخه ثقة متقن ووالده ثقة لكنه سمع من أبي إسحاق متأخراً: التقريب ١-٦٣ و٢-١٤٧ و١-٢٦١ لكن يشهد له ما بعده.

عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا.. قال: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا فخرج بميمونة بنت الحارث رضي الله عنها حتى أعرس بها بسرف»[1]

وعندما هم ﷺ بمغادرة أحب البلاد إلى قلبه لحقت به ابنة عمه وحبيبه سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه ورغبت في مصاحبته إلى تلك المدينة الطيبة التي آوت والدها واحتضنته إلى يوم القيامة..

«خرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي يا عم يا عم فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام دونك ابنة عمك احمليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر.. قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي.. وقال جعفر ابنة عمي وخالتها تحتي.. وقال زيد ابنة أخي فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي أنت مني وأنا منك وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي وقال لزيد أنت أخونا ومولانا»[2] نسيج متناغم وخلاب من العلاقات والحب حوله ﷺ.. كل يرى أنه أحق برعاية يتيمة حمزة.. وكلمات تواسي تلك القلوب المفعمة:

أنت مني وأنا منك.. أشبهت خلقي وخلقي.. أنت أخونا ومولانا..

---

(١) سنده قوي وقد ضعفه الإمام الألباني في تعليقه على فقه السيرة للشيخ الغزالي رحمهما الله حيث قال رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند فقه السيرة (٣٦٤) هذا ما قاله رحمه الله لكني وجدت له سنداً في المستدرك على الصحيحين ٤-٣٣ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق حدثني بن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس والسند من الحاكم إلى ابن إسحاق سند صحيح موثق في السيرة خاصة دون غيرها ومن ابن إسحاق إلى ابن عباس سند قوي مر معنا وهو الحديث قبل السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥١.

وقافلة رضي الله عنها تحت الشجرة.. والمطايا والقلوب تتفطر بين مكة وطيبة..

وصل ﷺ إلى المدينة.. لكن حياة من نذروا أنفسهم لإزالة تجاعيد الأرض وأحزان القلوب بالإيمان والتوحيد لا تعرف الهدوء ما دام هناك شبر يئن من وخز الأصنام والأوثان.. فالقضية ليست بحثا عن الغنائم أو سعياً وراء دفع حدود الدولة الجديد إلى الأقصى الممكن.. هي النبوة والتوحيد ومن حق كل البشر الحصول عليها وليس من حق من يحملونها الاستئثار بها وحرمان الآخرين من التمتع بها.. وليس من حق أحد مهما كان منع صوت التوحيد من الوصول إلى القلوب.. بعد عودة النبي ﷺ من مكة قرر القيام بالتخاطب مع الدول العظمى المجاورة.. لكن قبل ذلك وصلت أخبار ووصلت شخصيات وحدثت أحداث اهتزت لها مكة والمدينة حتى الحبشة هزها ما هز مكة والمدينة.. ولم لا تهتز المدينتان وآخر داهيتين من قريش ينتزعان قلبيهما وروحيهما من مخلفات العادات والوثنية الموروثة ويتجهان بها نحو مدينة الفجر والتوحيد:

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص يهاجران

وإسلام أمثالهما يفقد قريشاً توازنها ويصيبها في ما تبقى لها من عزم.. فأين لقريش بقائد ميداني في مثل دهاء خالد الذي يقرأ جيش خصمه كما يقرأ اسمه.. وأين لها بمثل عمرو بن العاص داهية يزحزح دهاؤه الجبال..

كان لهذين العظيمين عناد العظماء وثقتهم بقدراتهم على حل معضلة محمد عاجلاً أو آجلاً.. وهذا ما يغري أمثالهما ممن حباهم الله بعقول وقدرات ذات مواصفات قياسية.. تجد لديهم الفرح بما عندهم وحب الاستقلال والترفع عما يؤمن به ويسلكه البسطاء.. لكن الميزة في الإسلام

هو أنه بسيط ومدهش ومعجز في الوقت نفسه وتلك حقيقة لا مفر منها.. وقدرته على تطويع الجبابرة والمفكرين تماماً هي كنعومته ورقته في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين وأخذهم إلى حيث ينعمون.. لكن عنصر العناد والاعتداد بالنفس والحسد أحياناً لدى العظماء يحرمهم من البوح بالحقيقة الصارخة داخل أعماقهم.. وقد كان إسلام خالد وعمرو هو الخلاص من معاناة العناد والاعتداد بالذات.. وفي قصة إسلامهما تفاصيل تلك التعرجات التي سلكتها الروح والعقل بعيداً عن الصراط المستقيم حتى وجدا نفسيهما يوماً في صحاري أبي جهل حيث لا مكان لغير الضياع والعطش والموت.. يقول عمرو رضي الله عنه: «إني قد كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما»[1] .. لما .. لما ماذا يابن العاص.... «لما انصرفنا من الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني فقلت لهم تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً كبيراً منكراً وأني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرف فلن يأتينا منهم إلا خير فقالوا: إن هذا الرأي. فقلت لهم: فاجمعوا له ما نهدي له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً فخرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لنعده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-١١٢.

قال: فقلت: لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأت قريش إني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد.. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً قال: قلت: نعم أيها الملك قد أهديت لك أدماً كثيراً ثم قدمت إليه فأعجبه واشتهاه ثم قلت له: أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.. فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ثم قلت: أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه فقال له أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله قلت أيها الملك أكذاك هو فقال ويحك يا عمرو أطعني واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده قلت فبايعني له على الإسلام قال نعم فبسط يده وبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ لأسلم فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت أين يا أبا سليمان قال والله لقد استقام المنسم وإن الرجل لنبي أذهب والله أسلم فحتى متى قلت والله ما جئت إلا لأسلم فقدمنا على رسول الله ﷺ فقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت: يا رسول الله»[1] «ابسط يمينك لأبايعك فبسط يمينه فقبضت يدي

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه رواه الإمام أحمد ٤-١٩٨ والحارث (زوائد الهيثمي) ٢-٩٣٣ حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي عن أبي حبيب بن أبي أوس قال حدثني عمرو بن العاص من فيه، وشيخ ابن إسحاق تابعي

قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط قال: تشترط.. بماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله.. وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ.. ولا أجلّ في عيني منه.. وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له.. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة»[1] تلك هي عبارات عمرو بن العاص وذاك هو ما يتقد في داخله.. أما اتخاذ القرار الشجاع في اعتناق الحقيقة فهو مؤلم حقاً لكن ذلك الألم لا يدوم أمام سعادة العيش في واحة الإيمان وراحته.. وأمام العيش بين تلك المشاعر الفياضة التي تتدفق من كلمات وأحضان إخوته الجدد الذين يبتهجون به وبخالد الآن.. شمس جديدة تطلع على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وحياة جديدة تشرق عليهما وهما يشعران بسريان صلاة الفجر تسري في عروقهما نشاطاً وحيوية وأهدافاً أسمى وآفاقاً كانت الوثنية تعصب عينيهما وروحيهما عنها..

وإذا كانت كلمات النجاشي العظيم هي الجمرة التي تغلغلت في ضمير عمرو لتوقضه فإن هذا النجاشي لا يكف عن تحريك الحب والمشاعر.. لكنه اليوم يمارس استمطار الدموع والذكريات.. ويضفي على

=

ثقة فقيه، التقريب ٢-٣٦٣ أما راشد مولى حبيب بن أوس مصري فقد قال يحيى بن معين ثقة يروى عنه المصريون - الجرح والتعديل ٣-٤٨٦، أما حبيب بن أوس أو بن أبي أوس الثقفي فقد قال الحافظ في الإصابة ٢-١٥: ذكره ابن يونس فيمن شهد فتح مصر فدل على أن له إدراكاً ولم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم وشهدها فيكون هذا صحابياً وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

(١) صحيح مسلم ١-١١٢.

أجواء المدينة سحاباً من الحزن والوجوم.. النجاشي اليوم ثقيل طريح الفراش والحبشة حزن عليه.

مات النجاشي رحمه الله ورضي عنه

خبر تكدر له جعفر وأصحاب السفينة والنبي ﷺ والمؤمنون جميعاً.. خبر يجعل اليوم ثقيلاً تحسب ساعاته بالدموع لم يأت الخبر فوق سفينة أو بعير.. جاء الخبر من السماء فتكدر له أهل الأرض ولا أدري كم من الدموع سفحت على ذلك الملك الإنسان العادل الصالح الذي كان خير معين عندما عز المعين.. وكان خير مجير عندما ضاقت الديار والأهل بمن يقول:

لا إله إلا الله.. أصحمة النجاشي تحت الثرى لتنزل من السماء سنة جديدة مع خبر وفاته.. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «نعى لنا رسول الله ﷺ صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه فقال استغفروا لأخيكم»[(١)]

وقال لهم: «مات اليوم رجل صالح»[(٢)] «مات اليوم عبد لله صالح»[(٣)].

ثم قال: «صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم.. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أصحمة النجاشي»[(٤)] ثم دعا النبي ﷺ أصحابه «فخرج

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٤٠٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٧ من طرق عن قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم فقاموا فصلوا عليه. أبو الطفيل وحذيفة صحابيان.

بهم إلى المصلى»[1]. والمصلى غير المسجد فالمصلى في الصحراء وليس له جدران..

ثم «إن رسول الله ﷺ صف بهم بالمصلى فصلى فكبر عليه أربع تكبيرات»[2] ليس فيها ركوع أو سجود يقول جابر: «إن رسول الله ﷺ صلى على النجاشي فكنت في الصف الثاني أو الثالث»[3] استغرب بعض المصلين تلك الصلاة وذلك الاستغفار لرجل لم ير النبي ﷺ ولم يره النبي ولم يهاجر إليه ولم يبايعه بل ظنوه مازال علجاً نصرانياً يقول أنس بن مالك: «لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ استغفروا لأخيكم فقال بعض الناس يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾»[4] علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع سماوات.. الحبشي الكريم الذي كان ذات يوم يلتقط عوداً من الأرض ويرفعه ليخاطب من حوله من النصارى والوثنيين المؤمنين الذين لاذوا بعدله وطمعوا في حمايته من بطش طواغيت قريش.. تحدث حينها فاضحاً شوقه للنبي ﷺ: «تناول النجاشي عوداً من

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٥٦.

(٢) صحيح البخاري ١-٤٤٣.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٥٧.

(٤) حديث صحيح رواه كما قال ابن كثير في تفسيره ١-٤٤٤: ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ورواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق أخرى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن عن النبي ﷺ ثم رواه ابن مردويه من طرق عن حميد عن أنس بن مالك نحو ما تقدم وهذه الأسانيد صحيحة إلا سند الحسن فهو مرسل لكنه قوي بها.

الأرض فقال يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد ما يقول هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد أنه رسول الله والذي بشر به عيسى ابن مريم ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه امكثوا في أرضي ما شئتم وأمر لنا بطعام وكسوة»[1] يتذكر جعفر ورفاقه الهاربين من البطش ذلك الطعام وتلك الكسوة وذلك الملك الحبيب الذي جاءت الأخبار من أهل الحبشة بعد دفنه بـــ:

كرامة على قبر النجاشي

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور»[2].. ودع الصحابة أخاهم بالـــدعاء وطلـــب الرحمة له من الله.. وتولى بعده ملك آخر ونجاشي آخر على الحبشـــة..

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى
وهذا السند قد ضعفه الإمام الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (٣٢٥) ولا أدري على أي شيء استند غفر الله له فلا يوجد تفصيل في صحيح سنن أبي داود والصـــواب أنـــه صحيح لأن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة سند صحيح وهو من أسانيد البخاري، وأبو إسحاق عن أبي بردة من أسانيد مسلم أما تلميذ إسرائيل فثقة ثبت - التقريب ١-٦٨ وهو لم ينفرد بل تابعه عند ابن أبي شيبة ٧-٣٥٠ شيخه: عبيد الله بن موسى وهـــو ثقة وأثبت في إسرائيل من أبي نعيم - التقريب ١-٥٣٩ فالسند صحيح قال أمرنا رسول الله.. كما أن للحديث شاهداً حسناً عند أحمد ١-٤٦١ حدثنا حسن بن موسى قـــال سمعت حديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود. وحديج حسن الحديث إذا لم يخالف من هو أوثق منه.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٦ وغيره حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة ويزيد مولى آل الزبير وعروة بن الزبير تابعيان ثقتان التقريـــب ٢-١٩-٣٤٦.

وكان هذا الملك كغيره من البشر له عقل وروح وهما بحاجة إلى من يأخذهما إلى حيث أجواء الإسلام الرحبة.. لأن في إطلاقهما إطلاقاً للشعوب والأتباع.. لقد قرر ﷺ مكاتبته ودعوته للإسلام هو وغيره من الملوك والأكاسرة فالإسلام لا يعرف الطبقات في نظرته للبشر ولا يعرف الألوان ولا الأحساب ولا الأنساب.. هو رسالة توحيد من الخالق إلى المخلوق.. ويجب على من يحملون هموم الرسالة تسليمها إلى أهلها.. إلى كل البشر دون استثناء أو تمييز.. وإذا كان الإسلام يمنح الضعفاء والمستضعفين أهمية قصوى فإنه يوظف الأقوياء لنشر الحق والعدل على وجه الأرض.. ويسير معهم في ذلك إلى أقصاه.. وليس هناك أنسب من هذه الأيام التي أعقبت فتح خيبر.. فهي أيام سلام غل فيها النبي ﷺ قريشاً عن الاعتداء والحرب.. وتمكن من السيطرة على اليهود واستطاع تحجيم خيانتهم داخل دوائر ضيقة يمكن مراقبتها.. وهؤلاء في نظر الإسلام عصابات مزعجة وحفر في طريق دعوة تنظر إلى أبعد من قريش واليهود.. دعوة عالمية تنظر إلى الأرض دون حدود وإلى ما هو أبعد من الأرض.. أما الأقوياء الذين يسعى ﷺ لاستثمار سطوتهم وسلطتهم فهم قادة الدول الكبرى المحيطة بالجزيرة العربية والذين تتوزعهم ديانات واتجاهات مختلفة.. لذلك قرر:

مراسلة الملوك والجبابرة

ومن المؤكد أن ردود الفعل تجاه تلك الرسائل ستكون متباينة.. كما أن من غير المستساغ لدى هؤلاء الجبابرة أن يروا عربياً كان يرعى الغنم في الصحاري وبين الجبال يقتحم عليهم ما هم فيه من أبهة وعظمة.. مطالباً إياهم باتباعه وترك ما ألفوه وورثوه هم وشعوبهم.. الأمر حقاً

شديد الخطورة.. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن نـبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يـدعوهم إلى الله تعالى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»(١).. لكن وقبل أن يبعث بتلك الرسائل اضطر ﷺ إلى أن يأمر بصنع خاتم له.

النبي عليه السلام يأمر بصنع خاتم

يقول «أنس إن الـنبي ﷺ أراد أن يكتـب إلى كسـرى وقيصـر والنجاشي فقيل إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقة فضة ونقش فيها محمد رسول الله»(٢) «كأني أنظـر إلى بياضـه في يده»(٣) «وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر محمد سطر.. ورسول سـطر.. والله سطر»(٤).

ختم ﷺ رسائله وسلمها لمن سيقوم بحملها إلى أصـحابها.. وقـد جاءت أقسى ردود الفعل على تلك الرسالة من بلاد المجوس - فـارس.. ومن ملكهم المتعجرف كسرى وقد حمل هذه الرسالة صحابي جليل اسمه عبد الله بن حذافة السهمي.. وكانت مهمة عبد الله مقتصرة على تسليم الرسالة إلى عظيم البحرين والذي طلب منه النبي ﷺ تسليم الرسالة بدوره إلى كسرى:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٦٥٧.

(٤) صحيح البخاري ج:٣ ص: ١١٣١.

رد كسرى الفرس

الذي لم يكن يتمتع بلياقة أدبية ولا حتى دبلوماسية تؤهله لقيادة أمة عظيمة كأمة فارس.. كان كسرى كتلة من الغرور.. لم يُجد خطاب النبي ﷺ في تذكيره ببشريته وقدرة الله عليه.. قرأ كتاب رسول الله ﷺ فاستشاط غضباً وغروراً.. كيف يبعث عربي إليه رسالة يقدم فيها مطالب بدلاً من أن يبعث له بفروض الطاعة والولاء مقرونة بالهدايا والضرائب.. هذا ما لا يحتمله رجل وثني عديم الاحترام مثل كسرى.. يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم « إن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه مزقه»[١] و«خرقه»[٢] غير آبه به ولا بمن كتبه.. أما النبي ﷺ فواصل كتابة الرسائل مبشراً الدنيا بعودة التوحيد النقي إلى الأرض من جديد فكتب:

رسالة إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وهو أمير القبط.. كان رجلاً أكثر تهذيباً وأكرم خلقاً من ذلك المجوسي الأرعن.. المقوقس «أمير القبط أهدى إلى رسول الله ﷺ جاريتين وبغلة وكان يركب البغلة بالمدينة وأخذ إحدى الجاريتين لنفسه»[٣]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

(٣) حديث حسن رواه في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧ حدثنا محمد بن إدريس نا ابن خداش نا حاتم بن إسماعيل عن بشير بن مهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه والطبراني في الأوسط ٤-٣٧ ثنا خلف بن عمرو العكبري قال نا محمد بن عباد المكي قال نا حاتم بن إسماعيل به وهو سند قوي لولا لين في بشير وهو صدوق من رجال مسلم وله شاهد ضعيف من طريق يعقوب بن محمد الزهري عن رجل مجهول... في الآحاد والمثاني ٥-٤٤٧.

فأسلمت وتسراها النبي ﷺ.. وقد تردد في المدينة أن قبطياً له قرابة منها رضي الله عنها يزورها ويتردد عليها فدخل الشك إلى النبي ﷺ «فقال رسول الله ﷺ لعلي اذهب فاضرب عنقه فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد فيها فقال له علي أخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب»[1] «فكف علي عنه ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنه لمجبوب»[2].

حملت تلك الفتاة القبطية فكانت أول امرأة تحمل منه ﷺ بعد زوجته خديجة رضي الله عنها.. تلك هي هدية المقوقس الذي رفض الإسلام لكنه كان مهذباً في رده.. أما أكثر الرسائل إثارة فكانت تلك التي حملها الصحابي دحية الكلبي إلى ملك الروم.. انطلق دحية الكلبي إلى عظيم بصرى في الشام والذي سيقوم بدوره بإيصال الرسالة إلى ملك الروم هرقل.. وانطلق قبله من مكة إلى أرض الروم - الشام زعيم مكة وقريش أبو سفيان لا لشيء سوى التجارة فقط.. فتصادف وجود أبي سفيان مع وصول الرسالة النبوية الكريمة.. لن يقص دحية ما حدث.. سيتولى ذلك زعيم قريش أبو سفيان الذي كان حاضراً في بلاط الروم.. حيث استدعاه ذلك الملك لطرح بعض الأسئلة عليه حول شخصية النبي ﷺ بصفته رجلاً من قومه ومن أعرف الناس به.. لكن سؤلا ملحاً يتجول على طريق الشام ذلك هو: كيف يسافر أبو سفيان وتجارته بأمان.. صحيح أنه لن يخرج أحد من المدينة لاعتراضهم لكن في الطريق أمر مرعب ومخيف.. أسدان جريحان يتلمظان لانتزاع حريتهما وما سلبته قريش منهما.. وهما في حل من ذلك كله والنبي ﷺ في حل مما يفعلانه.. ومن الظلم إلصاق

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩ والركي هو البئر.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٣٩.

صفة الإرهاب وقطع الطريق بهما.. هما طريدا الفكرة والعقيدة صودرت أموالهما وأولادهما وأوطانهما وحريتهما ومنازلهما وليس لهما على هذه الأرض سوى مساحة بالكاد تتسع لأنفاسهما وسيفيهما.. لكنهما ليسا في أزمة كأزمة قريش لأنهما يحتسبان معاناتهما عند الله.. أما قريش فتعيش أزمة لا حل لها سوى العار.

أزمة قريش

تكمن في انهيار اقتصادها وتعذر تسيير تجارتها وانقطاعها عن العالم.. ولا مخرج لها من ذلك كله إلا خلال بوابة العار المخزية وهي التنازل عن شرطها في منع المؤمنين من اللحاق بدولتهم ونبيهم ﷺ وهذا ما حدث بالضبط: انفلت (أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت)[1].

وهاهم اليوم يمحون باطلهم بأيديهم ويتنازلون عن جورهم الذي ارتد طعنات من أبي جندل وأبي بصير في صدورهم..

لحق أبو جندل وأبو بصير ومن معهما بالمدينة ليمارسوا حرية الحركة

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٩٧٧.

والمعتقد في أجواء نقية بعيدة عن الخرافة والظلم والجاهلية.. وانطلق الكثير من الممنوعين نحو مهوى الفؤاد محمد ﷺ ومدينته المنورة بالحب والأنصار.. وعادت لقريش حرية التنقل نحو الشام واليمن بعد أن أمنت فتك أبي جندل ورفاقه.. وانطلق أبو سفيان في رحلة صيفية نحو الشام ليتزامن وصوله مع وصول:

رسالة النبي ﷺ إلى هرقل الروم

كان النبي ﷺ يريد استثمار فترة التواضع لله التي يمر بها هرقل ملك الروم بعد انتصار جيشه على جيش فارس.. حيث عاد ذلك الملك من مدينة حمص إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام شكراً لله.. يقول أحد الصحابة:

« إن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله فلما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي ها هنا أحداً من قومه لأسألهم»[(١)].

وهنا يكمل أبو سفيان القصة فيقول:

«انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل:

فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٧٤.

فقالوا: نعم فدعيت في نفر من قريش فدخلنا على هرقل فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا.. فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه

فقال: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت.

ثم قال لترجمانه سله كيف حسبه فيكم؟ قلت. هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: يزيدون أو ينقصون؟

قلت: لا بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها. قال: والله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه[1].

---

(١) يقصد أبو سفيان أنه لم يستطع أن يقدح في النبي ﷺ إلا في قوله: أنه لا يدري هل سيغدر في المستقبل أم لا.

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قلت: لا.

ثم قال لترجمانه قل له إني سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب.. وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم.

وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا.. فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه.

وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت: بل ضعفاؤهم.. وهم أتباع الرسل.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا.. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أن لا.. وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون.. وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً ينال منكم وتنالون منه.. وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة.

وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر.. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله فزعمت أن لا فقلت لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم[1] بقول قيل قبله.

---

(١) يعني قلّد قول أناس قبله.

ثم قال: بم يأمركم؟ قلت: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف.

قال إن يك ما تقول فيه حقاً فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أك أظنه منكم ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.. وليبلغن ملكه ما تحت قدمي. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم.. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط وأمر بنا فأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمر أمر بن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر»[1].

«والله ما زلت ذليلاً مستيقناً بأن أمره سيظهر»[2] لكنها الزعامة والسلطة التي تخول صاحبها تشويه الحقيقة وتبرير رفضها.. لم ينتفع هرقل من تلك الرسالة لكنه يشعر بوخزها المؤلم في ضميره ولم يكن أبو سفيان أحسن حالاً منه.. أما النبي ﷺ فلم يكن يعقد آمالاً على عناد كهذا.. كان يتطلع إلى مساحات خصبة يقف هذان العنيدان حراساً للقحط وتغييب الأخضر عنها.. لكن لا يأس مع الدعوة ومن يحمل الحق لا بد أن ينتشر وينتصر ولو متأخراً.. فالتأخير مجرد تمحيص للضمائر والأتباع.. والتأخير في حقيقة الأمر هو اتجاه نحو الجذور وسفر في الأعماق كي

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٥٨ و٣-١٠٧٦.

تتعالى شجرته في السماء بعد أن تتمكن في الضمائر والعقول والوجدان.. أما تلك النباتات التي تظهر فجأة وبسرعة ودون رصيد جذري فما هي إلا ريح واحدة وتختفي.. لم يكن في رسائل النبي التهديد بقوة عسكرية أو زحف أحمر لا يرحم.. كانت الرسائل موجهة نحو الضمير والعقل.. كانت رسائل تهز من الداخل وتغزو من العمق فليس هناك من يستطيع اليوم تهديد هرقل أو كسرى.. لكنها رسالة الإسلام التي لا تعرف حدوداً.

وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم فسوف يستقيل له غداً.. وأدرك أبو سفيان من قول هرقل ما كان يرفض إدراكه منذ سنين.. والقريب دائماً لا يقنع بإبداع القريب منه إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على قريبه المبدع.. والنبي ﷺ لم يكن ليضيع أوقاته في إقناع المعاند والحاسد فالإسلام والزمن كفيلان بهما.. وبعد أن وصلت إلى مسامع النبي ﷺ تلك الردود قال لأصحابه وحياً صادقاً وبشرى لن تتخلف.. قال «ﷺ: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده.. وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفس بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»(١).

أما النجاشي فلا أدري ما هو رده على الرسالة الموجهة له.. لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى هرقل أحدثت تداعيات مزعجة ومقلقة للنبي ﷺ ولدولته مما جعله يعد جيشاً لملاقاة طموحات الروم بإيقاف النبوة والإسلام وتداعيات الرسالة.. النبي ﷺ يعد الآن جيشاً للتوجه للشام.. لكنه قبل ذلك يقوم بـ

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٣٥.

إرسال عبد الله بن رواحة إلى خيبر

وقد أرسله عليه السلام لكي يقبض نصف المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر حسب الاتفاق المبرم بين النبي ﷺ واليهود والذي على أساسه أبقاهم هناك و لم يطردهم منها وكان عبد الله يقوم بذلك عن طريق الخرص نظراً لاستحالة الوزن والعد.. والخرص هو تقدير الثمر وهو على رؤوس النخل. وفي هذا العام حاول اليهود رشوة ابن رواحة.. حيث «كان عبد الله ابن رواحة يأتيهم كل عام يخرصها عليهم.. ثم يضمنهم الشطر.. فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه.. فقال: يا أعداء الله أتطعموني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي.. ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير.. ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم.. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض»[1] وبهذا العدل قام الإسلام وانتشر وبغيره تنهار دولته مهما تدين أصحابها وصاموا وصلوا وادعوا أنهم أهل الإسلام وحماته.. وقد أرسل النبي ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم إلى رجل يعلق الصليب على صدره لأنه عادل لا يظلم عنده أحد.. عاد ابن رواحة إلى المدينة محملاً بنصيب دولة الإسلام من التمر.. وعاد اليهود إلى بيوتهم بعد أن فشلت رشوتهم في بث الفساد الإداري إلى هذه الدولة التي تزرع رقابة الله قبل أن تزرع الخوف من السلطة والحكومة.. عاد اليهود يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة وأخيراً فكر اليهود بـ:

---

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان ١١-٦٠٨.

ولم يجدوا أنسب للقيام بهذه الجريمة من خادم للنبي يدعى «لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً..»[1] وقد كان يخدم النبي عليه السلام ويثق به رغم أنه يهودي.. وقد خضع هذا الخادم لإلحاح اليهود فأحضر لهم مشطه وبه شيء من مشاطه أي الشعر الذي يعلق بالمشط.. ووضعه في وعاء للقاح النخل يسمونه جف طلعة.. ثم قرأوا عليه تعاويذ السحر بمساعدة الجن.. ثم أخذوه إلى مكان لا يمكن لأحد أن يعثر عليه.. مكان غائر كحقد اليهود.. لقد وضعوه تحت صخرة يسمونها رعوف توضع في أسفل البئر.. ثم بدأ مفعول السحر يسري في جسد النبي ﷺ فقط لا غير. تقول «عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»[2] أي أنه أثر على جسده فقط أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. لكن هذا السحر أثر على النبي ﷺ جسدياً حيث إنه حرمه من الاتصال بنسائه أياماً.. لكن الله لم يترك نبيه. تقول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن.. فقال: يا عائشة.. أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر ما بال الرجل؟

قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟

قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً.

---

(١) صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢١٧٥.

(٢) صحيح البخاري ج: ٥ ص: ٢١٧٥.

قال: وفيم؟ قال في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان. فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رؤوس الشياطين فاستخرج فقلت: أفلا؟ أي تنشرت فقال: أما والله فقد شفاني الله وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[1].

ويروي زيد بن أرقم تفاصيل إخراج السحر فيقول: «سحر النبي ﷺ رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين.. وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان.. فأرسل علياً فجاء به.. فأمره أن يحل العقد وتقرأ آية.. فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال.. فما ذكر رسول الله ﷺ لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به ولا أراه في وجهه»[2].

أي أن النبي ﷺ لم يقتل ذلك الرجل ولم يشعره حتى في تعابير وجهه عليه السلام أنه يضمر له شيئاً.. فلم يكن عليه السلام ينتقم لنفسه.. لم يعد لليهود من وزن.. فقد تلاشت قواهم وأصبح همه عليه السلام موجهاً للقوة العظمى التي سيطول الصراع معها في المستقبل قوة النصارى ممثلة بالروم.. لذلك أعد جيشاً لملاقاة الروم الزاحفين نحوه في مكان شمال المدينة يقال له:

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١٧٥.

(٢) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-١١٥ وغيره من طرق عن الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال والأعمش إمام وشيخه تابعي ثقة سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه انظر التقريب ٢-٣٦٣.

مؤتة

هيأ النبي ﷺ جيشه وعين له قائداً هو ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فهو لن يذهب معهم هذه المرة..

وبعد أن انتهى من كل شيء خرج لتوديعهم مبكراً وهي سنته ﷺ.. وجعل زيد بن حارثة أميراً عليهم ثم قال لهم «رسول الله ﷺ إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»(١) إذاً هذه أول غزوة يشارك فيها جعفر رضي الله عنه بعد قدومه من الحبشة.. وهي كذلك أول غزوة يشارك فيها فارس الإسلام الجديد خالد بن الوليد.. يا لها من أسماء تهز الأرض ويا له من وداع يأخذ بنياط القلب.. كيف لا وهذا الجيش القليل ذاهب لملاقاة جيش الروم الذي هزم جيش فارس.. كيف لا والوداع كان لزيد وجعفر.. زيد الذي يقول عنه أحد أفراد هذا الجيش: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل في القرآن ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾»(٢).

زيد المولى هو القائد وغيره تبع له.. زيد الذي ملأ سمع النبي وبصره وقلبه.. زيد حب النبي ﷺ تقول عنه عائشة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم ولو كان حياً بعده لاستخلفه»(٣) .. زيد يودع النبي ﷺ ويودع ابنه أسامة وينطلق نحو مؤته أم نحو موته والجنة..

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٤.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٨٤.

(٣) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٦-٣٩٢ والإمام أحمد ٦-٢٨١ عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود قال سمعت البهي يحدث أن عائشة... ووائل بن داود التيمي ثقة التقريب ٢-٣٢٩ وشيخه البهي تابعي ثقة كما قال ابن سعد انظر التهذيب والبهي عن عائشة على شرط مسلم.

وجعفر ابن عمه الذي عانى الآلام والكثير من الغربة والبعد عنه ﷺ أما عبد الله بن رواحة فهو شاعر الموت الذي ردد الخندق شعره وتغنى به شهداء خيبر وفرسانها.. الشاعر الذي قال أحد أفراد هذا الجيش إن النبي ﷺ قال عن شعره «إن أخا لكم لا يقول الرفث يعني بذاك بن رواحة قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع»[1]

وقبل انطلاق أمراء مؤتة تقدم جعفر رضي الله عنه بأمنية أملتها عليه قرابته من رسول الله ﷺ.. أبو قتادة كان هناك يرى ويسمع «أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ قال بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال عليكم زيد بن حارثة.. فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب.. فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة.. فوثب جعفر فقال: يا رسول الله ما كنت أرهب أن تستعمل علي زيداً فقال: امض فإنك لا تدري أي ذلك خير فانطلقوا»[2] حتى وصولوا إلى أرض مؤتة وهي قرية من قرى البلقاء بالشام وهناك واجهوا أمواجاً بشرية تدفقت من أرض الروم.

واستعدت وأعدت ولا أدري بالضبط عددهم لكن الذي أعرفه أن

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢٢٧٨.

(٢) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٢ حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا الأسود بن شيبان عن خالد بن سمير قال قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصاري قال وكانت الأنصار تفقهه قال حدثنا أبو قتادة: عبد الله تابعي ثقة - التقريب ١-١٤١ وتلميذه تابعي صدوق يهم قليلاً أي حسن الحديث - التقريب ١-٢١٤ والأسود وسليمان ثقتان المصدر السابق ١-٧٦/٣٢٢.

عدد المسلمين كان قليلاً جداً جداً بالنسبة لجيش الروم.. أما من حيث الاستعداد فلا يمكن مقارنة جيش دولة الإسلام التي تبلغ الثامنة من عمرها بجيش إمبراطورية الروم ذات القرون.. والتي تسيح جيوشها بين قارتين.. وهنا ترد الإشكاليات العسكرية والسياسية التي تداعت على دولة الإسلام أثناء أزمة الخندق.

ما هو القرار في مثل حال مؤتة

جيش رومي أوله في أوروبا وآخره في مؤتة لم يتوقعه المسلمون أمام جيش مسلم لا أظن أن عدده يتجاوز الألفين.. وهو العدد الذي حضر الحديبية وخيبر بالإضافة إلى القادمين من الحبشة والمؤمنين الجدد.. مع ملاحظة أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وكثيراً من كبار الصحابة رضي الله عنه لم يشاركوا.. إنها معركة أشبه بالأساطير لكن القرآن نزل ليطبقه البشر لا ليدهشهم فقط.. القرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب البشر وقدراتهم وعددهم والأدوات المتاحة بين أيديهم.. نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[1].

و«لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين ومئة ألفاً فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2]

---

(١) الأنفال ٦٥.

(٢) الأنفال ٦٦.

وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا وجاز لههم أن يتحوزوا عنهم»[1] أي ينسحبوا من مواجهة العدو ويلتحقوا بباقي المسلمين وهو ليس كالفرار فالفرار هروب إلى أي جهة أما التحيز فانسحاب منظم هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.. وهم الآن معذورون في التحوز والانسحاب نظراً لأن عدد الروم يعادل أضعاف أضعاف عدد المسلمين وعدهم وهو ما ينبغي ملاحظته عند التحدث عن الجهاد.. فالجهاد ليس مجرد حماس وشجاعة فقط.. وعندما تأمل أحد الصحابة جيش الروم وجد أن الروم لم يكونوا وحدهم.. معهم أبناء جلدتهم وديانتهم الذين لا يتخلون عنهم.. معهم جيوبهم المتغلغلة في أراضي المسلمين في كل زمان ومكان.

نصارى العرب يقاتلون مع الروم

ظروف قاسية للغاية فالحرب الآن ضد النصارى العرب والـــروم.. ويبدو أن المعارك تقفز نوعياً إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى التي غالباً ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين..

كان الصحابة يأخذون قسطاً من الراحة ويتناولون شيئاً من الطعام.. أحد المجاهدين تبرع بذبح ناقته ليطعم بعض أفراد الجيش وكـــان ضـــمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك رضي الله عنه إلا سيفه وإيمانه.. قدم

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في تفسيره ١٠-٣٩: حدثني عبد الله بـــن أبي نجيح عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عباس وهذا السند على شرط البخـــاري في أكثر من خمسة مواضع وابن أبي نجيح ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٤٥٦.

من بلاده للمساهمة في منازلة الروم.. تقدم اليمني إلى صاحب الناقة بطلب غريب.. وكان بالقرب منه عوف بن مالك الذي يحدثنا عن:

صنيع اليمني

يقول عوف: «كنت فيمن خرج مع زيد بن حارثة رضي الله عنه في بعث مؤتة فرافقني مددي من أهل اليمن ليس معه إلا سيفه فنحر رجل من الجيش جزوراً له فاستوهبه المددي من جلده فوهب له فبسطه في الشمس على أطرافه فلما جف اتخذه كهيئة الدرقة وجعل له مقبضاً»(١) أي جعله مثل الترس بعد الاستراحة قرر زيد رضي الله عنه حمل الراية وبدء القتال فكان له ما أراد.. قاتل زيد ومن معه قتالاً أشبه بالأساطير وبدأ فارس اليمن بتنفيذ ما برأسه.. يقول عوف: «خرجت مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة فرافقني مددي من أهل اليمن ليس معه غير سيفه فنحر رجل من المسلمين جزوراً فسأله المددي طائفة من جلده فأعطاه إياه فاتخذه كهيئة الدرق ومضينا فلقينا جموع الروم وفيهم رجل على فرس له أشقر عليه سرج مذهب وسلاح مذهب فجعل الرومي يغري بالمسلمين فقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر وعلاه فقتله وحاز فرسه وسلاحه»(٢)

لكن مهما بلغت شجاعة هؤلاء الأبطال فهم كنقطة وسط بحر من

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم مختصراً ورواه أبو داود وأحمد وأبو عوانة من طريق صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك وتوبعوا عند أبي عوانة تابعهم ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم مختصراً ورواه أبو داود وأحمد وأبو عوانة من طريق صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن عوف بن مالك وتوبعوا عند أبي عوانة تابعهم ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير.

الروم والنصارى العرب.. قاتل زيد وقاتل بحماس من يريد اقتحام باب الجنة لكن حبيب النبي وأمير جيشه حوصر بالرماح والسيوف حتى خر شهيداً على أرض المعركة فالتقط الراية جعفر بن أبي طالب ليقوم بما يشبه المعجزات.. وكأنه يسابق زيداً ويزاحمه على دخول باب الجنة..

جعفر

هذا المبحر في المعاناة المليء بالأسرار الذي يخبئ الكثير للإسلام.. يتفجر على أرض مؤتة وكأنه يعوض غيابه المرير عن بدر وأحد والخندق وباقي المعارك المجيدة.. وكأنه يبحث عن شهادة كشهادة عمه حمزة.. وكأن فرسه تعيقه عن اقتحام الجنة.. قام بعقرها فهو لن يحتاجها بعد اليوم فليس أمامه سوى جحافل الروم والنصارى العرب والموت.. وهو لا يهاب هذه المصطلحات وليس في ذاكرته حروف للهرب..

يقول أحد الصحابة: «وهو أحد بني مرة بن عوف وكان في الغزاة غزاة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها

والروم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إذا لاقيتها ضرابها»[1]

أما كيف قتل.. فعلى طريقته الخاصة والخارقة التي نحت تفاصيلها

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وابن هشام ٥-٢٨ ومن طريقه ابن أبي شيبة ٤-٢١٣ والحاكم ٣-٢٣٠ وأبو داود ٣-٢٩ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده قال حدثني أبي الذي أرضعني وهو أحد بني.. يحيى ثقة ووالده تابعي ثقة كان خليفة والده. التقريب ١-٣٩٢.

بحرقته إلى الشهادة. لقد عقر الفرس الشقراء ثم استقبل الروم حاملاً راية رسول الله ﷺ بيده اليمنى.. متلقياً الطعنات والضربات بالرماح والسيوف حتى قطعت يده اليمنى وقطعت اليسرى كذلك.. فواصلَ احتفاءه بالطعنات حتى خر شهيداً فحلق بعدها نحو أحلامه والجنة.. ثم أخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة الذي شاهد تلك المناظر المروعة لأصحابه وتلك الجموع التي لا يمكن مجابهتها إلا بالموت.. أحس عبد الله بن رواحة بشيء من التردد .. لكن الشعر يقوم بتذكيره.

ابن رواحة والشعر والجنة

كان تردده لسان حال المعركة الشرسة والأطراف المتطايرة والدماء التي تلون أرض مؤتة.. لكن ابن رواحة يقذف مرة أخرى بالخوف وبشعر كالحتف..

كان الشعر على أرض مؤتة صهوة من الأهوال.. كان الشعر وقوداً يؤجج أرض مؤتة التي تحترق بأنفاس المحاربين وتكبيرهم وصياحهم وأنينهم.

يواصل ذلك الصحابي وصفه لما رآه من أمرائه الأشاوس فيقول:

«لما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه ... مالي أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة ... هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلى فعلهما هديت
هل أنت إلا نطفة في شنه	قد طال ما قد كنت مطمئنة

يريد صاحبيه زيداً وجعفراً»[1]

«ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال وأنت في الدنيا.. ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل»[2] رضي الله عنه واستشهد مع صاحبيه وفعل فعلهما.. اختفى الأمراء الثلاثة لكن راية الإسلام ترفرف فقد اختطفتها يد أحد الصحابة الذين يحبون الموت في سبيل الله ولا يحبون الإمارة «أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين.. اصطلحوا على رجل منكم.. قالوا: أنت.. قال: ما أنا بفاعل.. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

أين خالد بن الوليد

في وسط هذه المعمعة كان ابن الوليد يفتك بالروم فرداً فرداً ويفتك أيضاً بالسيوف فرداً فرداً.. يقول رضي الله عنه وقد أفنى مجموعة من السيوف على رقاب النصارى العرب وأسيادهم: «يقول لقد انقطعت في

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١ والبداية والنهاية ٤-٢٤٥

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١ والبداية والنهاية ٤-٢٤٥.

يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانيـــة»[1] ثم أخذ الراية بعد الشهيد ابن رواحة.

«فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حـــتى انصرف بالناس»[2] ووقى الله بحسن تصرف خالد جيش الإســـلام مـــن انتكاسة لأن استمرار الحرب معناها الإبادة لا محالة.. فقوة الروم ونصارى العرب لا يمكن هزيمتها بمثل هذا الجيش الصغير الذي يشرب أفراده الموت كما يشربون الماء.. هم لم ينتصروا على جيش الروم لكنـــهم أيضـــاً لم يهزموا وقد قنع كل فريق بما جرى له وعليه.. لكن بعض المسلمين تمكنوا من تحقيق أهدافهم الشخصية التي من أجلها خرجوا.. أما بقية الجيش فهم يشعرون بالهزيمة لأنهم لم يكونوا ضمن موكب أمرائهم الـــذين تعطـــروا بجراحهم لدخول الجنة.. لذلك مال بهم أميرهم الجديد إلى مكان آمن.

خالد بن الوليد واستراحة المحارب

خالد بن الوليد الذي ولد في عالم الإسلام أميراً أخذ جيشه بعيداً وقد أسعد الروم تصرفه ذلك فلم يقوموا بملاحقته.. لأنهم ليسوا على استعداد لتقديم المزيد من الضحايا على يد جيش لا تخيفه الأرقام ولا الأجســـام.. ولو كان النصارى في حالة معنوية مرتفعة للاحقوهم حتى الإبادة.. لكن ذلك لم يحدث فهم يحبون الحياة كما يحب المسلمون الجنـــة.. في هـــذه الأثناء كانت المدينة تلهج بالدعاء بالنصر وعودة المحاربين ظافرين.. لكن الوحي سبق الجيش بالأخبار والبشائر والأحزان.. يقول أحد الصحابة «

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-٥٥٥١.

(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق انظر ابن هشام ٥-٢٨ وتاريخ الطبري ٢-١٥١ والبداية والنهاية ٤-٢٤٥ ومعنى خاشى أي تاركهم.

إن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً قبل أن يجيء خبرهم نعاهم وعيناه تذرفان»[1] كان النعي مصحوباً بالدموع والمجد ولقب خالد لخالد بن الوليد..

خالد بن الوليد سيف من سيوف الله

«نعى ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها بن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان[2] حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[3]

وهذا الفتح يعني ضمن ما يعني قراراً سليماً أو نصراً على تلك الأرض المميتة.. انتشر الخبر فانتشر الحزن والبكاء واليتم.. أحد أيتام مؤتة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يتحدث عن مرارة ذلك اليوم فيقول:

«بعث رسول الله ﷺ جيشاً واستعمل عليهم زيد بن حارثة فإن قتل واستشهد فأميركم جعفر بن أبي طالب فإن قتل واستشهد فأميركم عبد الله بن رواحة فانطلقوا فلقوا العدو فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل ثم أخذ الراية خالد بن الوليد ففتح الله عز وجل عليه فأتى خبرهم النبي ﷺ فخرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن إخوانكم لقوا العدو فأخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل أو

(١) حديث صحيح رواه النسائي في الكبرى ١-٦١٥ والطبراني ٢-١٠٥ والبخاري ويأتي لفظ البخاري بعده وطريق النسائي هو طريق البخاري.

(٢) الذي ذرفت عيناه هو النبي ﷺ.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٧٢.

استشهد ثم أخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل أو استشهد ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل أو استشهد ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه ثم أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم»[١] أي ترك زيارتهم.. لكنه حرض مشاعر المدينة على العناية والطواف بآلامهم فقال لمن حوله: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم»[٢] ثم توجه إلى بيته مثقلاً بالحزن الشديد على أحبابه وكانت عائشة تطل على ذلك المشهد الحزين لكن حزنها لم يمنعها من الغضب على تصرف أحد الصحابة الذي لم يراع حالة النبي ﷺ.

ما الذي أغضب عائشة في ذلك اليوم الحزين

وبماذا همهمت في نفسها.. تقول رضي الله عنها: «لما جاء النبي ﷺ قَتْلُ ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس يعرف فيه الحزن وأنا أنظر من صائر الباب شق الباب.. فأتاه رجل فقال: إن نساء جعفر وذكر بكاءهن فأمره أن ينهاهن فذهب ثم أتاه الثانية (فقال قد نهيتهن وذكر أنهن) لم

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني ٢-١٠٥ حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا وهب بن جرير عن أبيه عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد عن عبد الله بن جعفر قال الحسن الهاشمي تابعي ثقة وكذلك ابن أبي يعقوب - التقريب ١-١٦٦ و٢-١٨١ ووهب ووالده ثقتان لكن رواية والده عن قتادة ضعيفة وهذه ليست منها انظر التقريب ١-١٢٧ و٢-٣٣٨.

(٢) سنده ضعيف رواه الحميدي ١-٢٤٧ ثنا سفيان قال ثنا جعفر بن خالد المخزومي قال أخبرني أبي أنه سمع عبد الله بن جعفر يقول لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال النبي ﷺ... وأبو داود وابن ماجه والحاكم والضياء والشافعي في الأم والمسند والدارقطني والبيهقي وابن راهويه والطبري وغيرهم من طريق سفيان به وظاهر السند الصحة نظراً لقول الحافظ في التقريب عن خالد بن ساره أنه صدوق والأصح غير ذلك راجع التفصيل في الموسوعة لكن له ما يشهد له.

يطعنه فقال: انْهَهُنَّ فأتاه الثالثة قال: والله غلبننا يا رسول الله.. فزعمت أنه قال: فاحثُ في أفواههن التراب فقلت: أرغم الله أنفك لم تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ و لم تترك رسول الله ﷺ من العناء»[1] «ثم أتاهم فقال لا تبكوا عليه بعد اليوم ثم قال ادعوا بني أخي فجيء بنا كأنا أفرخ فقال ادعوا لي الحلاق فأمره فحلق رؤوسنا ثم قال أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب وأما عون فشبيه خلقي وخلقي ثم أخذ بيدي فشالها فقال اللهم أخلف جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه قالها ثلاث مرات فجاءت أمنا فذكرت يتمنا..

فقال رسول الله ﷺ العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[2] .. كلمات كالبرد على قلوب كالهجير.

و لم تكن الحال بأحسن في بيت زيد بن حارثة حيث زوجته أم أيمن ويتيمه أسامة الذي ملك قلب النبي ﷺ وعيونه.. والذي قال فيه وفي والده الفقيد ذات يوم وهو يتحدث عن انتقاص البعض لـ «إمارة أبيه من قبله وايم الله إن كان لخليقاً لها وأيم الله إن كان لأحب الناس إلي وأيم الله إن هذا لها لخليق يريد أسامة بن زيد وأيم الله إن كان لأحبهم إلي من بعده فأوصيكم به فإنه من صالحيكم»[3]

أما بيت عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فقد شهد أهون من هذه المصيبة قبل الرحيل إلى مؤتة حيث «أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه.. واكذا.. واكذا.. تعدد عليه

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٣٧.

(٢) هو باقي حديث عبد الله بن جعفر السابق.

(٣) صحيح مسلم ج:٤ ص:١٨٨٤.

فقال حين أفاق ما قلت شيئاً إلا قيل لي أنت كذلك»[١] فكيف هي حالها اليوم وقد بلغها أن عبد الله لن يعود بعد اليوم إلى المدينة.. يقول أحد الصحابة «أغمي على عبد الله بن رواحة بهذا.. فلما مات لم تبك عليه»[٢] بكاء النواح والعويل الذي حدث منها في السابق بل بكته بكاء المؤمنة بقضاء الله وقدره التي تحتسب ما بها من حزن وأسى عند الرؤوف الرحيم بها وبأخيها..

هذه هي أجواء المدينة وتلك هي همومها.. أما على أرض مؤتة فاليتم له طعم آخر.. الأيتام هناك لم يعودوا صغاراً.. وعندما يكون اليتيم رجلاً فصفات الفقيد أعظم من أن تحيط بها جدران المترل والقلوب.. على أرض مؤتة شعر بعض المساكين بيتم مرير.. وأبو هريرة أكثر من عانى ووصف وباح فقال: «ما احتذى النعال ولا انتعل ولا ركب المطايا ولا لبس الكور بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر»[٣]

قال أبو هريرة ذلك مأخوذاً بسلوك جعفر وكرمه تجاهه وتجاه غيره من المساكين وهو سلوك يرتقي إلى مستوى الإسلام.. أبو هريرة المسكين الذي نحت الجوع على وجهه لغة لا يقرأها إلا جعفر والنبي ﷺ يبكي على جعفر الممدد أمامه.. يبكي على الجود الممدد على أرض مؤتة.. يبكي على يديه اللتين طالما قدمتا له وأعطته وواسته وكأنهما انفصلتا عن جسده لتقديم المزيد من العطاء.. يتحدث أبو هريرة عن تلك اللغة التي

(١) البخاري ٤-١٥٥٥.

(٢) البخاري ٤-١٥٥٥.

(٣) سنده صحيح رواه ابن سعد ٤-٤١ وغيره من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن أبي هريرة وخالد تابعي صغير ثقة وعكرمة إمام معروف وخالد عن عكرمة على شرط البخاري.

يعرف تفاصيلها حبيباه محمد وجعفر فيقول: «لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة مغشياً علي فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون.. وما بي من جنون ما بي إلا الجوع»(١)

ويقول رضي الله عنه: «آللّه الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع.. وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع.. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر و لم يفعل.. ثم مـــر بي عمـــر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر و لم يفعل.. ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي.. ثم قال يا أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال: الْحقْ ومضى فتبعته فدخل فاستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبناً في قدح فقال من أين هذا اللبن قـــالوا أهداه لك فلان أو فلانة قال: أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي -وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها- فساءني ذلـــك فقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة.. كنت أحق أنا أن أصيب من هـــذا اللبن شربة أتقوى بها.. فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عســـى أن يبلغني من هذا اللبن و لم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد.. فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم.. وأخذوا مجالسهم من البيت.. قال يا أبا هر قلت لبيك يا رسول الله.. قال: خذ فأعطهم.. فأخذت القـــدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى.. ثم يرد علي القدح فأعطيـــه الرجل فيشرب حتى يروي ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروي، ثم يرد

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٧٠.

علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روى القوم كلهم.. فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر لي فتبسم.. فقال أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال بقيت أنا وأنت.. قلت صدقت يا رسول الله قال اقعد فاشرب فقعدت فشربت.. فقال اشرب فشربت.. فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً.. قال فأرني فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة»(١) أبو بكر الذي تصدق بكل ماله على المساكين وعمر الذي تصدق بنصف ماله على أمثال أبي هريرة لم يقرءا ما خلف سؤال أبي هريرة من أنين.. لكن النبي ﷺ قرأه.. أما جعفر فللحديث عنه عند أبي هريرة مذاق مميز.. إنه يدافع عن نفسه وعن كثرة رواياته لحديث النبي ﷺ فيحمله الحديث إلى بيت جعفر حيث تتدفق الرحمة والكرم فيقول:

« إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير.. ولا يخدمني فلان ولا فلانة وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع.. وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني.. وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شئ فنشقها فنلعق ما فيها»(٢).. جعفر القادم من الغربة والفقر ينجز في عام واحد فقط أضعاف ما ينجزه البعض في أعمارهم الطويلة والعريضة.. الإنسان موقف وجعفر أكثر من موقف.. هاهو الشاب الصغير عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقلب جسد جعفر الطاهر بعينيه ويعدد ويحدد تلك الطعنات اللذيذة

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢٣٧٠.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٥٩.

النازفة فيدهش لكثرتها ويدهش لمواقعها.. فليس فيها على كثرتها طعنة أو رمية من الخلف.. يقول ابن عمر «أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره يعني في ظهره»[١] لأنه ليس بحاجة إلى الالتفات إلى الدنيا القابعة خلفه فقد عقر فرسه وعقر الدنيا معها وهو بحاجة شديدة إلى هذه الجنة التي يحاول شق جموع الروم المحتشدة كي يرتمي بين أحضانها.. وقد دخل الجنة بطريقة غير مسبوقة فقد شاهده النبي ﷺ في منامه فقال «رأيت جعفراً ملكاً ذا جناحين»[٢]

ولما عاد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى المدينة «كان إذا سلم على ابن جعفر قال السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»[٣]

لكن قبل عودة عبد الله بن عمر ومن معه رضي الله عنهم حدث خلاف حول مسألة مادية هي أحقية الفارس بمتاع المقتول من الأعداء وكان:

الخلاف بين الصحابي اليمني وخالد بن الوليد

فبينما يطالب اليمني بكل سلب الرومي من سرجه المذهب وسيفه إلى فرسه الشقراء يرى قائد المعركة الجديد غير ذلك. وتدخل عوف بن مالك لحل الخلاف فلم يغير من الأمر شيئاً فكانت هذه القصة التي يرويها عوف نفسه وكان طرفاً فيها فيقول:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٥٣.

(٢) هذا الجزء من الحديث حسن وتخريجه طويل لذلك راجعه في موسوعة السيرة وهو عند الطبراني وابن سعد والحاكم وغيرهم.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٣٦٠.

«كنت فيمن خرج مع زيد بن حارثة رضي الله عنه في بعث مؤتة فرافقني مددي من أهل اليمن ليس معه إلا سيفه، فنحر رجل من الجيش جزوراً له فاستوهبه المددي من جلده فوهب له فبسطه في الشمس على أطرافه فلما جف اتخذه كهيئة الدرقة وجعل له مقبضاً. ومضينا حتى لقينا الروم ومعهم من معهم من نصارى العرب فقاتلونا قتالاً شديداً ومعهم رومي على فرس له أشقر عليه سيف مذهب وسلاحه مذهب فيه الجوهر وسرجه مذهب فجعل يغري بالناس فتلطف المددي فجلس له جانب صخرة فلما مر به ضرب عرقوبي فرسه فقعد على رجليه وخر عنه الرومي وعلاه المددي بالسيف حتى قتله وأخذ سلبه فأتى به خالد بن الوليد فلما فتح الله علينا أعطاه خالد بن الوليد السلب وأمسك منه فقلت يا خالد أما علمت أن النبي ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى.. فقلت: فلم لم تعطه السلب كله؟ قال: استكثرته.. قلت: لتردنه إليه أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ فأبى أن يرد عليه.. قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ﷺ فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد.. فقال رسول الله ﷺ: يا خالد.. ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله.. استكثرته فقال رسول الله: ﷺ يا خالد.. أعطه السلب كله.. فولى خالد ليفعل.. فقلت: كيف رأيت يا خالد ألم أف لك بما قلت لك؟ قال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ فأخبرته.. قال: يا خالد.. لا تعطه شيئاً.. هل أنتم تاركوا لي أمرائي لكم صفوته وعليهم كدره؟ قالها مرتين أو ثلاثاً»(١)

لأن من حق الفرد مهما كان أن يشتكي أميره عند إمامه وأن يحتج ويبين وجهة نظره وأن ينكر الظلم ويحاول إزالته وهذا ما فعله عوف بن

---

(١) حديث صحيح مر معنا تخريجه وهو عند مسلم مختصر واللفظ لأبي عوانة ١-٤٢٤٠.

مالك رضي الله عنه لأن الأمير ليس معصوماً ولا مقدساً ولا إطلاق في صلاحياته.. لكن ليس من حق المأمور التشفي والتحدي ووضع الغرض الشخصي ضمن أهداف تلك الأعمال النبيلة الراقية وهو ما أفسد جهود عوف رضي الله عنه لأن الأمور اتخذت منحى آخر يرفضه الإسلام.. تعلم الجميع من النبي ﷺ حريتهم وحدودهم وسعدوا ببشاشة النبي ﷺ بوجوههم.. وبعد أيام رأى النبي ﷺ رؤيا تحمل الفزع والسرور معاً ورأى فيها قادة مؤتة.. فقال لأصحابه:

«بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضبعي فأتياني جبلاً وعراً فقالا لي اصعد

فقلت: إني لا أطيق فقالا إنا سنسهله لك فصعدت حتى كنت في سواء الجبل إذا أنا بأصوات شديدة قلت ما هذه الأصوات قالوا هذا هو عواء أهل النار ثم انطلق بي فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دماً.

فقلت ما هؤلاء قال هؤلاء الذين يفطرون قبل تحلة صومهم ثم انطلقا بي فإذا بقوم أشد شيء انتفاخاً وأنتنه ريحاً وأسوأه منظراً.

فقلت من هؤلاء قال هؤلاء الزانون والزواني ثم انطلق فإذا أنا بنساء تنهش ثديهن الحيات.

فقلت ما بال هؤلاء فقال هؤلاء اللواتي يمنعن أولادهن ألبانهن ثم انطلق بي فإذا بغلمان يلعبون بين نهرين.

فقلت من هؤلاء قال هؤلاء ذراري المؤمنين ثم شرف لي شرف فإذا أنا بثلاثة نفر يشربون من خمر لهم.

قلت من هؤلاء قال هؤلاء جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ثم شرف لي شرف آخر فإذا أنا بثلاثة نفر.

قلت من هؤلاء قال إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ينتظرونك»[1] هذه البشرى لم تمنع الصحابة من الحزن على أولئك الرجال الأفذاذ و«لما اشتد جزع أصحاب رسول الله ﷺ على من قتل يوم مؤتة قال رسول الله ﷺ ليدركن الدجال قوماً مثلكم أو خيراً منكم ثلاث مرات ولن يخزي الله أمة أنا أولها وعيسى بن مريم آخرها»[2]

في غزوة مؤتة شهادة ومجد للأموات وأما الأحياء فيكفيهم رضا النبي ﷺ عن أدائهم أما خالد بن الوليد فتميز بحيازته على شرف القيادة واللقب.. لكن ماذا عن عمرو بن العاص رفيق خالد؟ لا بد أنه يتحرق لخدمة الإسلام كما خدمه رفيقه.. لم يكن النبي ﷺ بعيداً عن مشاعر عمرو الداهية ولا عن توظيف دهائه في نشر دين الله.. استدعاه النبي ﷺ وعرض عليه قيادة حملة سميت فيما بعد بـ

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٢٢٨ واللفظ له وابن حبان ١٦-٥٣٦ والنسائي في السنن الكبرى ٢-٢٤٦ وابن أبي شيبة ج: ٧ ص: ٣٣١ من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليم بن عامر الكلاعي حدثني أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ.. عبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين - التقريب ١-٥٠٢ وشيخه ثقة من رجال مسلم - التقريب ١-٣٢٠.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٤٣ حدثنا أبو بكر بن إسحاق أنبأ محمد بن شاذان الجوهري ثنا زكريا بن عدي ثنا عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه رضي الله عنه.. عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ١-٤٧٥ وصفوان ثقة التقريب ١-٣٦٨ وكذلك عيسى التقريب ١-١٠٣ وزكريا بن عدي وابن شاذان ثقتان.

غزوة ذات السلاسل

فبعد مؤتة وذات شتاء قارس استدعي عمرو بن العاص للمثول بين يدي النبي ﷺ فمثل وتحدث عن ذلك الحوار مع نبيه فقال: «بعث إلي رسول الله ﷺ فقال: خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني.. فأتيته وهو يتوضأ.. فصعَّد فيَّ النظر ثم طأطأ.. فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة.. قلت: يا رسول الله.. ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ: فقال: يا عمرو.. نعم المال الصالح للمرء الصالح»[1] ونعم الجيش الصالح جيش عمرو هذا.. سمع عمرو تلك الكلمات الجميلة وأطاع قائده وانطلق بجيشه الذي كان ضمنه رجال سبقوا عمراً بالفضل والإسلام أمثال أبي بكر وعمر. يقول أحد الصحابة المشاركين في ذلك الجيش: «رأيت أبا بكر رضي الله عنه في غزوة ذات السلاسل وكأن لحيته لهب العرفج على ناقة له أدماً أبيض خفيفاً»[2]

---

(١) سنده حسن رواه أحمد ٤-١٩٧ والبخاري في الأدب ١-١١٢ والبيهقي في الشعب ٢-٩١ وابن حبان ٨-٦ والحاكم ٢-٢٥٧ من طرق عدة عن موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص يقول وعلي تابعي ثقة التقريب ١-٣٦ وابنه موسى حسن الحديث من رجال مسلم التقريب ١-١٨٦.

(٢) سنده قوي رواه الطبراني في الكبير ١-٥٧ حدثنا فضيل بن محمد الملطي ثنا أبو نعيم ثنا مسعر عن أبي عون عن رجل من بني أسد وسند الطبراني صحيح لولا جهالة حال شيخ الطبراني رغم إكثار الطبراني للرواية عنه انظر الجرح والتعديل حيث سكت عنه ٧-٧٦وله شاهد في الآحاد والمثاني ١-٨٧ حدثني محمد بن عبد الله بن نمير أن عبدة بن سليمان حدثهم عن إسماعيل عن رجل من بني أسد قال رأيت أبا بكر وهذا السند رجاله ثقات ابن نمير ثقة حافظ فاضل وشيخه ثقة ثبت التقريب ٢-١٨٠ و١-٥٣٠ وشيخه إسماعيل ابن أبي خالد تابعي ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١-٦٨.

إذا كان أبو بكر وعمر والعظماء أمثالهما تحت قيادة رجل لم يسلم إلا منذ أشهر فهناك تميز لهذا الرجل في مثل هذا الموقف.. فهل ستشير ذات السلاسل إلى الأفق الذي كان ﷺ يرمي بتصرفاته إليه..

كانت المدينة في حالة طوارئ.. كان المسجد يموج بالمعنويات والحماس والرايات السوداء والوداع.. وبلال كان في حالة تأهب لحماية النبي ﷺ.. أحد الصحابة قدم لتوه إلى المدينة وتساءل عما يجري داخل المدينة وقال: «قدمت المدينة فدخلت المسجد فإذا هو غاص بالناس وإذا رايات سود تخفق وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ قلت ما شأن الناس قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص»[1]

رفرف الصحابة ورفرفت الرايات خلف عمرو بن العاص منطلقين شرقاً حتى أتوا على مشارف بلاد طي عندها طلب عمرو بن العاص رجلاً عارفاً بالدروب للاستفادة منه في الوصول إلى الهدف.. فأخبره الصحابة أنهم لا يعرفون سوى لص محترف وشهير يدعى: رافع الطائي وهو أعلم الناس بالصحاري والدروب خاصة في هذه المنطقة.. رافع نفسه يروي قصة انضمامه إلى جيش ذات السلاسل فيقول:

«بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وسراة أصحابه فانطلقوا حتى نزلوا جبل طي فقال عمرو انظروا إلى رجل دليل بالطريق فقالوا ما نعلمه إلا رافع بن عمرو فإنه كان ربيلاً في الجاهلية فسألت

---

(١) سنده حسن رواه الترمذي ٥-٣٩٢ وغيره من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث بن يزيد البكري قال وهو حسن من أجل الإمام عاصم وإلا فبقية رجاله ثقات: أبو وائل اسمه شقيق بن سلمة الأسدي وهو ثقة مخضرم - التقريب ١-٣٥٤ وشيخه صحابي واسمه الحارث بن حسان.

طارقاً ما الربيل قال اللص الذي يغزو القوم وحده فيسرق»[1] ويـذكر أحد الصحابة بعض أساليب رافع في البقاء حياً في الصـحاري بعـد أن ينجح في سرقاته فيقول إنه: «كان لصاً في الجاهلية وكان يعمد إلى بيض النعام فيجعل فيه الماء ويضعه في المفازة»[2] للاستفادة منه بعد فراره حيث يدرك العطش من يلاحقه بينما يرتوي هو من ذلك البيض المفرغ المليء بالماء المفرق في الصحراء..

وافق رافع على مرافقة جيش عمرو بن العاص لكن الغريب في الأمر أن أحد الصحابة تمكن من سرقة هذا اللص الطائي الشهير بـل وأسـره وإجباره على التعلم منه.. لكن قبل أن نعرف ذلك دعونا نسير مع هـذا الجيش المؤمن الذي أصابه الجوع ولم يستطع رافع أن يقدم له شيئاً مـن بيض النعام.. لكن عوف بن مالك الأشجعي صاحب المجاهـد اليمـاني وخصم خالد بن الوليد يتبرع للقيام بشيء قد يخفف من جـوع بعـض رفاقه..

يقول عوف بن مالك رضي الله عنه: «غزونا وعلينا عمرو بن العاص

---

(١) حديث حسن سيأتي كاملاً بعد قليل وقد رواه الطبراني في الكبير ٥-٢١ ثنا إسرائيل عن إبراهيم بن المهاجر عن طارق بن شهاب عن رافع بن عمرو الطائي قال وهـذا السـند صحيح لولا إبراهيم بن المهاجر وهو من رجال مسلم صدوق لين الحفظ لكن الحـديث رواه من هو أوثق منه كما سيمر معنا في تتمة القصة.

(٢) سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والـدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بـن مالـك الأشجعي.. ابن لهيعة تابعه سعيد وهو ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريـب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه من رجال الشيخين وشيخه ربيعة وكذلك مالـك تابعيـان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

وفينا عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فأصابتنا مخمصة شديدة فانطلقت ألتمس المعيشة فألفيت قوماً يريدون ينحرون جزوراً لهم فقلت إن شئتم كفيتكم نحرها وعملها وأعطوني منها ففعلت فأعطوني منها شيئاً فصنعته ثم أتيت عمر بن الخطاب فسألني من أين هو فأخبرته فقال أسمعك قد تعجلت أجرك وأبى أن يأكله ثم أتيت أبا عبيد فأخبرته فقال لي مثلها وأبى أن يأكله فلما رأيت ذلك تركتها»[1] .. لم يبرر الجوع لأبي بكر وعمر وأبي عبيدة وعوف رضي الله عنهم أن يتناولوا لقمة شكوا في إباحة مصدرها.. وكأن الصديق يجعل من جهالة تحديد أجرة الذبح مبرراً لتركها.. وكأنه يقول لعوف: أنه لا بد من تحديد الأجرة قبل القيام بالعمل المتفق عليه وحكمة الإسلام هي في إقصاء أسباب النزاع بين العامل وصاحب العمل لاسيما إذا كان الإثنان من المسلمين.. فالاقتصاد الإسلامي اقتصاد أخلاقي قبل كل شيء وليس كاقتصاد اليهود والمشركين الذين يتسم بالمراباة والاستغلال واللا أخلاقية لكن المدهش أن أبا بكر الصديق بعد هذا كله يقوم بسلب بعض أشياء رافع الطائي..

أبو بكر الصديق يتمكن من سرقة رافع

السرقة هنا ليست على طريقة رافع الطائي بل على طريقة أبي بكر الصديق وفي وضح النهار وعلى مرأى من الجميع.. ففي تلك الأجواء

---

(١)سنده قوي رواه الإمام أحمد ٦-٢٤ والبيهقي في الكبرى ٦-١٢٠ والدلائل ٤-٤٠٤ والروياني ١-٣٩٦ وغيرهم من طرق عن سعيد بن أبي أيوب وابن لهيعة جميعاً عن يزيد ابن أبي حبيب عن ربيعة بن لقيط أخبره عن مالك بن هدم يعني عن عوف بن مالك الأشجعي.. ابن لهيعة تابعه سعيد وهو ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٢٩٢ وشيخه يزيد تابعي ثقة فقيه من رجال الشيخين وشيخه ربيعة وكذلك مالك تابعيان وثقهما الإمام توثيقاً لفظياً - ١٥٩ و٤١٩.

والليالي الباردة جداً كان دفء أبي بكر وعطفه يغمران رافعاً حتى أحس بقلبه ومشاعره بين يدي الصديق.. كان رافع مأخوذاً بصاحب رسول الله ﷺ ورفيق عمره وكأنه قد هبط عليه من السماء.. يقول رافع: «لما كان غزوة ذات السلاسل قلت اللهم وفق لي رفيقاً صالحاً فوفق الله عز وجل أبا بكر رضي الله عنه فكان ينيمني على فراشه ويلبسني كساء له من أكسية فدك فإذا أصبح لبسه ولا يلتقي طرفه حتى يخله بخلال»(١)

أي يجمع طرفي ثوبه بعود أو إبرة ولذلك صار رافع ينادي أبا بكر: يا ذا الخلال ويواصل رافع حديثه فيقول «رافقت أبا بكر في غزوة ذات السلاسل وعليه كساء له فدكي يخله عليه إذا ركب ونلبسه أنا وهو إذا نزلنا»(٢) كانت مشاعر أبي بكر الفياضة تعرف طريقها إلى أحوج الناس إليها ولم يكن هناك أحوج إلى الرعاية والعطف من هذا الشقي الهائم في البراري والجريمة.. قدم له أبو بكر كرماً وخلقاً ساحرين جعلته يتعلق به دون غيره.. ومارس أبو بكر دور الداعية الناضج الناضح بالتربية المحمدية

---

(١) سنده صحيح رواه الضحاك في الآحاد والمثاني ٤-٤٤٢ حدثنا إبراهيم بن حجاج السامي ثنا عبد الوارث بن سعيد نا محمد بن جحادة عن طلحة بن مصرف عن سليمان الأحول عن طارق بن شهاب عن رافع الطائي قال وسليمان بن أبي مسلم تابعي ثقة من رجال الشيخين - التقريب ١-٣٣٠ وتلميذه طلحة ثقة قارئ فاضل من رجال الشيخين - التقريب ١-٣٨٠ ومحمد بن جحادة ثقة من رجال الشيخين انظر التقريب ٢-١٥٠ وعبد الوارث العنبري بالولاء ثقة ثبت من رجال الشيخين ١-٥٢٧ وشيخ الضحاك ثقة ومن رجال الشيخين كبقية رجال السند - التقريب ١-٣٣.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي عاصم في الزهد ١-١٠٨ حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا وكيع وأبو معاوية المعنى واحد قالا حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب عن رافع بن أبي رافع الطائي قال.. في هذا السند أراني لا أحتاج لترجمة هؤلاء الأئمة سوى سليمان بن ميسرة وهو ثقة قاله ابن معين - الجرح والتعديل ٤-١٤٣ وللحديث شواهد مرت أسانيدها.

السخية.. لم يحدثه عن الإسلام جعل أخلاق الإسلام تتحدث إليه.. تغطيه وتدفئه وتحنو عليه.. جعل أخلاق الإسلام تقله وتظلله حتى ذهل عن كل شيء سوى الإسلام.. استحضر دفاتره وحسابات عمره وأحصى ماله وما عليه فرأى بقلبه الذي ولد اليوم على يد أبي بكر أشياء جميلة ورائعة تمر بين يديه وهو غافل عنها.. رأى بذلك القلب كم هي المسافة بينه وبين هؤلاء القوم الذي يتولى بنفسه إرشادهم إلى دربهم.. هي المسافة بين من يحلق في الأجواء وبين من ينحشر في الجحور.. رايات سوداء لكن القلوب بيضاء ترفرف في سعادة غامرة.. لا خمر لا سباب لا بغضاء ولا عداوة.. نظافة وطهارة وانتظام وصلاة وحب لا مثيل له.. أما هو فسطو وقتل ونهب وغدر وخمر وفر وحياة أذل من حياة حيوان تطارده كل وحوش الأرض..

تلك هي حال رافع الطائي وهو يرافق جيش الإسلام حتى اقتربوا من جيش المشركين عندها بدأت ملامح الدهشة تحدق بعمرو بن العاص الذي بدأ يتصرف بغرابة أثارت الكثير من الجيش مما حدا بعمر بن الخطاب إلى التوجه نحو عمرو بن العاص ليطالبه بتفسير مقنع أو ليوقفه عند حد يراه عمر ومن معه رضي الله عنهم.. يقول أحد الصحابة: «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً فغضب عمر وهم أن ينال منه [قال عمر لأبي بكر لِمَ لَمْ يَدَعْ عمرو الناس أن يوقدوا ناراً؟ ألا ترى إلى هذا الذي منع الناس منافعهم؟ فقال أبو بكر دعه قائماً ولاه رسول الله ﷺ علينا] فنهاه أبو بكر رضي الله عنه وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمه

بالحرب فهدأ عنه عمر رضي الله عنه»[1] والتزموا طاعة الأمير رغم فضل الكثير منهم عليه وسبقهم إياه في الدخول إلى الإسلام.. وكان أبو بكر رضي الله عنه أرفع الصحابة مترلة وأعلم الناس برسول الله ﷺ وأعلم الناس بمراده الذي خفي على كثير منهم.. لذا لجأوا إليه ووسطوه بينهم وبين عمرو بن العاص عله يأذن لهم بإشعال النار وسط هذا الزمهرير الذي لا يخففه سوى أكوام من الحطب واللهب.. فتوجه أبو بكر ليشفع لهم عند أميرهم فكان رد الأمير أشد من ذلك الزمهرير وأقسى.. لقد «منع الناس أن يوقدوا بليل ناراً فكلموا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: كلمه لنا فأتاه فقال: زملوك إلي لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيته فيها»[2]

إلى هذه المسافة وصلت الصرامة بعمرو بن العاص رضي الله عنه.. لم يأبه لتلك الوساطة التي تقدم بها خير الأمة رغم تقديره الشديد لصاحبها لكن يبدو أن لدى عمرو من المبررات ما يدفع به إلى هذا المستوى من الشدة.. وبالفعل فقد كان العدو على مقربة من جيش المسلمين الذي تأهب من الغد وأخذ أوامره وخططه من أميره لينفذها كما صدرت.. ودارت معركة كانت نهايتها للمؤمنين «فلقوا العدو فهزموهم»[3] وغنم المسلمون ذلك الجيش وهزموه ورأى عمرو ما بشره به رسول الله ﷺ

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٥ عن المنذر بن ثعلبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال والزيادة لابن أبي شيبة ٦-٥٣٩ حيث توبع ابن إسحاق تابعه الإمام الثقة وكيع بن الجراح رحمهم الله جميعاً والمنذر ثقة انظر التقريب ١-٢٧٤ وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ١-٤٠٣.

(٢) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣: حدثنا سعيد بن يحيى الأموي نا أبي ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عمرو بن العاص وهذا السند صحيح مر معنا في هذه القصة وسعيد ثقة ووالده صدوق وهما من رجال الشيخين.

(٣) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.

منثوراً بين يديه وولت فلول الأعداء منهزمة ذليلة «فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم»[1] ونهى جيشه أن يلاحق تلك الفلول المنهزمة رغم هشاشتها وسهولة أخذها مما جعل الأمر أشد غرابة من منع إشعال النار.. لكن الصحابة لم يحتجوا هذه المرة واكتفوا بموقف أبي بكر المتعقل والملتزم.. كما اكتفى عمرو بهذا الانتصار ثم أمر أتباعه بالعودة فأطاعوه.. والجدير بالانتباه أن عمراً لم يكن أميراً حربياً يجب الالتفاف عليه والوقوف عند أوامره العسكرية فقط بل هو إمام الجيش في الصلاة رغم وجود من يحفظ من القرآن أكثر منه ورغم وجود من هو أفضل منه ومع ذلك التزم أبو بكر وعمر ومن معهما الصلاة خلفه مما يؤكد أنه لا مكان في القيادة الإسلامية للعلمانية النصرانية فهي قيادة لا تفرق بين الدين والدنيا.. هما مفهومان متناغمان ومهمة القائد تكمن بتنقية الدنيا بالدين وبإشعالها به حيث لا مكان للرهبانية وتصوفها.. ولا للمادية البحتة التي تجعل الإنسان رقماً أو كتلة تحتل حيزاً من هذا الكون.. في ضوء هذا المبدأ كان عمرو بن العاص الأمير يؤم الناس في صلاتهم وجهادهم وذات ليلة من تلك الليالي القاتلة البرودة احتلم عمرو بن العاص ولما نهض لصلاة الفجر وجد لزاماً عليه أن يستحم.. لكن الماء بارد والجو أبرد وحتى لو قام بعملية تسخين الماء فالتسخين لن يزيل ضرر الاستحمام وسط هذا الجو الزمهريري القارس.. في مثل هذه الأحوال تتداعى الحلول من كل جهات الأرض والسماء.. يقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي

---

(١) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق في الآحاد والمثاني ٢-١٠٣.

الصبح»[1] أما سبب فعله ذلك فبسيط للغاية إنه يقول «إني سمعت الله يقول ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما»[2] والله لا يكلف نفساً إلا ما قدر طاقتها.. يقول ﷺ: «ذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[3]

وجد عمرو في القرآن مخرجاً لما هو فيه.. أما رافع الطائي فقد وجد في صاحب الخلال الرائعة بوابة يهرب خلالها مما هو فيه من تشرد وضياع وحياة وضيعة.. ففي طريق العودة توجه رافع بقلبه إلى صاحب الخلال.. إلى رفيقه الرائع أبي بكر الصديق فكانت كلمات الصديق أجمل ما تعلمه وأغلى ما حصل عليه رافع في حياته كلها..

كلمات أبي بكر لرافع الطائي

يقول رافع «انطلقت معهم حتى إذا رجعوا من المكان الذي حاجتهم فيه أتيت أبا بكر رضي الله عنه فقلت يا ذا الخلال توسمتك من بين أصحابك قال ولم؟ قال: لتعلمني.. قال: قد اجتهدت.. فقلت: أردت أن تخبرني بشيء يسير إذا فعلت كنت معكم ومنكم.. قال: تحفظ أصابعك

---

(١) سنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وأحمد ٤-٢٠٣ والحاكم ١-٢٨٥ والبيهقي ١-٢٢٥ وغيرهم.. عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن عمرو بن العاص وهذا السند صحيح يزيد تابعي ثقة فقيه: التقريب ٢-٣٦٣ وشيخه المصري ثقة ٢-٨٢ وعبد الرحمن بن جبير تابعي كبير ثقة عالم بالفرائض التقريب ١-٤٧٥.

(٢)سنده صحيح رواه أبو داود ١-٩٢ واللفظ له وأحمد ٤-٢٠٣ والحاكم ١-٢٨٥ والبيهقي ١-٢٢٥ وغيرهم.. عن يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أبي أنس عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن عمرو بن العاص وهذا السند صحيح يزيد تابعي ثقة فقيه: التقريب ٢-٣٦٣ وشيخه المصري ثقة ٢-٨٢ وعبد الرحمن بن جبير تابعي كبير ثقة عالم بالفرائض التقريب ١-٤٧٥.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٦-٢٦٥٨.

الخمس؟ قلت: نعم، قال: فذكر شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة الخمس وتخرج زكاة مالك إن كان عندك وتحج البيت وتصوم رمضان.. قال: وخير لا تأمرن على اثنين.. فقلت: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر.. قال: لعلها تفشو فتبلغك ومن هو في دونك.. إن الله لما بعث نبيه ﷺ دخل الناس في الإسلام فهم عواذ الله وجيران الله وفي خفرة الله.. إن الأمير إذا كان في قوم فظلموا فلم ينتصر بعضهم من بعض انتقم الله منهم.. ولعمر الله إن الرجل منكم يظل ناتياً عضله غضباً لجاره والله من وراء جاره»(١)

اكتفى رافع بوصية الصديق العظيمة واعتنقها وودع أصحابه مؤمناً بعد أن صاحبهم مشركاً.. ودعهم بغير القلب الذي استقبلهم به وبقي في أرضه ليبدأ حياة بيضاء بالتوحيد.. وغاب الجيش عن ناظريه لكنه لم يغب عن ذاكرته ووجدانه.. أما جيش ذات السلاسل فسافر كالشوق نحو المدينة.. وقد تزامن وصوله مع وصول مسافر حمل معه عجوزاً من بني تميم تقيم في بادية يقال لها الربذة بين مكة والمدينة وهي تبحث عن أحد يحملها إلى النبي ﷺ.. هذا المسافر هو أحد الصحابة واسمه الحارث بن حسان وقد أثارت تساؤله تلك الرايات السوداء وتلك الاحتفالية بعودة المحاربين منتصرين محملين بالغنائم وأحاديث السفر. يقول الحارث «خرجت لأشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله فمررت بالربذة فإذا عجوز منقطع بها من بني تميم فقالت يا عبد الله إن لي إلى رسول الله حاجة فهل أنت مبلغي إليه.. قال: فحملتها فقدمت المدينة»(٢) فـ

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث رافع السابق.

(٢) حديث حسن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث.. قال: وهذا السند =

«دخلت المسجد فرأيت النبي ﷺ قائماً على المنبر يخطب وفلان قائم متقلد السيف فإذا رايات سود تخفق.. قلت: ما هذا قالوا عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسل»(١) «فلما نزل رسول الله من على منبره أتيته فاستأذنت فأذن لي.. فقلت: يا رسول الله إن بالباب امرأة من بني تميم وقد سألتني أن أحملها إليك قال: يا بلال.. ائذن لها قال فدخلت فلما جلست قال لي رسول الله: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم.. وكانت لنا الدائرة عليهم فإن رأيت أن تجعل الدهناء بيننا وبينهم حاجزاً فعلت.

تقول المرأة: فإلى أين يضطر مضطرك يا رسول الله؟ قال:

قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول معزى حملت حتفها وحملتك تكونين على خصماً أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد.

فقال رسول الله وما وافد عاد قلت: على الخبير سقطت:

إن عاداً قحطت فبعثت من يستسقي لها فبعثوا رجالاً فمروا على بكر ابن معاوية فسقاهم الخمر وتغنتهم الجرادتان شهراً [جاريتان يقال لهما الجرادتان فخرج إلى جبال مهرة فنادى إني لم أجئ لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه اللهم اسق عاداً ما كنت مسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها خذها رماداً رمدداً لا تبق من عاد أحداً] ثم فصلوا من عنده

حسن من أجل الإمام عاصم وقد سبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

(١) حديث حسن رواه البخاري في التاريخ الكبير ٢-٢٦٠ والطبري في التفسير: ٨-٢٢٠ و٢٢١ من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث.. قال: وهذا السند حسن من أجل الإمام عاصم وقد سبق الحديث عن السند عند الحديث عن الرايات السود.

حتى أتوا جبال مهرة فدعوا فجاءت سحابات.. وكلما جاءت سحابة قال: اذهبي إلى كذا حتى جاءت سحابة فنودي خذها رماداً رمدداً لا تدع من عاد أحداً فسمعه وكلمهم حتى جاءهم العذاب [فكانت المرأة تقول لا تكن كوافد عاد]»[1] ثم نظر ﷺ في حاجة التميمية وحاجة حسان ثم قابل الأمير المظفر عمرو بن العاص بعد أن قام بعض أفراد جيشه بتقديم شكوى ضده لدى النبي ﷺ

شكوى ضد عمرو بن العاص

تقبلها ﷺ كما قبل تلك الشكوى ضد خالد بن الوليد بعد معركة مؤتة.. لكن هذه الشكوى لا تحمل شيئاً من التشفي أو الانتصار للذات.. كانت شكوى ضد الأمير هدفها الصالح العام وهي مشروعة ومبررة.. ولم يشفع انتصار عمرو بن العاص له برفض الدعوى.. فقد قام النبي ﷺ باستدعاء عمرو بن العاص للتحقيق معه والنظر في الشكوى بل الشكاوى المقدمة ضده.. وتتلخص في ثلاثة أمور:

الأول: منعه للجيش من إيقاد النار والأجواء شديدة البرودة.

الثاني: حرمانه الجيش من غنائم مؤكدة برفضه ملاحقة فلول الأعداء الهاربة من المعركة.

الثالث: صلاته بالجيش وهو جنب دون اغتسال.

يقول عمرو رضي الله عنه: «لما بعثه رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات السلاسل منع الناس أن يوقدوا بليل ناراً.. فكلموا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: كلمه لنا.. فأتاه فقال: زملوك إلي لا يوقد أحد منهم ناراً إلا ألقيه

---

(١) جزء من الحديث السابق.

فيها.. ثم لقي العدو فهزمهم ولم يدعهم يطلبون العدو.. فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ أخبروه بالخبر وشكوا إليه.. فقال: كانوا قليلاً فكرهت أن يوقدوا فيستبين للعدو قلتهم.. وكرهت أن يتبعوا العدو وخفت أن يكون لهم مادة فيعطفوا على الناس. فحمد رسول الله ﷺ أمره»(١) وتبين للجميع بعد نظر النبي ﷺ في اختياره لقادة جيشه ودهاء عمرو العسكري مع مساحة الحرية الشاسعة في طرح المشاكل والشكاوى دون قمع أو مصادرة للرأي الآخر.. بعد ذلك طرح النبي ﷺ سؤالاً حول اجتهاده عندما صلى بأصحابه ولم يغتسل واكتفائه بالتيمم فقط ويقول عمرو: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح.. فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو.. صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً»(٢)

انتصارات لعمرو بن العاص في الحرب والسلم.. خرج عمرو منها بأشياء كثيرة لكن نفسه كانت تحدثه بنصر أكثر اتساعاً وأعمق غوراً..

عمرو بن العاص يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ

فقد قام بأعمال قياسية في فترة قصيرة وهو أمر لم يكن يحلم به بل هو من المستحيلات لو ظل عمرو قابعاً متخثراً بشركه.. ولاه ﷺ على صاحبيه أبي بكر وعمر وهو أمر لم يكن عمرو يتوقعه.. ثم إنه انتصر في المعركة وأبدع في قراراته وأصاب في اجتهاده.. فماذا بقي سوى أن ينتصر على من

(١) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

(٢) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.

حوله في احتلال الجزء الأكبر من قلب النبي ﷺ.. توجه عمرو بن العاص نحو النبي ﷺ بقلب يحلم بالكثير الكثير وسأله.. يقول رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل.. قال: فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة.. قلت: من الرجال؟ قال: أبوها.. قلت: ثم من؟ قال: عمر.. فعد رجالاً فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم»(١).. عندها أدرك عمرو فضل السابقين عليه وأدرك أيضاً تثمين النبي ﷺ لقدراته وأن عليه حسب عدالة هذا النبي وإنصافه أن يبذل الكثير للّحاق بمن سبقوه بإنجازاهم العظيمة.. وذلك لأن عمْراً ليس رجلاً عادياً يقنع باعتناق الإسلام فقط دون أن يكون له دور في حياته الجديدة.. عمرو بن العاص ليس كهذا الرجل الذي جاء «إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع.. وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة.. قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.. قال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق»(٢) أما عمرو فيبحث عن دور يخدم به هذا الإسلام ليعوض ذلك الفرق الذي قطعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية المهاجرين والأنصار.. وهو ممن ينطبق عليه مفهوم الخيرية التي قدمها ﷺ لبعض الصحابة عندما قالوا «للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم.. قالوا: يا نبي الله: ليس عن هذا نسألك.. قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله.. قالوا: ليس عن هذا نسألك.. قال: فعن معادن العرب تسألوني.. قالوا: نعم.. قال فخياركم في الجاهلية

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٨٤.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ١-٢٥.

خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1] وعمرو وخالد وأمثالهما أصحاب قرار وأدوار بارزة في الجاهلية.. فليس من المتوقع أن يخبو وهجهم بعد إسلامهم.. لأن الإسلام مأخوذ بتفجير الطاقات واستثمارها ولكن نحو الأجمل والأسمى.. وهل هناك تفجير واستثمار كهذا الذي حصل عليه عمرو وخالد.. هل هناك من قطع بلمح البصر تلك المسافة التي قطعاها أو اعتلى قمة كالتي يقفان عليها.. والمستقبل بالإسلام يعد لطاقات عمرو بن العاص الكثير والكثير مما لا يحلم به لو كان منبطحاً تحت أقدام هبل وبقية الأخشاب والأحجار المقذوفة فوق ظهر الكعبة.. هاهو بعد أن ترك تلك الأصنام التي حجمته في دائرة مساحتها لا تتجاوز مساحة دائرة الطواف بصنم.. ها هو يتبختر على مشارف أعظم دولتين في العالم فارس والروم بكل ثقة.. هذا بالضبط ما كان الإسلام يعده لأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط لو أسلموا.. وهذا ما تنبأ أبو سفيان بحدوثه وهو واقف على بلاط هرقل الروم ينصت إلى زعيم الروم وهو يتأهب للرحيل عن بلاطه وأرضه وسلطانه وملكه لمحمد البسيط الذي «يخصف نعله ويخيط ثوبه ويرقع دلوه»[2] لمحمد الذي يقول عن نفسه «آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد فإنما أنا عبد»[3] لمحمد الذي يأمن عنده الخائف.. أُتي له «برجل ترعد فرائصه، فقال له هون عليك فإنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»[4]

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٣٥.

(٢) حديث صحيح مر معنا وهذا لفظ ابن حبان ١٢-٤٩٠.

(٣) صحيح الجامع للإمام الفقيد الألباني رحمه الله.

(٤) حديث صحيح رواه الحاكم ٢-٥٠٦ والطبراني ٢-٦٤ إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم عن جرير بن عبد وابن ماجه ٢-١١٠١.

ليس محمد ﷺ فقط بل أي مسلم.. عندما يتقدم للعـــالم بمشـــروعه الحضاري.. عندما يضع نفسه خلف مشروعه لا أمامه.. عندها فقط تجد كل شيء يحبه ويخافه.. تجده يبدع يتوهج.. يعيد صياغة العالم بـــأحرف نقية وجديدة..

أما إذا رأيت خللاً في مشروع إسلامي ففتش عمن وضع نفسه أمام ذلك المشروع لا خلفه.. عندها تتهاوى أمام عينيـــك القـــيم والمبـــادئ والثوابت وينتهي بك المشهد إلى أكوام يستحيل معها الإبداع والإقناع.. لم يكن الصحابة يقدمون للعالم أنفسهم وأهواءهم كانوا يقدمون كتاب الله وسنة رسوله.. كانوا يضعون أخطاءهم ضمن أرصـــدهم لا ضـــمن أرصدة الإسلام.. وهو ما قفز بهم في فترة قياســـية إلى حـــدود فـــارس والروم.. أما قريش ذلك الخصم الذي كان يحتقرهم ويطلق عليهم ألقاباً لا تليق إلا بالمجانين وقطاع الطـــرق.. قـــريش اليـــوم دون طـــرق دون معنويات.. فالمعنويات والانتصارات والمساحات لمحمد وأتباع محمد ﷺ.. ولم يبق لقريش سوى شرف الحج وقد تحول إلى موسم يسخر من قريش وأصنامها وعنادها.. قريش اليوم مكبلة بعهد مع خصمها محمد.. ومحاطة بمناطق يملكها خصمها محمد.. ومخنوقة بإنجازات يصنعها خصمها محمد.. فما الذي بقي لقريش سوى مكة الحزينة والأصنام التي بدأت بالتآكـــل.. وهو في الحقيقة ليس خصماً لها بل هي التي تصر على خصومته وهـــاهو المجد الذي وعدها به يرف على أرض فارس والروم ولكنه للمؤمنين به أما قريش فقد أعماها رمد التحديق بهبل وبقية الأخشاب والأحجار الجاثمـــة على أنفاسها وعقولها كما أعمى سيد اليمامة الذي لم يكتـــف بالوثنيـــة والشرك بل أقدم على شيء خطير يؤكد به كرهه لهذا النبي ودينه:

الفهرس